٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٢١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

عصمة الأنبياء
في
الكتاب والسنة والرد على
الشبهات الواردة عليها

اعداد

محمد الخضر الناجي ضيف الله

رسالة

مقدمة للحصول على شهادة " الماجستير "

من قسم الدراسات العليا بكلية الشريعة

والدراسات الاسلامية فرع الكتاب والسنة

بجامعة الملك عبد العزيز

مكة المكرمة

١٠٢٢٢٢

جامعة أم القرى / مكة المكرمة
عمادة شؤون المكتبات
قسم المخطوطات
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

٢١٩

باشراف

الدكتور عبد العظيم الغباشي

١٣٩٦هـ – ١٣٩٧هـ

١٩٧٦م – ١٩٧٧م

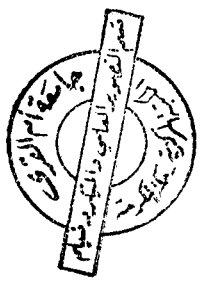

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الشكر والتقدير

هذا ، وانى حين أشرع فى كتابة رسالتى هذه ، أقدم جزيل الشكر لمن ساعدونى بآرائهم النبيلة ، وتوجيهاتهم الفذة ، وأخص بالذكر منهم مشرفى الخاص فضيلة الشيخ عبد العظيم احمد الغباشى فى ايجابيته وأخذه بزمامى دائما الى ما ينفعنى .

ولا أنسى أيضا أن أخص استاذى فضيلة الشيخ محمد السماحى على آرائه وكشفه عن المعانى الجديدة التى جنيتها وهى غضة طرية .

وأعترف لجامعة الملك عبد العزيز بط وفرته لى ولطلابها من المراجع الأصيلة ، والجو المناسب ، والمساعدة المادية لشراء الكتب ، وتوزيع المجلات النافعة ، والكتب الثمينة مجانا وغير ذلك والله ولى التوفيق .

محمد الخضر بن الناجى الموريتانى

تمهيـــــــــد

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعـــد :
فان الهدف من اختياري لهذا الموضوع (عصمة الأنبياء) هو الكشف عـــن معاني الآيات القرآنية التي حاك حولها بعض الفرق شبها لا تليق بمقـــام النبوة . وهي في الحقيقة فرق ضالة حائدة عن الصواب في هذا المجال ، فقد ادعت أن هذه الآيات التي أنا بصدد الكلام عنها دلت على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير معصومين من الكذب وكبائر الذنوب وحتى من الكفر ، أعاذهم الله من ذلك وايانا .

ولما تفضل الله علي بأن جعلني من بين طلاب الدراسات العليـــا الشرعية ، وكان لزاما علي أن أقدم بحثا لرسالة الماجستير ، وأثناء تلاوتـــي للقرآن الكريم تدبرت هذه الآيات :

قوله تعالى : (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعـــك من الغاوين) وقوله تعالى (فبعزتك لأغوينهم أجمعين . الا عبادك منهـــم المخلصين) ونحو ذلك من الآيات الدالة على أن الأنبياء عليهم الصـــــلاة والسلام لا سلطان للشيطان عليهم وأنهم من عباد الله الذين أخلصهم وأنعـــم عليهم : قال تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعـــم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

وقد تقرر لي من خلال دراستي للشريعة المطهرة أن كل معصيـــــة رائدها الشيطان لعنة الله عليه ، وقد أقر الشيطان نفسه على نفسه بأنه لا

سلطان له على عباد الله المخلصين ، وقد نص الله تعالى على أن الشيطان لا سلطان له على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، وانما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ، وهؤلاء أولهم الانبياء على التحقيق. قال تعالى : (انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) الى غير ذلك من الآيات التى لا تحصى كثرة .

فلذلك أيقنت أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من تسلط الشيطان وغوايته والانقياد لمراتعه .

وقد رأيت آيات أخرى ربما ظن بها من قلت بضاعته فى فهم كتاب الله أنها تتعارض مع العصمة المفهومة من الآيات الآنفة الذكر ، وربما تذرع بها ، كما قدمنا ، بعض الفرق الضالة كالحشوية مثلا والكرامية وغيرهم .

وهذه الآيات مثل قوله تعالى (وعصى آدم ربه فغوى) وقوله تعالى : (ونادى نوح ابنه الى قوله انى أعظك أن تكون من الجاهلين) وكقوله تعالى فى ابراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام (قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون) وقوله تعالى (انى سقيم) حكاية عنه عليه الصلاة والسلام ، ونحو ذلك من الآيات ، فهذه الآيات وأمثالها هى التى ناط بها أصحاب الشبه شبههم الكثيرة التى لا تليق بمناصب الانبياء ومقاماتهم العلية بل ولا تليق بمقامات الاولياء والفضلاء من أتباعهم عليهم الصلاة والسلام .

لهذا كله أردت أن أبذل الجهد فى جمع ما تيسر لى من كلام علماء

السلف الصالح فى هذه الآيات الكريمة ، للقطع بأنهم قد سبقونى لايضاح ذلك كله وأنهم خاضوا معارك مع الزنادقة والملحدين ، وردوا على شبههم وانما الجديد منى فى ذلك هو الجمع لأقوال العلماء فى هذا الميدان ، بينما كانت مبعثرة فى كتب التفسير والحديث والأصول والفقه ، وأضفت الى ذلك ترجيح ما ظهر لى رجحانه بالدليل الشرعى والعقلى ، وما تجدد فى هذا العصر من الآراء الصحيحة فى هذا الموضوع ، لانى أنظر الى ذات القول لا الى قائله .

وأيضا فانى لما لم أجد من سبقنى لاختيار هذا الموضوع فى المملكة من طلاب الجامعات ولا من صنف فيه من علمائنا مستقلا سوى أنى قد عثرت فى نهاية سنة جمعى للرسالة على مصنف صغير جدا للامام الفخر الرازى وقد استفدت منه فائدة كبيرة ، الا أنه ليس واف بالمطلوب فى نظرى . فكان هذا مما حدا بى الى أن أكشف النقاب ، وأتحمل الاتعاب لكتابة هذا الموضوع .

وأرجو الله تعالى أن يلهمنى الصواب ، ويهدينى لما اختلف فيه من الحق باذنه انه سميع مجيب .

كما أرجوه تعالى أن يسد بهذا البحث ثغرة من الثغرات التى يدخل منها طعن الطاعنين وحقد الحاقدين أعداء الاسلام والمسلمين . انه على ذلك قدير وبالاجابة جدير .

وقد بدأت الاهتمام بهذا الموضوع منذ تسجيلى لاعداد هذه الرسالة عام ٩٥ ـ ١٣٩٦ هـ ، وقد جمعت مادته من كتب التفسير ، والحديث . وقد رتبت هذا البحث على مقدمة وعشرة فصول وخاتمة ، وقد آن وقت الشروع فى المقدمة فأقول وبالله التوفيق :

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون ، والصلاة والسلام على أنبياء الله ورسله المعصومين من التبديل ، والتحريف لشرعه ، ومن الكبائر وصغائر الخسة دون خلقه ، والذين هم أمناء الشرع الى خلق الله فى أرضه ، فمن حاد عن طريقهم ضل وغوى ، ومن اتبع هداهم فلا يضل ولا يشقى ، وسعد فى الدار الآخرة ،والاولى ، أما بعد :

فهذه رسالة شاركت بها فى الذب عن أنبياء الله تعالى ورسله ، لانهم سادة خلق الله وأتقياؤه ، فأبطلت فيها ما فاهت به ألسنة الحشوية والكرامية وغيرهم ، من الصاق ما يستحى من ذكره من الجرائم بأنبياء الله جل وعلا ورسله ، الذين هم أفضل خلق الله على الاطلاق .

وموضوع هذه الرسالة فى الحقيقة هو تتبع الآيات التى أثار بعض الفرق حولها شبهات ، والغاية من ذلك ، الوقوف على شبهاتهم ، والرد عليها ، لان ذلك كان سببا لمعارك ضارية وقعت بينهم ، وبين سلفنا الصالح فأجابوا عن كل شبهاتهم ، وردوا عليها بما يروى الغليل ، ويشفى العليل .

وقد أردت بتصنيف هذه الرسالة أن أتمكن من الرد على ملاحدة أهل هذا الزمن ، وأن أجمع للمسلمين من كلام سلفهم الصالح ما يردون به على

كل من حاول الطعن فى الرسل والأنبياء الذين هم الواسطة بيننا وبين خالقنا ، نسأل الله جلت قدرته أن يمن علىّ بالاخلاص فى هذا العمل ، وأن يهدينى لما اختلف فيه من الحق باذنه انه هو ولى ذلك والقادر عليه .

هذا وقد لخصت هذه الرسالة فى عشرة فصول كل فصل يحتوى على ثلاثة مباحث ، ما عدا الفصل الأخير الذى هو خاص بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فانه لكثرة الآيات التى احتوى عليها لم يمكن فيه ذلك .

أما المبحث الأول من كل فصل فهو فى جمع الأقوال جملة حول الآية التى يفتتح بها ذلك الفصل .

وأما الثانى فهو فى عزو الأقوال الى أصحابها ، ومناقشتها .

وأما الثالث فهو فى ترجيح ما ظهر لى رجحانه ، من غير تعصب لمذهب ولا لقائل معين ، لأن النظر يجب أن يكون الى ذات القول لا الى قائله .

قال الشاعر :

لا تحقرن الرأى وهو موافق * حكم الصواب اذا أتى من ناقص

فالدر وهو أعز شىء يقتنى * ما حط قيمته هوان الغائص

ثم بعد الانتهاء من المباحث الثلاثة من كل فصل ، أنبه على الشبهات التى أوردت والغالب أن تكون من كتاب " عصمة الأنبياء " للفخر الرازى لأنه هو الذى جمعها وأجاب عن كل واحدة منها رحمه الله تعالى ، وغفر له ، وأنا دائما أذكر اجابة الرازى ، وتارة أزيد من عند نفسى بما يسره الله لى ، وأعلم أن المراد بتقسيم كل فصل الى هذه المباحث الثلاثة هو أن التأويلات والأقوال التى يذكرها

أهل العلم فى الآيات التى هى مفتاح كل فصل من هذه الفصول العشرة كثيرة بحيث لا يمكن ضبطها لأول مرة مع عزوها فاخترت أن أذكرها مجملة أولا تحت مبحث مستقل ؛ ثم بعد النظر فى أدلتها ، أخصص لعزوها ومناقشتها مبحثا ثانيا زيادة فى الايضاح والبيان ، ولئلا يمل القارئ ، ولأجل أن ترسخ المعانى فى النفس أكثر ، ثم بعد الانتهاء من المباحث ، والتنبيه على الشبهات والرد عليها ، أضيف الى ذلك بعضا مما لاح لى من العبر ، والفوائد التى استفيدت من الموضوع ، ولم تكن من صلب الرسالة ، تكميلا للفائدة .

وبعد انتهائى من جميع الفصول والمباحث ، والتنبيهات والعبر والفوائد أختم البحث بخاتمة أضمنها نماذج من النقول فيما دار حول عصمة الأنبياء من الآراء المختلفة وفيما أجمع المسلمون على عصمتهم منه وما جوزوه فى حقهم وأذكر فيها بعض الطوائف والفرق التى مانعت وخالفت فى عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ليكون القارئ على بصيرة من ذلك قبل الوقوف عليه .

واعلم أن الأنبياء الذين خصصوا بالذكر فى هذه الرسالة عشرة فحسب وهم على الترتيب فى الرسالة : (١)

آدم ونوح وابراهيم ويوسف ويونس وموسى وداود وسليمان وأيوب ومحمد عليه وعلى جميعهم الصلاة والسلام .

والسبب فى اختيارى هؤلاء دون غيرهم من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن الآيات التى هى موضوع البحث ، قد أثارت انتباهى قبل التفكير فيه

---

(١) رسالتى هذه وقد راعيت فيهم ترتيب الآيات الا الآيات التى تتعلق بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فلم أراع فيها ذلك ليكون ختامه مسك .

خاصة بهم صلى الله عليهم وسلم ، وأما باقى الانبياء والرسل فهم داخلون معهم فى الكلام العام حول العصمة لانهم لا فرق بينهم فى الجانب الذى هم معصومون من أجله .

وبعد ما أوشكت على طبع الرسالة والانتهاء منها ، عثرت على كلام حول سبعة آخرين منهم وهم : زكريا وعيسى ولوط وهارون وشعيب ويعقوب والخضر عليهم الصلاة والسلام ، على أن فى الأخير منهم خلافا بين العلماء : هل هو نبى أو لا ؟ وبسبب أنى قد قدمت خطة البحث وليس فيها غير العشرة الانبياء الذين تقدم ذكرهم ، حال ذلك دون التعرض لهم بخصوصهم ، ولأن ذلك أيضا يطيل البحث عن الحد الذى يمكن معه التحقيق العلمى ، ولأن الشبه التى حيكت حولهم ليست لها خطورة بخلاف من جعلتهم موضوع الرسالة .

والأمل كبير فى الله تعالى أن يتيح لى فرصة أخرى للتحقيق والاستقصاء . انه سميع مجيب ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وفيما يلى تعريف العصمة لغة وشرعا :

العصمة لغة وشرعا :

(العصمة بالكسر لغة : المنع ، ويقال : أصل العصمة الربط ثم صارت بمعنى المنع .

وأما فى الاصطلاح الشرعى فهى عصمة الله تعالى عبده مما يوبقه . هـ وقال الراغب : عصمة الله تعالى الانبياء : حفظه اياهم أولا بما خصهم به من صفاء الجواهر ، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسية ، ثم بالنصرة

وتثبيت أقدامهم ، ثم بانزال السكينة عليهم ، وبحفظ قلوبهم ، وبالتوفيق .
قال الله عز وجل : (والله يعصمك من الناس (١)) هـ (٢) .

(والجمهور قائل : بأنهم معصومون من ذلك من قبل الله معتصمون باختيارهم وكسبهم ، الا نحسينا النجار فانه قال : انهم لا قدرة لهم على المعصية أصلا (٣) . والأول هو الصحيح الذى عليه السلف الصالح .

وأما التساؤلات التى ترد على العصمة من خلال الآيات التى سبقت الاشارة اليها قريبا ، والاجابة عنها فهى التى عقدت لكل واحدة منها فصلا مستقلا أو بعبارة أصح : فهى التى عقدت لكل واحد من الأنبياء الذين أوردت حولهم تلك التساؤلات فصلا مستقلا ، وكل فصل من تلك الفصول أستفتحه بالآية التى يرد عليها السؤال ، وأذكر أقوال العلماء فيه وأرجح ماظهر لى رجحانه ، وفى الغالب أصرح باسم المؤلف واذا انتهيت من نقل كلامه أنبه على ذلك ، واذا كان الكلام منى ، فالغالب أن أقول : قلت ، وربما تركت ذلك اختصارا ، ولا يكون ذلك الا اذا كان المقام واضحا جدا ، وفيما يلى أول فصل من الفصول المشار اليها :

---

(١) قلت : أما استدلال الراغب بالآية الكريمة على العصمة الشرعية ، فلا يساعده عليه سبب النزول ، وهو دال على أن مورد الآية عصمته صلى الله عليه وسلم من القتل وغيره مما يصدر من الناس ، ولكن الاستشهاد بها على العصمة لغة فهو الصحيح والعلم عند الله تعالى .
(٢) الزبيدى محمد مرتضى ، تاج العروس ، مكتبة الحياة بيروت .
(٣) الشفاء للقاضى عياض ، المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١٢٥ .

آدم عليه السلام

الفصل الأول

فيما نسب الى نبى الله عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام

وفيه ثلاثة مباحث :

الأول : فيما قيل فى تأويلات الآية الكريمة التى سأذكرها بعد من الأقوال المجمع عليها فى الجملة .

الثانى : فى عزو بعض هذه الأقوال الى أصحابها مع بيان أدلتها .

الثالث : فى ترجيح ما ظهر لى رجحانه بالدليل الشرعى أو العقلى أو هما معا مع التنبيه على طائفة من الشبه التى أوردت حول هذا النبى الكريم عليه الصلاة والسلام ، والرد عليها .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى فى سورة البقرة (وقلنا يآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين • فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه (١)) الآية •

المبحث الأول

اعلم وفقنى الله واياك لما يحبه ويرضاه أن محل البحث من الآية الكريمة هو قوله تعالى (فأزلهما الشيطان عنها (٢) فأخرجهما مما كانا فيه) لأن معناه ، أنهما بعد النهى عن الأكل من الشجرة ، أكلا منها بسبب أن الشيطان أزلهما عنها أى زحزحهما عن الجنة بسبب غوصه الشديد فى الحيل التى غرهما بها • ولكن كيف أكلها مع القرينة الدالة على أن قربانها ظلم ؟ بدليل قوله تعالى (فتكونا من الظالمين) •

فمن ثم ذهب كثير من أهل العلم الى التأويل •

فقال قوم : أكلا من غير التى نهيا عنها ظانين أن النهى ليس واقعا على جنسها •

وقال قوم ان الشيطان وسوس لهما أن الله مانهاهما عنها الا لأجل ألا يكونا ملكين ، أو يكونا من الخالدين تمسكا بظاهر الآية الكريمة ، ووجه ذلك أن آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ما كان يخطر له فى البال أن أحدا يحلف بالله كاذبا • وتمسك هؤلاء كما قدمنا ، قوله تعالى (وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين • وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور) الآية •

---

(١) سورة البقرة آية ٣٥ ــ ٣٦

(٢) أى بسببها أى الشجرة ، أو ، عن الجنة كل من المعنيين قيل به ومثال الأول قوله تعالى (ومافعلته عن أمرى) •

ومن العلماء من قال : انهما تأولا النهى فحملاه على الندب ورد هذا القول بأن النهى اقترن بالوعيد ، فلا يصح حمله على الندب .

وقال بعضهم : انما أكل آدم من الشجرة بعد أن سبقته حواء الخمر فسكر ، وكان فى غير عقله واعترض عليه بأن الجنة خمرها لا يسكر وقد كان آدم وحواء فى الجنة .

وقال آخرون : انه عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام نسى النهى وذلك أخذا من قوله تعالى (ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما) الآية . ويرد عليه قوله تعالى (وعصى آدم ربه فغوى) الآية أى كيف جاءت الخطيئة على وجه النسيان ، والنسيان غير مآخذ به شرعا ، ثم يوصف بقول الله تعالى (وعصى آدم ربه فغوى) (١) الآيه ، وقد أجابوا عن ذلك بما سيأتى ذكره قريبا ان شاء الله عند عزو الأقوال ومناقشتها .

هذه هى الأقوال المجمع عليها فى المجملة من غير عزوها الى القائلين بها . ومن غير بيان أدلتها الا قليلا منها .

ولعل العزو يعطيها من الوزن ما لم تحظ به قبله فاليك هو مفصلا .

المبحث الثانى

في نسبة هذه الأقوال الى قائليها مع بيان أدلتها ، ومناقشتها :

اعلم أولا أن مجموع الأقوال التى وقفت عليها فى ذلك خمسة لا مزيد لمزيدها .

---

(١) سورة طه آية ١٢١ .

أولها : أنه عليه السلام أكل من الشجرة فى غير عقله . وهذا القول عزاه القرطبى (١) رحمه الله تعالى لابن المسيب وابن قسيط .

وكذلك عزاه ابن العربى (٢) المالكى لابن المسيب أيضا ، ودليل هذا القول لم أقف عليه ولكن يبدو أنه اجتهاد محض ، والحامل عليه والله تعالى أعلم أنه اذا كان غائب العقل من خمر الجنة وهى مباحة له ، فلا اثم فى ذلك وهو مردود ، كما ترى بأن الجنة لا غول فيها أى لا سكر فيها .

وهذا القول رده ابن العربى (٣) بالشرع ، والعقل فقال مانصه : أما القول بأن آدم أكلها سكران ففاسد نقلا ، وعقلا . أما النقل فلأن هذا لم يصح بحال ، وقد نقل عن ابن عباس أن الشجرة التى نهى عنها الكرم ، فكيف ينهى عنها ويوقعه الشيطان فيها ، وقد وصف الله تعالى خمر الجنة بأنها لا غول فيها ، فكيف توصف بغير صفتها التى أخبر الله تعالى بها عنها فى القرآن ؟ .

وأما العقل فلأن الأنبياء بعد النبوة منزهون عما يؤدى الى الاخلال بالفرائض واقتحام الجرائم .

(قال) وأما سائر التوجيهات ، فمحتملة وأظهرها الثانى ، والله أعلم . هـ (وهو الآتى ذكره) .

---

(١) القرطبى محمد بن احمد . الجامع لأحكام القرآن . ط (٢) القاهرة دار الكتب ١٣٨٧ هـ جـ (١) ص : ٣٠٥ — ٣٠٦ .

(٢) ابن العربى ، محمد بن عبدالله ، أحكام القرآن . القاهرة ، البابى وشركاؤه ، ١٣٧٦هـ — ١٩٥٧م . جـ (١) ص ١٨ مع تصرف قليل .

(٣) نفس المصدر الآنف الذكر ص ١٩ مع نوع تصرف .

ثانيها : أنه أكل من غير التى نهى عنها ولكنها من جنسها ظانا أن النهى واقعا على الشخص لا على الجنس وهذا القول هو الذى استظهره ابن العربى (١) قريبا بناء منه على أنه اجتهاد فى الفروع والاجتهاد فيها لا اثم فيه بل صاحبه مأجور ان كان مخطئا باجر ، وان مصيبا فبأجرين . وكأن ابليس غره بالأخذ بالظاهر . هذا ملخص دليل ابن العربى لهذا القول .

ثالثها : أنه حمل النهى على الندب والتنزيه ، وهذا القول لم أقف على عزوه لأحد ، وانما يذكره أهل التفسير ضمن التأويلات الآنفة الذكر وهو مردود عند جلهم لأن النهى اقترن بالوعيد فلا يمكن حمله على التنزيه كما قدمته قريبا .

والوعيد المشار اليه هو قوله تعالى (فتكونا من الظالمين) .

رابعها : أنه أكل متأولا لرغبة الخلد وهذا القول لم أقف على من قال به غير أنه مذكور فى كتب التفسير ، ووجهه ظاهر وهو أنه عليه السلام اغتر بقول ابليس له الذى حكى الله عنه فى قوله تعالى (وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) (٢) الآية .

خامسها : أنه أكل ناسيا ، وهذا القول قال به جمهور المفسرين ، منهم الفخر الرازى (٣) ، ورجحه القرطبى فى تفسيره على بقية الأقوال .

---

(١) نفس المصدر الآنف الذكر .
(٢) سورة الأعراف آية ٢٠
(٣) الرازى فخر الدين محمد بن عمر ج ٣ ط الأولى ص ١٦ ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٥ .

ودليله قول الله تعالى (ولقد عهدنا الى آدم من قبـــل فنسى ولم نجد له عزما) .

وقد قدمنا أن هذا القول يرد عليه اشكال وأننا ســوف نذكر الجواب عنه وهذا محل الوفاء بذلك . وحاصل هذا الاشكال أنه كيف يكون أكل ناسيا والنسيان مرفوع اثمه ، ثم يصفه اللـــه تعالى بقوله تعالى (وعصى آدم ربه فغوى) الآية . هذا هــو الاشكال .

وأما الجواب فهو انا نقول لما كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم ، وعلو منازلهم مالا يلــزم غيرهم ، كان تشاغل آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عن تذكــر النهى تضييعا ، وصفه الله بسببه ذلك الوصف الذى صار يتلى فى القرآن ، وأجيب عنه أيضا أنه من باب : حسنات الأبرار ، سيئــات المقربين .

هذا هو ملخص ما قاله القرطبى فى ترجيح هذا القول ، والاجابة عن الاشكال الوارد عليه . هـ (١) واليك ماظهر لى رجحانه بالدليل . وذلك هو المبحث الثالث .

المبحـــث الثالـــث

فيما ظهر رجحانه بالأدلة الشرعية والعقليـــــة

اعلم أن الذى ترجح عندى من هذه الأقوال كلها هو واحد فحسب وهو أنه أكل ناسيا للعهد الذى عهد الله اليه به سواء قلنا انه العهد

(١) القرطبى . محمد بن احمد الجامع لأحكام القرآن ط (٢) القاهـــرة دار الكتب ١٣٨٧ هـ ج (١) ص

بألا يأكل من الشجرة ، أو أنه العهد اليه بعداوة ابليس • وقد دل على الأمرين معا قوله تعالى مخاطبا لآدم وحواء (ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين)(١) الآية • وقوله فى الأخيرة (ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) • (٢)

وانما اخترت هذا القول لأن غيره من الاقوال ككونه أكل فى حال السكر ، أو أنه حمل النهى على الندب ، أو ظن النهى واقعا على الشخص دون الجنس الى آخرها كلها ، لا ينهض لعدم دليل يجب الرجوع اليه •

أما القول بأنه نسى العهد ، فالقرآن العظيم دل عليه دلالة صريحة لا يجوز العدول عنها الا لدليل صارف • ولم أقف عليه لا نصا ولا ظاهرا ولا تأويلا راجحا •

أما التأويلات التى لم تعزز بدليل من كتاب ولا سنة فلا اعتبار لها • والقول بها مع معارضة صريح القرآن الكريم لها ، باطل باجماع من يعتد به •

والدليل على صحة القول بأنه أكل ناسيا العهد قوله تعالى (ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما) (٣) فظاهر هذه الآية يدل على أن سبب أكله من الشجرة غيبوبة النهى وعداوة ابليس عن ذهنه عليه السلام •

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٢
(٢) سورة طه آية ١١٧
(٣) سورة طه آية ١٢١

ولا ينافى ذلك كون النسيان قد يطلق ويراد به الترك عمـــــدا ، ودليل ذلك قوله تعالى (كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) (١).

دل المقام هنا على أن معنى الآية : تركت آياتنا عمدا ، وكذلك التـرك الذى تركت تترك ، والمقام هنا هو ترتب العقوبة على هذا النوع من النسيان لأن النسيان بمعناه المفهوم ظاهرا ، لا تترتب عليه العقوبة ،بدليل قولـه تعالى (ربنا لا تآخذنا ان نسينا) (٢) الآية وفى الحديث أن اللـه جل وعلى لما قال له الرسول صلى الله عليه وسلم (ربنا لا تآخذنا ان نسينا) قال قد فعلت . وايضا فان الله تعالى قال (وكذلك اليوم تنسى) واللـه جل وعلا لا يضل ولا ينسى .

والحاصل أن القرآن الكريم دل على أنه نسى ، وأن ما صدر منه لم يكن على سنن عصيان بنى آدم غير الأنبياء ، ولكنه بعد نسيانه العهد الذى هو النهى عن الشجرة ، أكل منها ، ووقع منه ما وقع وكان ذلك بسبـــــب عظمة الله عنده لأنه ما كان يظن أحدا يحلف بالله كاذبا فصدق عدوه ، وكان ناسيا لعداوته كما أخبر الله جل وعلا بذلك .

واعلم أنى بحثت عن حكم النسيان بالنسبة لمن قبلنا هل هو مرفـوع كما هو مرفوع عنا ولم أجد من تعرض له من العلماء ، وعلى فرض عدم رفعه عمن قبلنا فجوابه أن الأنبياء معصومون من مثل عصيان غيرهم لأن غيرهم يقر علـى معصيته وقد لا يتداركها حتى يلقى ربه .

---

(١) سورة طه آية ١٢٦

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٦

وأما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فمعصومون قطعا من مثل ذلك فلا يقرون على باطل ألبته ، ولا على معصية ، فكلما وسوس الشيطان لهم واحتال هو وجنوده فأنسوهم شيئا من فرائض الله ، أو الآداب التي يجب أن يتصفوا بها أدركتهم عناية الله تعالى فاستيقظوا واستغفروا ربهم فتاب عليهم (انه هو التواب الرحيم) ، بعد ما يعاتبهم عتابا بليغا يبعث على التيقظ الدائم ، والانابة اليه تعالى ، ثم يرفع لهم بذلك الدرجات العلا في الدنيا والآخرة ، ويزيدهم منه تعالى قربا وعلو منزلة ، واقرأ ان شئت قول الله تعالى (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) (١) وقوله تعالى (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم) (٢) فانظر أي أثر يبقى للعصيان بعد توبة الله عليه واجتبائه له واصطفائه اياه ، ومعلوم أن من الزلات ما ينال بها صاحبها درجة أعلا من درجته قبل الزلة بسبب التوبة والاقبال الى ما يرضى الله جل وعلا . ويتبين بذلك أن السلطان المنفي في قوله تعالى (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) (٣) وقوله تعالى (انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) (٤) هو سلطان يكون له تأثير على العقائد ، أو سلطان يقر صاحبه عليه فلا يتدارك حتى يلقى مغبته يوم القيامة ، أما سلطان يبعث على التيقظ الدائم والانابة الى الله تعالى فيعلو صاحبه منزلة وينال الدرجات العلى في الجنة ، فهذا هو المناسب لمقام النبوة وهو الذي دلت عليه الآيات التي قدمنا أنها ربما ظن بها التعارض مع الآيات التي نفت سلطان الشيطان عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وعن عباد الله المخلصين والله تعالى أعلم .

---

(١) سورة طه آية ١٢٢
(٢) سورة آل عمران آية ٣٣
(٣) سورة الاسراء آية ٦٥ وفي الحجر عند آية ٤٢
(٤) سورة النحل آية ٩٩

الشبهات والرد عليها

اذا عرفت هذا فاعلم أن هذه الآيات التى هى قوله تعالى : (فأزلهما الشيطان عنها الى آخر الآية) وأمثالها فى القرآن الكريم قد تعلق بها بعض الطوائف التى خالفت فى عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فوضعوا (١) على آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام من ذلك ستة شبه :

أولها : قالوا انه كان عاصيا ، والعاصى لابد وأن يكون صاحب كبيرة .

ثانيها : أنه تائب ، والتائب عندهم يلزم كونه مذنبا .

ثالثها : أنه ارتكب المنهى فى الأكل من الشجرة ، (قالوا) وارتكاب المنهى عنه عين الذنب .

رابعها : قالوا : سماه الله ظالما ، والظالم ملعون ، ومن كان كذلك ، كان صاحب كبيرة .

خامسها : أنه أقر على نفسه بأنه لولا مغفرة الله تعالى له لكان من الخاسرين وذلك يقتضى كونه صاحب كبيرة .

سادسها : أنه أخرج من الجنة بسبب وسوسة الشيطان وطاعته ، وذلك يدل على أنه صاحب كبيرة .

هذه هى شبههم حول هذه الآية وادعوا أنها ان لم تكن دالة بمفرد كل منها على مرامهم فهى بمجموعها دالة عليه ، كما قيل فى القرائن . هذا ما ذكره الرازى مع نوع تصرف ، " اجابة الرازى " .

---

(١) الرازى عصمة الأنبياء المكتبة الاسلامية لصاحبها عارف النكدلى بحمص ج (١) ص٨

" اجابـــة الـــــرازى "

وقد أجاب الرازى رحمه الله تعالى فى كتابه " عصمة الأنبيـاء " عن كل هذه الشبهات بجواب واحد ، وهو أن كل هذه الأمور التـــى ذكروها أنها صدرت من آدم عليه السلام قبل النبوة . قال ما نصه :

والجواب عن الكل عندنا أن ذلك قبل النبوة فلا يكون واردا علينا .هـ(١) وقد ساق بعض الأجوبة لبعض العلماء ولكنه غير راض عنها . و يرد أكثرهـــا وهى فى جملتها ، لا تخرج عن الأقوال التى ذكرتها أول البحث عند الآية الكريمة التى هى مثار البحث . وقد رددت على هذه الشبه كلها بما تيسر لى .

فقلت مستعينا بالله : أما قولهم ان العاصى لابد أن يكون صاحـب كبيرة ، فهذا مردود بنص كتاب الله تعالى ، وذلك فى قوله جل وعلا : (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخـــــلا كريما)(٢) الآية . فهذه الآية الكريمة قسمت المعاصى الى كبائـــر وصغائر بنصها على أن من ترك الكبائر ، غفرت له السيئات التى دون الكبائر المعبر بها عن الصغائر . وهذا دليل واضح على أن العاصى قد يكـون عاصيا بارتكاب الصغيرة . وبذلك يبطل قولهم : " لابد للعاصى أن يكون صاحب كبيرة ، والله تعالى أعلم .

وقد ذكروا أن بعض العلماء (٣) جوز على الأنبياء ، وقوع الصغائر ويجوز أن يطلق العصيان على من خالف الأولى ويتأكد ذلك بالنسبة لمـــن علت رتبته وعظم قدره كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكذا الفضلاء من أتباعهم .

---

(١) نفس المصدر
(٢) سورة النساء آية ٣١
(٣) الرازى . نفس المصدر

وأما قولهم فى شبهتهم الثانية : التائب يلزم كونه مذنبا ، فنقول فيه : ان التوبة عنوان المحبة وليست مثارا للشبهة فى الشرع . ودليل ذلك قوله تعالى (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) (١) الآية وأما موجب التوبة فلا يلزم كونه من الكبيرة بل يجوز أن يكون من الصغيرة أو من مخالفة الأولى ، وقد شاهدنا بعض الصلحاء يتوب الى الله تعالى من الاشتغال بأمور الدنيا لأنه يرى ذلك أولى منه أن يشتغل بأمور أفضل كذكر الله تعالى والاستغفار له ، والمقامات تختلف باختلاف أهلها ولا تنس أن هذا مقام النبوة ، وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستغفر الله فى اليوم سبعين مرة . (٢) وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، على فرض وقوعه ، والصحيح أنه لم يقع .

وأما قولهم : ارتكب المنهى عنه ، وارتكاب المنهى عين الذنب . فجوابه : أنه من باب تعداد الشىء الواحد وجعله أشياء امعانا فى الصاق الذم بمن هو برىء منه وهو ظلم ، لأنه وضع للشىء فى غير موضعه ، وبيان ذلك أن أكله من الشجرة هو الذى من أجله قال له ربه عز وجل (وعصى آدم ربه فغوى) الآية وهو الذى من أجله أخرج من الجنة ، وهو الذى من أجله توعد بأن يكون من الظالمين ، وهو الذى من أجله تاب ، وليست كل واحدة منها مسألة مستقلة ، وانما ترجع الى مسألة واحدة ، وهى : هل هذا الأكل الذى وقع من آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، كبيرة ولا يصح غير ذلك كما ادعى أصحاب هذه الشبه أو هو صغيرة كما أجاز ذلك بعض (٣) علماء المسلمين أو هو خلاف الأولى ، والصحيح أنه نسيان

---

(١)
(٢) البخارى محمد بن ادريس الجامع الصحيح
(٣)

كما قدمنا ، ولاحتمال كون هذا النسيان مرادا به العمد ، أو هو نسيان ولكنه غير مرفوع عمن قبلنا ، كالآصار التى حملت من قبلنا ورفعت عنا فيجب حمله حينئذ على أقل درجات ما يسمى معصية بالنسبة لذوى المقامات العالية على حد قولهم : " حسنات الأبرار ، سيئات المقربين " والله تعالى أعلم .

وأما قولهم فى شبهتهم الرابعة : الظالم ملعون ، فمردود بأن الظلم فى لغة العرب التى نزل بها القرآن الكريم يراد به وضع الشىء فى غير موضعه ومنه بهذا المعنى قول الشاعر :

وقائلة ظلمت لكم سقائى * وهل يخفى على العكد الظليم

ومنه قول النابغة :

الا الأوارى لأيا ما أبينها * والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد

فقوله فى البيت الأول : " ظلمت لكم سقائى " معناه ، ضربته قبل أن يوب لبنه ، وذلك وضع له فى غير موضعه ، وهو ظلم لغة . وقوله فى البيت الثانى " بالمظلومة الجلد " معناه ، بالأرض المحفورة ، وهى ليست محلا للحفر أصلا وذلك وضع للحفر فيها فى غير موضعه . ويطلق ويراد به الشرك بالله تعالى ، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى (والكافرون هم الظالمون) ومعناه أنهم وضعوا العبادة فى غير موضعها ، وهو أشنع أنواع الظلم لأنه صرف حق الله تعالى الخالق الرازق ، ووضعه لمخلوق لا يضر ولا ينفع ، أو وضعه فى لا شىء كالقائلين بنفى الخالق مثلا فهؤلاء يصرفون حق الله ويضعونه فى العدم ، ووضعه فى العدم ظلم لأنه وضع للشىء فى غير موضعه ، وهؤلاء هم مورد قول الله تعالى " ألا لعنة (١) الله على الظالمين " وقوله " والكافرون هم الظالمون " . وقوله " الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم " أى بشرك . ويطلق الظلم فى الشرع ويراد به

(١) سورة هود آية ١٨

ما دون الكفر عن المخالفات ، والدليل على ذلك قوله تعالى " ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ،)" الى قوله " جنات يدخلونها " قال بعض العلماء : حق لهذه الواو أن تكتب بماء الذهب لأنها جمعت فى الجنة الظالم لنفسه مع السابق بالخيرات والمقتصد ، فبان بهذا بطلان قولهم : الظالم ملعون وبان أيضا أنه قد يكون ظالما لنفسه بترك الأولى ، أو بكونه تشاغل عن تذكر النهى حتى نسى الوعد ، وأن الملعون ، هو المطرود من رحمة الله تعالى أعاذنا الله من ذلك والمؤمنين .

وأما قولهم فى شبهتهم الخامسة : أنه اعترف بأنه لولا مغفرة الله له لكان من الخاسرين ، فجوابه أنه من باب تواضع من استيقظ وتذكر بعد النسيان لا سيما اذا كان بين يدى من بيده ملكوت كل شئ ، وهو يريد منه الثواب الذى لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ويجاب عنه أيضا بأنه " محمول على الصغيرة أو ترك الأولى . والله أعلم .

وأما قولهم فى الشبهة السادسة : أنه أخرج من الجنة بسبب وسوسة الشيطان وازلاله الخ فجوابه أنه أخرج من الجنة ليكون خليفة فى الأرض والخلافة عنوان التكريم ، فلا يقبل عند عامة العقلاء أن من أراد التنكيل بأحد ولاته فجعله خليفة أن هذا يعتبر تنكيلا ، سيما وقد عرفت أن الله جل وعلا قد أخبر ملائكته أنه جاعل فى الأرض خليفة وأنه أمرهم بالسجود لذلك الخليفة ، وليس هذا من أسلوب العقاب المعروفة عند عامة البشر عقلائهم وسفهائهم

وبهذا يستبين لك أن هذا الاخراج لم يكن على سبيل التنكيل والاستخفاف والله أعلم

قال الامام الفخر الرازى ما نصه :

ثم الذى يدل على أنه لابد من المصير الى الوجوه التى ذكرناها هو أنه عليه الصلاة والسلام لوكان عاصيا فى الحقيقة ، وكان ظالما فى الحقيقة ، لوجب الحتم عليه بأنه كان مستحقا للنار لقوله تعالى " ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم " وبأنه كان ملعونا لقوله تعالى : " ألا لعنة الله على الظالمين " .

فلما اجتمعت الأمة على أن ذلك لا يجوز ، علمنا قطعا أنه لا بد من التأويل . ا هـ منه بلفظه . (١)

وهذا آخر ما كتبته فى آية البقرة هذه فى نبى الله آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، ولا زلت أترقب مستقبلا أن يجلو لى الأمر جلاء فأعتنقه اعتناقا ، ونرجو الله تعالى أن يجعلنى ممن يصرف همته فى خدمة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

تنبيه

اعلم أن هناك اشكالا آخر حول هذا النبى الكريم — آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام — ومثار هذا الاشكال الآية التى فى سورة الأعراف وهى قوله تعالى " هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين . فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون " (٢)

ووجه هذا الاشكال أن قوله تعالى " جعلا له شركاء فيما آتاهما " ،

---

(١) بنفس المصدر السابق
(٢) سورة الأعراف آية ١٨٩

حمله جماعة من المفسرين على أنه عائد الى آدم وحواء بناء منهم على أن المراد بالنفس الواحدة فى قوله تعالى " هو الذى خلقكم من نفس واحدة " آدم عليه السلام . وقد ورد بهذا المعنى أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أن ابليس لما حملت حواء عرض لها ولد فقال لها : ان أحببت أن يعيش ولدك ، فسميه بعبد الحارث وكان ابليس يسمى الحارث فلما ولدت ، سمته بهذه التسمية . وهذا كما ترى يشير شبهة لا تليق بمناصب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ومن هنا اضطر علماء المسلمين الى التأويل .

فقال بعضهم (١) : ان ضمير التثنية فى قوله تعالى " جعلا له شركاء " عائد الى الكفار من ذرية آدم وحواء ، وأن معنى التثنية لجنسى الذكورة والأنوثة . واستدلوا لهذا القول بقوله تعالى " فتعالى الله عما يشركون " ووجه الاستدلال بالآية ، واو الجمع فى " يشركون " فانه يستبعد عوده على آدم وحواء . هـ

وقال آخرون (٢) : انه عائد الى جنسى الذكر والأنثى من آل قصى وذلك بناء منهم على أن المراد بالنفس الواحدة فى الآية ، " قصى " وزوجها الذى خلق منها ، زوجته ، ووجه كونها منه أنها عربية من جنسه ووجه كونهما جعلا له شركاء أنهما سميا أولادهما الأربعة عبد الدار وعبد الحارث ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، أو عبد قصى ، والضمير فى "يشركون" لهما ولعقبهما من بعدهما .

هذه هى خلاصة التأويلات التى ذكرها أهل التفسير فى هذه الآية الكريمة من سورة الاعراف .

---

(١) أبو السعود بن محمد العماد ، ارشاد العقل السليم ، الناشر مكتبة الحديثة ج ٢ ص ٤٥ بتصرف

(٢) الزمخشرى الكشاف ، الطبعة الأخيرة عام ١٣٨٥هـ — ١٩٦٦م ، الناشر مصطفى البابى بمصر بتصرف ج ٢ ص ٢٣٧

والذى يظهر لى أنه الصواب ، هو أن الخطاب لكافة الناس الذين أشركوا مع الله غيره سواء فى الطاعة أو العبادة وذلك بواسطة الذين يسمعون هذا الخطاب حاليا والذين قد فعلوا من الشرك ما وصف الله قبحه بقوله تعالى " فتعالى الله عما يشركون . أيشركون مالا يخلق شيئا " الآية ، لأن هذا الاستفهام الانكارى منصب على الذين جعلوا لله شركاء فيما آتاهما قطعا ، وهؤلاء جماعة ، وآدم وحواء ليسا بجماعة كما علمت ، واذا جاز أن يكون الخطاب لجماعة ، خطاب لاثنين ، جاز أن يكون الخطاب لاثنين خطاب لجماعة . وهذا ما نصبوا اليه ، لأنه يجعلنا نقطع بأن قوله تعالى " جعلا له شركاء " عائد على الكفار من أولاد آدم وحواء ، لا عليهما ، ويزيده ايضاحا أن سياق الآية يظهر فيه أن الله جل وعلا يذكر المخاطبين من ذرية آدم بالنعمة التى أنعم بها عليهم ، وهى خلقه لهم من هذا النبى الكريم آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وجعله زوجه منه ، وهذه النعمة مدعاة للشكر من الأولاد ، ولما كانوا قد قابلوا هذه النعمة بالشرك ، توجه الخطاب اليهم بصيغة الانكار التى هى قوله تعالى " أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون " الآية ، لأن الضمير فى قوله " فتعالى الله عما يشركون " وفى قوله " أيشركون " هو عين الكاف ، أو الكاف والميم فى قوله تعالى " هو الذى خلقكم من نفس واحدة " الآية . وأما ذكر النفس الواحدة وزوجها ، فهو استطراد ، والله تعالى أعلم . فان قلت : كيف رجع الضمير فى قوله " جعلا " ان لم يكن عائدا على النفس الواحدة وزوجها ، وليس فى الآية مثنى يعود عليه هذا الضمير سواهما ؟ قلت : الضمير يصح عوده لغة على اللفظ دون المعنى ، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى : " وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره " أى وما ينقص من عمر آخر ، بدليل

أن الذى عمر ، لا يمكن أن ينقص من عمره بعد التعمير ، وهذا واضح ، ومنه قولهم : " عندى درهم ونصفه " أى نصف درهم آخر . فاذا عرفت ذلك علمت أنه ليس من المحال فى اللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم ، أن يعود الضمير فى قوله تعالى "جعلا له شركاء " الى لفظ النفس الواحدة وزوجها لقربهما فى الذكر ، ويكون عائدا فى المعنى الى ذريتهما التى بدأ الخطاب بها فى قوله تعالى " هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها "ويكون من باب حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ، وهو أسلوب عربى معروف ، ومنه فى القرآن الكريم قوله تعالى فى سورة الواقعة " وتجعلون (١) رزقكم أنكم تكذبون " أى : وتجعلون شكر رزقكم التكذيب ولا بيان بعد كتاب الله .

وعلى هذا يكون تقدير الكلام ، " فلما آتاهما صالحا جعلا " أى جعل أولادهما من بعدهما شركاء فيما آتاهما ، "وانما عاد الضمير على آدم وحواء لفظا وصورة ، لأنهما (٢) أدخلا أولادهما فى سلك الدعاء والاشتراط على أنفسهما قبل تعرف أحوالهم ، وذلك فى قوله تعالى عنهما " فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين " .فجاءت صورة العتاب متوجهة اليهما تحذيرا لمن بعدهما مما وقعا فيه "، والله تعالى أعلم .

واعلم أن هذا القول ، وهو كون المراد بالذين جعلوا لله شركاء هم المشركون من ذرية آدم وحواء عليه ، جمع كبير من المفسرين وغيرهم ،منهم ابن كثير وأبو السعود ، وصاحب الكشاف وغيرهم .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى فى تفسيره : قال الامام احمد فى

---

(١) آية ٨٢

(٢) أبو السعود المصدر السابق ص٤٥١ بتصرف

مسنده عن الحسن عن سمرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " لما ولدت حواء طاف بها ابليس وكان لا يعيش لها ولد فقال لها سميه عبدالحارث فانه يعيش ، فسمته : عبدالحارث فعاش ، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره " قال ابن جرير عن الحسن " جعلا له شركاء فيما آتاهما " قال : كان هذا فى بعض أهل الملل ولم يكن بآدم ، وعن قتادة قال : كان الحسن يقول : هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا — فهودوا ونصروا ، وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضى الله عنه أنه فسر الآية بذلك ، وهو من أحسن التفاسير ، وأولى ماحملت عليه الآية ، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لماعدل عنه هو ولا غيره . فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابى .

" وذكر مثل حديث سمره عن ابن عباس رضى الله عنهما وعن ابن أبى حاتم عن أبى بن كعب ، ثم قال " وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى رحمه الله تعالى فى هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق (آدم وحواء) وانما المراد من ذلك المشركون من ذريته ، ولهذا قال الله تعالى : " فتعالى الله عما يشركون " فذكر آدم وحواء أولا كالتوطئة لمابعدهما من الوالدين ، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص الى الجنس كقوله : " ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح " الآية . ومعلوم أن المصابيح وهى النجوم التى زينت بها السماء ليست هى التى يرمى بها ، وانما هذا استطراد من شخص المصابيح الى جنسها ، ولهذا نظائر فى القرآن ، والله أعلم هـ(١)

---

(١) ابن كثير

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : ما أشرك آدم ان أولها شكر ، وآخرها مثل ضربه لمن بعده (١) هـ

التنبيه الثانى فيما أورده الكرامية والحشوية على هذه الآية الكريمة من الشبه وما رد به الفخر الرازى على تلك الشبه ، قالوا : لا شك أن النفس الواحدة فى هذه الآية هى آدم ، وزوجها المخلوق حواء فهذه الكنايات عائدة اليهما ، وهى قوله تعالى " جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون " (قالوا) فهذا يقتضى صدور الشرك عنهما ، (واستدلوا على ذلك) بأن ابليس لما حملت حواء عرض لها ولد فقال لها ان أحببت أن يعيش ولدك فسميه : عبدالحارث وكان ابليس ، يسمى : الحارث فلما ولدت ، سمته بهذه التسمية ، فلذا قال الله تعالى (جعلا له شركاء فيما آتاهما)

قال الامام الفخر الرازى : (ردا على هذه الشبهة الخبيثة والجواب الصحيح أنا لا نسلم أن النفس الواحدة فى هذه الآية هى آدم عليه السلام ، وليس فى الآية ما يدل على ذلك بل نقول : الخطاب لقريش ، وهو آل قصى . والمعنى ، خلقكم من نفس قصى وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن اليها . فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح المسمى سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف ، وعبدالعزى وعبد قصى ، وعبدالدار ، والضمير فى " يشركون " لهما ولأعقابهما وذكروا وجوها أخرى سوى ماذكرناه وهى بأسرها ضعيفة هـ. (٢)

---

(١) الشوكانى محمد بن على ، فتح القدير ط (٢) ١٣/١٣ هـ جـ ٢ ص ٢٧٤ مصر مصطفى البابى الحلبى

(٢) المصدر السابق

وقد رد الرواية التى ذكروها بوجوه ثلاثة :

أولها : أنها أخبار آحاد ، فلا تقبل فى العلميات .

ثانيها : أنه اما أن يقال : بأن آدم وحواء ، اعتقدا أن الولد من خلق ابليس ، أو لم يعتقدا ذلك ، ولكنهما سميا أولادهما بعبد الحارث مع أن الحارث ، كان اسم ابليس وذلك مما لا يذهب اليه عاقل . وان كان الثانى لم يلزم منه الكفر والشرك لأن الاعلام تفيد تسمية الولد بعبد الحارث ولا تفيد كونه عبد الحارث فان الاعلام قائمة مقام الاشارة فقط ولا يلزم منه الكفر والفسق أصلا .

ثالثها : أن العداوة الشديدة التى كانت من آدم وابليس من أول الأمر الى وقت ذلك الحمل ، مانعة لآدم من الاغترار به . هب أن آدم لم يكن نبيا ، ولم يكن مسلما ، أما كان عاقلا ؟

فصح أن هذه الرواية الخبيثة لا يجوز أن يقبلها عاقل فضلا عن مسلم هـ(١)

وقد اكتفيت بهذا مما ذكرته فى تأويل الآية قبل ، وقد أضفت لذلك عبرتان وفائدتان تكميلا للفائدة : أما العبرة الأولى فقد قال الرازى عند المسألة السابقة :

اعلم أن فى هذه الآيات تحذيرا عظيما عن كل المعاصى من وجوه :

أحدها : أن من تصور ما جرى على آدم عليه السلام بسبب اقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصى قال الشاعر :

يا ناظرا يرنو بعينى راقد * ومشاهدا للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب الى الذنوب وترتجى * درك الجنان ونيل فوز العابد
أنسيت أن الله أخرج آدما * منها الى الدنيا بذنب واحد

---

(١) الرازى نفس المصدر

وأما العبرة الثانية فمن فتح الموصلى قال :

كنا قوما من أهل الجنة فسبانا ابليس الى الدنيا فليس لنا الا الهم والحزن حتى نرد الى الدار التى أخرجنا منها .

العبرة الثالثة :

يستفاد من هذه الآيات : التحذير من الاستكبار والحسد والحرص ، عن قتادة فى قوله تعالى " أبى واستكبر " قال : حسد عدو الله ابليس آدم على ما أعطاه الله من الكرامة فقال : أنا نارى وهذا طينى ثم ألقى الحرص فى قلب آدم حتى حمله على ارتكاب المنهى عنه ثم ألقى الحسد فى قلب قابيل حتى قتل هابيل . وأيضا أنه سبحانه وتعالى بين العداوة الشديدة بين ذرية آدم ، وابليس ، وهذا تنبيه عظيم على وجوب الحذر (١) .هـ)

فائدتان .. الأولى :

قال القرطبى : قال القاضى أبوبكر العربى : لا يجوز لأحد اليوم أن يتكلم بذلك عن آدم عليه السلام الا اذا ذكرناه فى أثناء قوله تعالى عنه أو قول نبيه صلى الله عليه وسلم ، فأما أن يبتدئ ذلك من قبل نفسه فليس بجائز لنا فى آبائنا الأدنين الينا ، المماثلين لنا ، فكيف فى أبينا الأقدم الأعظم الأكرم النبى المقدم الذى عذره الله سبحانه وتعالى وتاب عليه وغفر له .

وأما الفائدة الثانية :

فهى فى محاجة موسى وادم وبيان أنها ليست من باب الاحتجاج بالقدر .

---

(١) الرازى ط الأولى مصر المطبعة البهية عبد الرحمن محمد ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م ج ٣ ص ١٨

الفائدة الثانية ، قال القرطبى : روى الائمة واللفظ (لمسلم)[١] " عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
احتج آدم وموسى فقال موسى : يآدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال (له) آدم : يا موسى اصطفاك الله عز وجل بكلامه وخط لك يا موسى أتلومنى على أمر قدره الله على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة فحج آدم موسى ثلاثا "

قال المهلب : قوله : " فحج آدم موسى " أى غلبه بالحجة . قال الليث بن سعد : انما صحت الحجة فى هذه القصة لآدم على موسى عليهما السلام من أجل أن الله تعالى قد غفر لآدم خطيئته ، وتاب عليه فلم فلم يكن لموسى أن يعيره بخطيئة قد غفرها الله تعالى له ، ولذلك قال آدم : أنت موسى الذى آتاك الله التوراة وفيها علم كل شىء فوجدت فيها أن الله قد قدر على المعصية ، وقدر على التوبة منها ، وأسقط بذلك اللوم عنى أفتلومنى أنت والله لا يلومنى .

ومثل هذا احتج ابن عمر على الذى قال له : ان عثمان فر يوم أحد فقال ابن عمر : ما على عثمان ذنب ، لأن الله تعالى قد عفى عنه بقوله " ولقد عفى الله عنهم ".

وقد قيل : ان آدم عليه السلام أب وليس تعييره من بره أن لو كان مما يعير به غيره ، فان الله تبارك وتعالى يقول فى الأبوين الكافرين "وصاحبهما فى الدنيا معروفا " .

---

(١) القرطبى المصدر السابق

ولهذا ان ابراهيم عليه السلام ، لما قال له أبوه وهو كافـــر : " لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا " قال سلام عليك . فكيف بأب هو نبي قد اجتباه ربه وتاب عليه وهدى .

وأما من عمل الخطايا ولم تأته المغفرة ، فان العلماء مجمعون علـى أنه لا يجوز له أن يحتج بمثل حجة آدم فيقول : تلومني على أن قتلـــت أو زنيت أو سرقت ، وقد قدر الله على ذلك ، والأمة مجمعة على جواز حمـد المحسن على احسانه ولوم المسيء على اساءته ، وتمديد ذنوبه عليه . (١)

قلت : وذلك محله قصد رده الى الحق ، وزجر غيره ، والا فـلا والله تعالى أعلم .

---

(١) القرطبي ، محمد بن احمد " الجامع لأحكام القرآن " ط جـ ١١ ص ٢٥٥

الفصل الثاني

فيما نسب الى نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة هود

قال تعالى : " ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين (١) . قال يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين " .

المبحث الأول

اعلم أن ظاهر قول نوح عليه السلام ان ابنى من أهلى يتعارض مع قول الله تعالى " يا نوح انه ليس من أهلك " الآية . وفى ذلك ما ترى من الخطورة ، ولكن علماء التفسير رحمهم الله وجزاهم أحسن الجزاء بينوا أن كلا الآيتين يمكن حملهما على معنى غير معارض لمعنى الأخرى ووجه ذلك أن معنى القول المنسوب لنوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام " ان ابنى من أهلى أى الذين وعدتنى بنجاتهم وكان يرى أنهم ناجون كلهم بما فيهم هذا الابن .

وأما قول الله تعالى " انه ليس من أهلك " فمعناه أنه ليس من أهلك الناجين من الغرق فليس بداخل فى وعدى لك بنجاة أهلك . فالكفر

(١) سورة هود آية ٤٥ ـ ٤٦

الذى كان فى طويته ، مانع وحاجز له من النجاة معهم ، فنوح اذا صادق فى كون الابن من أهله من جهة النسب لأن الابن داخل فى الأهل دخولا أوليا ، وهو ابنه على الصحيح ، وان كان الكفر يقطع العلائق بين الابن وأبيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه . وكونه كافرا فذلك شىء خفى على نوح عليه السلام ، أو لم يخف عليه ولكنه كان يرجو له من الله تعالى التوفيق الى الايمان فيؤمن فينجو من الغرق مع أهله ، والشىء الذى لا مناص عنه هو أن نوحا عليه السلام ما كان يعلم بما هو صائر اليه فى علم الله جل وعلا والا لما كان يطلب من ربه نجاته .

و يصدق قول الله تعالى " انه ليس من أهلك بما لا ينافى قول نوح عليه السلام ولا يعارضه ، وذلك بكونه غير ناج مع أهله ، وليس معناه : أنه ليس ابنه من النسب . هذا هو البيان الذى عليه جمهور المفسرين .

ولا ينافى مدلولات لغة العرب التى نزل بها القرآن الكريم وهو واضح كما ترى ولا اشكال فيه عند من همه الحق .

ومع ذلك فان أهل التفسير اختلفت وجهات نظرهم فى نسبة هذا الولد الى نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام . وسبب ذلك هو ما وصف الله جل وعلا به ذلك الابن من الأوصاف التى لا تناسب فى نظرهم ، أن يوصف بها ابن نوح عليه السلام لصلبه ، وذلك لتعظيمهم لمقام النبوة رحمهم الله تعالى ، فذهب بعضهم الى أنه ابن حنث ولدته زوج نوح على فراشه ولم يكن عالما بذلك ، وهؤلاء حملوا معنى الآية الأولى على أن نوحا قال رب ان ابنى من أهلى أى فى ظنى ،

وأما الآية الثانية فمعناها على هذا أن الله قال لنوح : " يا نوح انه ليس من أهلك " أى ليس ابنك لصلبك بل هو عمل غير صالح عملته زوجتك

على فراشك ، و أنت غير عالم بذلك .

و قال آخرون انه ابن امرأة نوح من غيره ، أى ، هو ربيب لنـــوح ، وعلى هذا يكون نوح عليه السلام كان يظن أن هذا النوع من البنوة يكفـــى للدخول فى جملة أهله ، ويكون معنى الخطاب الموجه الى نوح عليه السلام من ربه جل وعلا معناه : تفهيمه أن كون هذا الولد ربيبا له غير كـــاف لدخوله فى أهلـه الناجين ، وأنه فى الحقيقة ليس ابنه لصلبه وانما هو ربيـب له ولم يخرجه ذلك عن كونه من قومه الهالكين بسبب عدم ايمانهم به .

والقول الثالث أنه ابنه لصلبه كما تقدم .

هذه هى الاقوال التى وقفت عليها فى كتب التفسير ، ولم أتقيد فـى نقلها بألفاظهم ولا ترتيبهم لكثرة ورودها فى كتبهم . وربما صادفت لفظ أحدهم من غير قصد ولا نية .

المبحث الثانى

المبحث الثانى فى عزو الأقوال ومناقشتها :

وهى كما عرفت ثلاثة أقوال لا رابع لها :

أولها : أنه ابن حنث (١) ولدته امرأة نوح على فراشه وهو المروى عن الحسن ، ومجاهد وابن جريج وعبيد بن عمير (٢) قلت : وهذا القول مردود من وجوه ثلاثة :

أولها : أنه لم يثبت نقلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثانيها : ما صح عن ابن عباس (٣) أنه قال ما بغت امرأة نبى قط.

ثالثها : أن الله صرح بأنه ابن نوح بقوله " ونادى نوح ابنه " .

ثانيها : أنه ابن امرأة نوح أى ربيبه وليس ابن حنث . وهذا لم أقف على قائله غير أن الزمخشرى ذكره ضمن القولين اللذين اعتمدهما فقال ما نصه : فى قوله تعالى : " ان ابنى من أهلى " أى بعض أهله لأنه ابنه من صلبه ، أو كان ربيبا له فهو بعض أهله (٤) .

قلت : وهذا القول مردود من وجهين :

أحدهما : أنه لم ينقل عن أحد من الصحابة ولا التابعين نقلا صحيحا وأخرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وثانيهما : أنه مخالف لظاهر آيتين من كتاب الله تعالى احداهما : قوله تعالى " ونادى نوح ابنه " والثانية : قول نوح عليه السلام " يابنى اركب معنا ولا تكن

---

(١) أى ابن زنى
(٢) الفخر الرازى " عصمة الأنبياء "
(٣) فتح القدير المصدر السابق جـ (٢) ص ٥٠٣
(٤) الكشاف المصدر السابق جـ (٢) ص ٢٧٢

مع الكافرين " . وقوله تعالى " انه ليس من أهلك " لا ينافى كونه ابنه لصلبه لأنه لم يقل له : انه ليس ابنك ، بل نفى عنه كونه من أهله الناجين فحسب . ولو كانت البنوة غير واقعة لكانت أولى بالنفى من نفى كونه من الأهل كما ترى والله أعلم .

ثالثها : أنه ابنه لصلبه . وهذا القول قال به أكثر المفسرين منهم ابن كثير وأبو السعود والشوكانى ، والزمخشرى والبيضاوى والفخر الرازى ، وجمع لا يحصون كثيرة .

قال الشوكانى رحمه الله تعالى ما ملخصه : (ومعنى قوله (ان ابنى من أهلى) أنه من الأهل الذين وعدتنى بتنجيتهم بقولك : " وأهلك " . فان قيل : كيف طلب نوح عليه السلام انجاز ما وعده الله بقوله : (وأهلك) وهو المستثنى منه ، وترك ما يفيده الاستثناء ، وهو (الا من سبق عليه القول) فيجاب بأنه لم يعلم اذ ذاك أنه ممن سبق عليه القول ، فانه كان يظنه من المؤمنين . الى أن قال : ثم أجاب الله جل وعلا عن نوح عليه السلام ببيان أن ابنه غير داخل فى عموم الأهل ، وأنه خارج بقيد الاستثناء (قال يا نوح انه ليس من أهلك) الذين آمنوا بك وتابعوك وان كان من أهلك باعتبار القرابة . (قال) ثم صرح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الأهل المبينة له بأن المراد بالقرابة قرابة الدين لا قرابة النسب وحده فقال : (انه عمل غير صالح) أنتهى (١) محل الشاهد منه وهو واضح فى أنه مسلم بأن هذا الابن ابن نوح عليه السلام لصلبه وهو الذى سقت كلامه شاهدا عليه) .

---

(١) الشوكانى . المصدر السابق جـ ٣ ص ٥٠٢ بتصرف قليل .

وقال أبوالسعود فى تفسير قوله تعالى (فقال رب ان ابنى من أهلى) (قال) : وقد وعدتنى انجاءهم فى ضمن الأمر بحملهم فى الفلك الى أن قال : " قال يا نوح " (قال) : لما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام بتذكير وعده جل ذكره ، مبنيا على كون كنعان من أهله ، نفى أولا كونه منهم بقوله تعالى (انه ليس من أهلك) أى ليس منهم أصلا ، لأن مدار الأهلية ، هو القرابة الدينية ، ولا علاقة بين المؤمن ، والكافر ، أو ليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم فى الفلك لخروجه بالاستثناء . وعلى التقديرين ليس هو من الذين وعد بانجائهم . ثم علل عدم كونه منهم على طريقة الاستئناف التحقيقى بقوله تعالى " انه عمل غير صالح " أصله انه ذو عمل غير صالح فجعل نفس العمل مبالغة كما فى قول الخنساء :

فانما هى اقبال وادبار هـ (١)

وقال ناصر الدين البيضاوى (٢) رحمه الله تعالى ما نصه : " ونادى نوح ابنه " كنعان (الى قوله) : " فقال رب ان ابنى من أهلى " (قال) : فانه النداء " وان وعدك الحق " وان كل وعد تعده حق لا يتطرق اليه الخلف وقد وعدت أن تنجى أهلى فما حاله ، أوفعاله لم ينج (قال) : ويجوز أن يكون هذا النداء قبل غرقه ، الى أن قال : (يا نوح انه ليس من أهلك) لقطع الولاية بين المؤمن والكافر ، وأشار بقوله (انه عمل غير صالح) فانه تعليل لنفى كونه من أهله وأصله أنه ذو عمل فاسد فجعل ذاته ذات العمل للمبالغة ، كقول الخنساء تصف ناقة :

ترتع ما رتعت حتى اذا ادكرت فانما هى اقبال وادبار

---

(١) أبوالسعود جـ ٣ ص ٥٠ المصدر السابق

(٢) البيضاوى : عبدالله بن عمر ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (ط) بدون ، مكتبة الجمهورية العربية المتحدة . عبدالفتاح عبدالحميد جـ (١) ص ١١٠

قلت : وقد قال فى أول كلامه انه ربيبه ولكنه ظهر من سياقه بعدئذ أنه لا يقول بذلك حينما أراد تعليل قوله تعالى (انه ليس من أهلك) لأنه قال : ليس من أهلك لقطع الولاية بين الكافر والمؤمن ، لأنه اذا كان ربيبه فالولاية مقطوعة نسبا ودينا ، وهذا ما ظهر لى من سياق كلامه ان صح فهمى ، والا فهو قائل بأنه ربيبه ، وان الكفر منع من اعتبار تلك البنوة على تقدير اعتبارها والله أعلم . هـ

المبحث الثالث

المبحث الثالث فيما ظهر لى رجحانه بالدليل القرآنى :

اعلم أن القول الذى يؤيده الدليل هو أن هذا الابن ابن نوح عليه السلام لصلبه ، لا ابن حنث ولا ربيب له والدليل على ذلك قوله تعالى (ونادى نوح ابنه) وقول نوح عليه السلام (يا بنى اركب معنا) وقوله : (رب ان ابنى من أهلى) الا أن الله جل وعلا أخبره بأن هذا الابن ، عمل غير صالح لكفره ، فليس من الأهل الموعود بنجاتهم وان كان من جملة الأهل نسبا .

وغاية مافى الأمر أن نوحا عليه السلام ما كان يعلم أن ابنه من الذين سبق عليهم القول ، وكان يعتقد ايمانه ، والدليل على ذلك قوله تعالى : (يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) ولو لم يكن يعتقد ايمانه لما قال : (ولا تكن مع الكافرين) لأنه قد دعا عليهم قبل ذلك بقوله (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) وقال : (ولا تزد الظالمين الا ضلالا) ، وقال : (ولا تزد الظالمين الا تبارا) .

ويزيد ذلك ايضاحا أن نوحا قد علم قبل وقت ندائه هذا لابنه أن الله قد أجاب دعوته فى اهلاك من لم يؤمن من قومه ، وقد أعلمه أنه لن يؤمن منهم الا من قد آمن وذلك قبل فرار ابنه وركوبه هو فى السفينة ، وذلك ظاهر من قوله تعالى : (وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن) وقوله تعالى : (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون) . ثم بعد هذا قال تعالى : (فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك) .

والظاهر أن نداء نوح ابنه لم يقع الا بعد استوائه على الفلك ومشاهدة ابنه منعزلا ، و يرى النجاة فى غير السفينة قائلا : (سآوى الى جبل يعصمنى من الماء) . وبهذا تعلم علما لا يشوبه الشك أن نوحا كغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يعلمون الا ما علمهم الله عن طريق الوحى ، قال تعالى (قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب الا الله) . وقال : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) .

وثبت فى غير واحد منهم فى القرآن الكريم قول الله تعالى : (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك) (ولا أقول لكم انى ملك ان أتبع الا ما يوحى ....) الآية .

وهناك وقائع تاريخية دلت بوضوح على أنهم لا يعلمون من الغيب الا ما علمهم الله سبحانه وتعالى ، وهى مثار لتطلعهم الى الكشف عن كنهها . منها :

قصة ابراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام مع الملائكة الذين ظنهم ضيوفا فذبح لهم عجله حتى وضعه جاهزا للأكل فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم ، وأوجس منهم خيفة ، حتى أخبروه أنهم مرسلون من قبل الله الى قوم لوط (وقالوا انا ارسلنا الى قوم لوط) الآية .

وهذا لوط عليه السلام لما جاءوه ظنهم ضيوفا أيضا وخاف عليهم من فاحشة اللواط من جهة قومه فقال : (يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد) الآية . وقضى الأمر غامضا الى أن أخبره الملائكة أنفسهم : (قالوا يا لوط انا رسل ربك

لن يصلوا اليك) الآية ،

وهذا يعقوب بن اسحاق ابيضت عيناه من الحزن بكاء على يوسف وبينه وبينه مسافة أميال ولم يكتشف مكانه نتيجة لعدم علمه بالغيب ، حتى جاء البشير فألقى عليه القميص فارتد بصيرا هذا مع علمه من قبل الله أنه حى ولكن لم يطلعه الله على مكانه .

وهذا نبى الله محمد بن عبدالله أفضل خلق الله على الاطلاق اجماعا وهو خليل الرحمن عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم لما رميت زوجه أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها وعن أبيها وأرضاهما لما رميت بالافك هى والصحابى الجليل صفوان بن المعطل رضى الله عنه لم يطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حقيقة أمرهما وسكت الوحى قرابة شهر حتى كان يزورها وهى مريضة ، ويقول : كيف تيكم لا يصرح باسمها . وكان يستشير بعض أصحابه فى فراقها . وكان يسأل بريرة ماذا تعرف فيها ، ولا ريب أنه لو كان يعلم أنها بريئة لما كتم ذلك ساعة ، ولبادر الى نفى هذه الشائعة الخبيثة ، لأن فى تركها بالنسبة له ما لا يخفى من تأخير البيان عن وقت الحاجة الذى لا يجوز فى حقه صلى الله عليه وسلم والمشقة عليه ، وعلى عائشة ، وعلى أهلها من تحمل ما لا يطاق ، وعلى ذلك الصحابى البرىء . وبقى الأمر على هذه الحال الصعبة مدة طويلة حتى جاء الوحى من السماء قال تعالى : (ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ....الى : أولئك مبرؤون مما يقولون) .

وحاصل هذا أن نوحا عليه السلام ما كان يعلم حقيقة ما كان عليه ابنه من الكفر الذى كان سببا فى غرقه وعدم نجاته مع أهله ، وليس فى ذلك

ما يحط من مكانته فالغيب لا يعلمه الا الله . كما تبين لك مما أسلفته قريبا .

وكونه نبيا وابنه شقى ، لاشبهة فى ذلك البتة ، لأن الله سبحانه وتعالى قد اصطفاه هو بالنبوة ، وكتب على ابنه الشقاء ، والله سبحانه وتعالى ، لا يسأل عما يفعل ، يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن . فكما أنه أخرج ابراهيم عليه السلام من آزر ، وأخرج قابيل من آدم ، فكذلك أخرج كنعان من نوح ، فهوسبحانه وتعالى يعذب من يشاء ويرحم ، لا معقب لحكمه ، ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين .

ولماكان نوح عليه السلام من أشد الناس تعظيما وتسليما لأوامر الله ومواعيظه ، وقد أعلمه الله جل ذكره بحقيقة الأمر ، ووعظه ، استجاب وسلم الأمر لربه فقال : (رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم) ... الآية . اذا عرفت هذا وعرفت أن القرآن العظيم دل بظاهره المتبادر منه الذى لم يعارض بما هو أقوى ، ولا بما يماثله ، على أن نوحا عليه السلام لم يصدر منه الا أنه نادى ربه أن يفى له بوعده بنجاة ولده ضمن أهله ، معتقدا أنه داخل فى جملتهم ، ولم يكن عالما بكفره بدليل قول الله تعالى (فلا تسألن ما ليس لك به علم) وقول نوح عليه السلام (رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم) ، علمت أن ذلك ليس بقادح فى مقام النبوة ، وأنه لا ينافى العصمة المجمع عليها فى حق نوح عليه السلام واخوانه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وأما قوله تعالى (انى أعظك أن تكون من الجاهلين) فمعناه انى أرفعك بالموعظة عن أن تكون من الجاهلين بطلب ماليس لك به علم

وهذا أمر لم يوح الى نوح قبل ذلك الوقت ، فأوحى اليه بهذا الأسلوب المتابى ليكون أبلغ فى التنبيه واليقظة ، فما كان من نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام الا أن انقاد بأجمل صورة وأحسنها مستميذا مما يوقع فى الجهالة من سؤال ما ليس يعلم ، وما كان يعلم قبل ذلك أنه من فعل الجاهلين ، بقاءا منه على البراءة الأصلية ، فلا يلزم من ذلك أنه وقع فى فعل الجاهلين ، لأن الله جل وعلا يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) ولم يقل أحد أنه أشرك ولا أحبط عمله ، ولا كان من الخاسرين . حاشى وكلا . وأنا أقول : أن نوحا عليه السلام لولا أن رفعه الله بالموعظة والارشاد لكان من الجاهلين ، ولولا مغفرة الله له ورحمته اياه لكان من الخاسرين ، ولكن الله رباه ووعظه وأرشده ورحمه وغفر له ، فلم يكن من الجاهلين ، ولم يكن من الخاسرين . ولكنى أقول أيضا أنه لولا ارادة الله وفضله عليه لما جعله نبيا أصلا ، ولو لم يجعله نبيا جاز أن لا يجعله صالحا وان جاز ذلك ، جاز أن يكون من الخاسرين ، أو الجاهلين ، ولكنه جعله نبيا وبرأه من الجهل والخسران وذلك بفضله المحض . ولا تنس أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يستعظم فى جانبهم ما لا يستعظم فى جانب غيرهم وهم أولى الناس بأن يستعظموا ما فرط منهم مهما قل ودق . فلا تعجب من قول نبى الله نوح عليه السلام (والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) فانه التواضع التام أمام عظمة الله جل وعلا ، والاعتراف بأن كل نعمة وكل رحمة فهى من فضل الله المحض ، والله تعالى أعلم ونسبة القول اليه أسلم .

الشبهـــات والـرد عليهـا

اعلم أن أهل الحشو تمسكوا بهذه الآيات من وجهين :

الأول : قالوا : ان قوله تعالى (انه ليس من أهلك انه عمل غيـــر صالح) يدل على أنه لم يكن ابنا ، واذا كان كذلك كان قوله (ان ابنى من أهلى) كذبا وهو معصية .

الثاني : أن سؤال نوح عليه السلام كان معصية لثلاث آيات :

احداها : قوله تعالى (فلا تسألـن ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين) .

ثانيها : قوله خبرا عن نوح قال (رب انى أعوذ بك أن اسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكـن مـــن الخاسرين) الآية .

ثالثها : قوله تعالى : (انه عمل غير صالح) وفيها قراءتـــان قرأها الكسائى عملَ غير صالح بصيغة الماضى ، والمعنى : ان ابنك عملَ عملاً غير صالح فذلك سبب هلاكه ، والباقون بالتنوين والرفع بالمصدر ، وتقدم معناه .

والأول مرجوح لأنه يقتضى اضمار الموصوف (١) ، وهو على خلاف الأصل فتعينت القراءة الثانية والهاء فى قولـــه انه عمل غير صالح ضمير والضمير لابد وأن يكون عائـدا الى مذكور سابق والمذكور ههنا : اما السؤال ، وامـــا الابن (فأما) الابن فلا يجوز عوده اليه لأن لايـــن لا يكون عملا غير صالح بل ذا عمل غير صالح فيقتضى

(١) يعنى عَمِلَ عملاً غير صالح

الاضمار وهو خلاف الأصل • فثبت أن الضمير ، عائد الى السؤال فثبت أن ذلك (السؤال) كان عملا غير صالح •

هذه الشبه التى أوردوها وقد أبطلتها فيما أسلفت من بيان الآيات وقد رد عليها الامام الفخر الرازى بقريب مما مر ذكره لك وزيادة) •

قال الفخر الرازى بعدما ساق شبهات الملحدين ردا على الشبهة الأولى : (والجواب عن الأول أن المفسرين اختلفوا فى هـــذا الابن على ثلاثة أقوال :

الأول : فالأكثرون على أنه كان ابنا له لصلبه ، وهو الأقوى لقوله تعالى (ونادى نوح ابنه) (قال) ثم اختلفـــوا فمنهم من قال : ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك ، وقيل : ليس من أهل دينك (قال) وهـــذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وعكرمة ، وميمون ابن مهران • (كما تقدم قريبا) •

الثانى : أنه كان ابن امرأته الا أنه لاختلاطه بأبنائه وأهل بيته أطلق عليه لفظ الابن ، كما أن ابليس لاختلاطـــه بالملائكة أطلق عليه اسم الملك (قالوا) : ويدل عليه قوله (ان ابنى من أهلى) ولم يقل : منى (قال) ويروى ذلك عن الباقين •

الثالث : أنه ولد على فراشه لغير رشدة (١) وهو المروى عن الحسن

---

(١) لرشدة بكسر أوله ، ضد قولهم : لزنيـة وفيهما الفتح أيضا • مختار الصحاح جـ (١) ص ٢٤٤ الطبعة (٤) القاهرة ، ط • الاميرية ببولاق •

ومجاهد وابن جريج ، وعبيد بن عمير . (قال) : وهذان القولان ضعيفان لقوله تعالى : (ونادى نوح ابنه) (قال) : والثالث أضعف لأنه يجب تنزيه منصب الأنبياء عن مثل هذه الفضيحة .

(انتهى من الرد على الشبهة الأولى) .

و (أجاب) عن الشبهة الثانية قائلا : انا لا نسلم أنه دعا لابنه مطلقا ، بل يشترط الايمان ، (قال) : لا يقال : فلم قال الله تعالى : (لا تسألن ما ليس لك به علم) وقال : (انى أعظك أن تكون من الجاهلين) وقال نوح (رب انى أعوذ بك أن اسألك ما ليس لى به علم) لأنا نقول : يمتنع (١) أن يكون نوح عليه السلام نهى عن ذلك وان لم يقع ذلك منه ، كما أن نبينا عليه الصلاة والسلام نهى عن الشرك لقوله تعالى (لئن اشركت ليحبطن عملك) وان لم يقع ذلك منه : (هكذا قال) فأما قوله تعالى — (انى أعظك أن تكون من الجاهلين) — فمعناه أن لا تكون منهم . ولا شك أن وعظه تعالى الذى صرف نوحا عليه السلام عن الجهل (يعنى هو الذى صرف نوحا عن الجهل) .

وأما قول نوح عليه السلام : (انى أعوذ بك أن اسألك ما ليس لى به علم) — فلا دلالة فيه على أنه فعل ذلك . سلمنا أنه دعا له مطلقا ، ولكن لشفقته الطبيعية قال ما قال ، والعقل لا ينكر الدعاء للكافر ، وانما يمنع منه الشرع ، فلعله دعاء بمقتضى الطبع الى أن ورد الشرع بالنهى عنه .

لا يقال : فلم سأل من غير اذن : لأنا نقول : لما لم يجد نصا مانعا منه تمسك فى الجواب بالاباحة الأصلية ، أو نقول : انما كان مسلما فى الظاهر ، وكان نوح عليه السلام مأذونا فى الدعاء للمسلمين فدعى له بحكم

---

(١) عبارة يمتنع لا يستقيم معها المعنى ، والظاهر أن أصلها لا يمتنع ، فتنبه .

الظاهر ، وذلك جائز لقوله عليه السلام — نحن نحكم بالظاهر — أونقول : هب أنه أخطأ فى ذلك لكن ان قلت : ان ذلك من الكبائر لقوله هـذا سؤال — عمل غير صالح — قلنا : لا نسلم . والتعويل فى تغيير هذا القسم على كون الاضمار بخلاف الأصل ، ضعيف لأن الأدلة على عصمة الأنبيـاء أقوى من الدليل الدال على كون الاضمار بخلاف الأصل (١) اهـ منه .

قلت : وحاصل الجواب عن شبهتهم هذه يتلخص فيما يأتى :

أما قولهم : ان قوله " ان ابنى من أهلى كان كذبا واذا كان كذلـك ، كان معصية فهذا باطل لأنه مبنى على أن الله قال له : (يا نوح انـه ليس من أهلك ، أى انه ابن حنث ولدته امرأتك على فراشك ، أو ابن رجـل آخر تزوجها قبل نوح كما قال بذلك جماعة ، مستدلين بقوله تعالى : (فخانتاهما) أى امرأة نوح وامرأة لوط ، وهذا المعنى غير صحيح عنـدى بدليل قوله تعالى (ونادى نوح ابنه) ولم يقل انه ليس ابنك بل نفى عنه كونه من أهله الناجين كما قال بذلك الأجلة من أهل التفسير (٢) منهـم (كما تقدم) (ابن عباس والضحاك وعكرمه وميمون بن مهران وسعيـد ابن جبير وغيرهم) .

وقيل لسعيد : يقول نوح ان ابنى من أهلى ، أكان من أهلـه؟ فسبح الله طويلا ثم قال : لا اله الا الله يحدث الله محمدا صلى الله عليـه وسلم أنه ابنه ، وتقول انه ليس ابنه ، نعم كان ابنه ، ولكن كان مخالفـا فى النية والعمل والدين ، ولهذا قال الله تعالى : (انه ليس من أهلك)

---

(١) الرازى ، عصمة الأنبياء ، المصدر السابق بتصرف قليل ص ١٤ — ١٥ — ١٦ .

(٢) القرطبى ، المصدر السابق بتصرف جـ ٩ — ص ٤٦

(قال) القرطبى (وهذا هوالصحيح فى الباب ان شاء الله تعالى لجلالة من قال به ، وان قوله : (انه ليس من أهلك) ليس مما ينفى عنه انه ابنه . وقوله تعالى (فخانتاهما) يعنى فى الدين لا فى الفراش وذلك أن هذه كانت تخبر الناس أنه مجنون ، وذلك أنها قالت له أما ينصرك ربك فقال لها : نعم . قالت : فمتى ؟ قال : اذا فار التنور ، فخرجت تقول لقومها : يا قوم والله انه لمجنون ، يزعم أنه لا ينصره ربه الا أن يفور هذا التنور ، فهذه خيانتها .

وخيانة الأخرى أنها كانت تدل على الأضياف (١) (٢) هـ وبهذا تبطل مقالتهم هذه الخبيثة ان نوحا عليه السلام كذب فى نسبة هذا الولد لنفسه ، وكأنهم لم يسمعوا قول الله تعالى (ونادى نوح ابنه) (ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم) .

هذا هو ردى على شبهتهم الأولى . أما الثانية ، وهى قولهم : ان سؤال نوح عليه السلام كان معصية لثلاث آيات :

فالرد عليها أن سؤال نوح هذا نجاة ابنه ليس بمعصية لأنه كان يعتقد ايمان ابنه بناء على وعد الله له بنجاة المؤمنين من أهله ، ولم يكن عالما بأن هذا الابن مكتوب فى المغرقين ، والآيات التى استدلوا بها على معصية نوح عليه السلام ، دالة على براءته من المعصية ، من حيث لا يدرون . لأن الأولى منها برأته من أن يكون عالما بكفر ابنه حتى لا تكون هناك عاطفة بينه وبين من يعلم أنه عدو لله ، وأنه كتب عليه الشقاء ، وذلك واضح

---

(١) نفس المصدر .
(٢) يعنى بالأضياف : أنها كانت تخبر قومها بأن تشعل النار حتى يأتوا لفعل فاحشة اللواط بهم .

من قوله تعالى فى الآية نفسها (فلاتسألن ما ليس لك به علم) الآية • أى فانك لا تعلم حقيقة هذا الابن لانك تظنه مؤمنا ، وهو كافر وهالك فلا تسأل عنه بعد هذا كيلا تكون من الجاهلين •

وأنت خبير بأن نوحا عليه السلام لم يسأل عنه بعد هذا بل استعاذ من ذلك أيما استعاذة • وقد دلت على ذلك الآية الثانية التى استدلوا بها على معصية نوح عليه السلام ، وهى دالة كالتى قبلها على أنه ما كان عالما بما سأل عنه ، وهى قوله تعالى : (رب انى أعوذ بك أن اسألك ما ليس لى به علم) وزاد عليه الصلاة والسلام على الاستعاذة عما نهى عنه ما يدل على كمال تواضعه لله تعالى ، واعترافه له بأنه هو وحده المتفضل عليه بالنبوة وكونه لم يجعله من الخاسرين ، وليس فى هذا ما يصدق عليه أنه معصية وانما يدل على محض العبودية لله تعالى ، والخوف منه ، والرجاء لما عنده • وتلك سنة الأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام • أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده •

وأما قوله تعالى فى الثالثة (انه عمل غير صالح) فالتحقيق فيه أن المراد به الابن أى انه ذو عمل غير صالح وتقدم توجيهه قريبا وهو أنه للمبالغة فى فساد عمله ، جعل هو نفس العمل ، فصح ، وصفه بأنه عمل غير صالح •

ولا مانع شرعا من اطلاق العمل على الابن ، لأن ابن الرجل من عمله ان صلح عاد عليه نفعه ، وان فسد بلاسببه فهو برىء منه ، والدليل قوله صلى الله عليه وسلم " اذا مات (١) ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث "

---

(١) رواه أبو داود ، ومسلم ، والنسائى ، والترمذى • انظر فى مختصر أبى داود للمنذرى ، تحقيق محمد شاكر • جـ ٤ ص ١٥٦ مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م فى الوقف

ومنها ولد صالح يدعوله بالخير • فان قلت : ان الاستثناء منقطع ، قلت : الأصل أنه متصل ، وأنا متمسك به وبأن الأسباب التى من أجلها جاء الولد هى أعمال عملها أبوه فهو عمل من أعمال أبيه ، وتارة يكون صالحا وتارة يكون غير صالح كما هومشاهد كثيرا • وقول الله تعالى : (يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح) ظاهر كل الظهور أنه عائد الى الابن لا للسؤال ومن قال بأنه عائد الى السؤال فلعله لم يتأمل قول الله تعالى (انه ليس من أهلك) فانه عائد الى الابن بلانزاع ، و هو أقرب مذكور لقوله (انه عمل غير صالح) فلا يصح أن نفرق بين هذين الضميرين ونجعل الأول (— انه ليس من أهلك —) عائد الى الابن المذكور فى قوله ان ابنى من أهلى ، ونجعل الثانى (— انه عمل غير صالح —) عائدا الى السؤال الذى لم يسبق له ذكر أصلا ، فهذا بعيد كل البعد كما ترى والعلم عند الله تعالى •

وبهذا يبطل وجه الاستدلال بالآية الكريمة على أن سؤال نوح عليه السلام كان معصية لأنه مبنى على أن الضمير فى قوله تعالى (انه عمل غير صالح) عائد الى السؤال ، والسؤال قد رأيت أن عوده عليه غير ممكن كما بينت لك بعده والاستغناء عنه بتوجيهين صحيحين ، لأن الأول منهما : ورد فى كلام العرب ما يدل على صحته فى لغتهم ، والثانى : ورد فى السنة المطهرة ما يدل على صحته شرعا •

أما الأول : فقد دل عليه قول الخنسا تصف ناقة :

ترتع ما رتعت حتى اذا ادكرت فانما هى اقبال وادبار

أى فانما هى ذات اقبال وذات ادبار ، فكذلك التوجيه فى قوله تعالى : (انه عمل غير صالح) أى انه ذو عمل غير صالح •

وأما الثانى : وهو كون العمل يطلق على الابن فقد قدمت لك

قريبا أنه دل عليه حديث : اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث ومنها الولد الصالح يدعو له بالخير ، وذلك لأنه من عمله وهو الذى تسبب فى وجوده والله تعالى أعلم .

وهناك قراءة شاذة " عمل " غير صالح بصيغة الفعل الماضى ولو صحت لكانت تغنى عن هذه التوجيهات كلها وهى لشذوذها لا يعتمد عليها فى الاحتجاج ، غير أنها صالحة للاستئناس بها لموافقتها للمعنى الذى اخترته لأنه اذا كان غير صالح فلابد أن يكون عمل غير صالح .

وخلاصة القول ونهايته أن الله سبحانه وتعالى لما سأله نبيه عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام نجاة ابنه الذى صدقه الله فى بنوته بقوله (ونادى نوح ابنه) مع أهله الذين وعدهم بالنجاة معه ، بين له أنه ليس منهم من جهة النجاة وبين له العلة فى ذلك ، وهى أنه عمل غير صالح فقوله (انه ليس من أهلك) نفى للنجاة معهم ، وقوله (انه عمل غير صالح ") بيان للعلة فى عدم النجاة . وأما باقى الآيات فهو تعليم من الله لنبيه ورفع له عن دركات الجاهلين الى درجات العارفين . ومن نبيه تسليم لأمره وقضائه ، واعتراف بمحض فضله بتوفيقه . ولذلك كان جزاؤه عند ربه (يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك) الآية (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) الآية فانظر متى كان هذا الهبوط المصحوب بالسلام والبركات والاصطفاء جزاء على المعصية المزعومة على هذا النبى الكريم على زاعميها لعائن الله تترى الى يوم القيامة .

وبهذا أنهيت الكلام حول مايتعلق بهذه الآيات بالنسبة لنوح عليه السلام ، وأضفت الى ذلك فائدة ، وعبرة تستفاد من قصة ابن نوح هذه .

فائـــــــــدة

قال بعض العلماء (فى هذه الاية الكريمة تسلية للخلق فى فساد أبنائهم . وان كانوا صالحين (قالوا روى) : أن ابن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطى رأسه ، فعلم مالك أنه قد فهمه الناس ، فقال مالك : الأدب أدب الله ، لا أدب الآباء والأمهات ، والخير خير الله ، لا خير الآباء والأمهات) (١) اهـ .

العبـــــــــرة

قلت : وأما العبرة فهى أنه يؤخذ من قصة ابن نوح هذا عدم الاتكال فى الدين على شرف النسب مهما كانت رتبته وصلاحه ، لأن نوحا عليه السلام ، من أولى العزم من الرسل ، وهذا أقرب الناس له ، لما لم يتبعه فى الايمان ، لم تنفعه قرابته تلك . ويؤيد ذلك قوله تعالى (الذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذرياتهم) فتراه جل وعلا شرط ايمان الذرية فى الحاقها بالآباء ، والعلم عند الله تعالى .

---

(١) القرطبى ، المصدر السابق ص : ٤٧

الفصـــل الثالـــث

الفصل الثالث في الكلام عن نبي الله ابراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام. وفيـه ثلاثة مباحـــث :

المبحـــث الأول

(ســـورة الأنبيـــاء)

قوله تعالى (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . اذ قـــال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لهـــا عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحـق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا علـــى ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا انـــه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم . قالوا فأتـوا بـه على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم. قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانـوا ينطقون . فرجعوا الى أنفسهـــم فقالوا انكم أنتم الظالمين . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقـــون. قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم . أف لكم ولما تعبـدون من دون الله أفلا تعقلون . الآيات (١) .

اعلم أن قوله تعالى (فجعلهم جذاذا) ، اخبار صريح من الله جـــل وعلا أن ابراهيم هو الذي كسر تماثيل قومه تنفيذا لحلفه المؤكد ليكيدنهم بعد أن يولوا عنهم مدبرين . ونظير ذلك قوله تعالى (فراغ عليهم ضربا باليميـــن).

اذا عرفت ذلك فاعلم أن قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام (قـال بل فعله كبيرهم هذا) ، يدل بظاهره على أن ابراهيم عليه السلام لم يكسر الأصنام ،

---

(١) سورة الأنبياء آية ٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٣ الى آية ٦٧

بل الذى كسرها كبيرها ، لانه قال : بل فعله كبيرهم هذا اجابة لقومه لما قالوا له : (من فعل هذا بآلهتنا يا ابراهيم) ، هذا مع الاعتقاد الجازم الذى لا يخالجه شك أن اخبار الله عنه بذلك حق لا يعتريه الريب ، وأن ابراهيم عليه السلام معصوم من الكذب بدليل الشرع والعقل ، لانه من الذين اصطفاهم الله على كافة الخلق ، وجعله خليله ، وآتاه رشده ، ولم يكن ليرسله لهداية الناس وليقتدوا به ، ثم يجعله من الكاذبين ، لاسيما اذا كان فى ميدان الدفاع عن الحق واظهاره ، وابطال الباطل وازهاقه .

فمن هنا ذهب علماء التفسير قاطبة الى التأويل . وكانت مذاهبهم متقاربة منها أنه من معاريض القول وهى أن يكون الكلام دالا فى ظاهره على معنى يفهمه السامع لوضوحه ، ويحمل معنى آخر فيه غموض وهو المراد عند المتكلم وهو يريد اخفاءه على المخاطب . ووجه ذلك أن ابراهيم عليه السلام أراد أن يبدى لخصومه أن أربابهم كسرها كبيرها ليتركوه ويوجهوا أنظارهم الى ربهم الذى يزعمونه الها ، والمعنى المقصود عنده على الصحيح أنه يريد اقامة الحجة عليهم ، وابطال زعمهم اذا رجعوا الى أنفسهم وعلموا أن آلهتهم عاجزة عن النطق ، وعن دفع من رامها بسوء ، ومن كان كذلك لا يصح أن يكون ربا يعبد .

وقيل : أراد بكبيرهم ، كبير أصابعه ، (وفيه نظر) ، لأن كبير أصابعه لم يفعل ذلك وحده .

وقيل انه ليس من المعاريض بل أراد الحقيقة ووجهه أن كبير الأصنام هو الذى أغضب ابراهيم عليه السلام لما رأى من تعظيمهم له أكثر من غيره فحمله ذلك على تكسيرهم لأن الافعال ، كما تسند الى فاعلها المباشر لها ، تسند الى الحامل عليها .

قلت : وهذا وجيه لولا أنه ، ترك الكبير الذى هو المغيظ له كما علمت ، الا أنه يمكن أن يقال : انه تركه ليبدى لهم أنه غضب من عبادة الصغار معه لما فى ذلك من التغرير بهم ، لانه اذا غضب هذا المنحوت من عبادة المنحوتين مثله ، لانه أكبر منهم جرما ، فكيف بالكبير المتعال الذى هو خالق السماوات والارض وما بينهما وما تحت الثرى .

وقيل انه يعنى بذلك أنهم ان كانوا ينطقون ، فعله كبيرهم هـــذا وان كانوا لا ينطقون فلا ، فهو من باب تعليق الجزاء على الشرط ، فهو اذا يريد تقرير الفعل لنفسه لانه اذا ثبت أنهم لا يستطيعون النطق فهـــم عاجزون عن تكسير الأصنام ومقصود ابراهيم عليه السلام هو رجوعهم الى أنفسهم ليعلموا هذه الحقيقة ، ثم لا يهمه بعد ذلك أن يعلموا أنه هو الذى كســـر أصنامهم ، لانه يريد اقامة الحجة عليهم طوعا حتى يقيموها على أنفسهم بأنفسهم فوقع ما كان قد أراد (فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون) فلما تم له مطلبه ، كاشفهم غير مبال بما عسى أن يستعملوه من الكيد به (ـ كما هى عادة القوى اذا عجز فى المحاجة لجأ الى استعمال القوة ـ) فقال : (أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) .

هذه هى الاقوال التى ذكرها أهل التفسير فى كتبهم وقد سقتها بالمعنى دون مراعاة لأحدهم دون الآخر .

المبحث الثاني

في عزو الأقوال الى أهلها

وهي بالتقريب أربعة أقوال :

أولها : أنه من المعاريض وهو قول ابن العربي ، قال : (اختلف الناس في ظاهر المقصود به • فمنهم من قال : هذا تعريض وفي التعاريض مندوحة عن الكذب • ومنهم من قال : بل فعله كبيرهم ان كانوا ينطقون ، فشرط النطق في الفعل (قال) والأول أصح لانه عدده على نفسه فدل على أنه خرج مخرج التعريض ، وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ، ويتخذونهم آلهة دون الله وهم كما قال ابراهيم لأبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا • فقال ابراهيم : بل فعله كبيرهم هذا ، ليقولوا : انهم لا ينطقون ولا يفعلون ، ولا ينفعون ولا يضرون ، فيقول لهم : فلم تعبدونهم فتقوم الحجة عليهم منهم •

ولهذا يجوز عند الائمة فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع الى الحق من ذات نفسه ، فانه أقرب في الحجة ، وأقطع للشبهة • انتهى منه بلفظه (١) •

قلت : وقد بين لك هذا العالم الجليل أن في المعاريض مندوحة عن الكذب ، وذكر قولين للعلماء ورجح الأول منهما وهو كونه من المعاريض وذلك في قوله : والأول أصح واستدل لذلك بكون ابراهيم عليه السلام عدد تلك القولة على نفسه في عذره عن الشفاعة يوم القيامة ، ومعنى ذلك أنها كذبة في صورتها ، وان كانت في حقيقتها حق لأنها سيقت لابطال الباطل واحقاق الحق كما رأيت • والعلم عند الله تعالى •

ثانيها : أن الكبير فعله بحمل ابراهيم عليه وهو قول القرطبي (قال) : فقالوا أأنت فعلت هذا بالآلهة ؟ فقال لهم ابراهيم على جهة الاحتجاج عليهم

---

(١) ابن العربي المصدر السابق ج ٣ ص ١٢٥٢ - ١٢٥٣

(بل فعله كبيرهم هذا) أى أنه غار وغضب من أن يعبد هو ويعبد الصغار معه ففعل بها لذلك ، ان كانوا ينطقون ، فاسألوهم فعلق فعل الكبير بنطق الآخرين تنبيها لهم على فساد اعتقادهم ، كأنه قال : بل هو الفاعل ان نطق هؤلاء . (قال) : وفى الكلام تقديم على هذا التأويل فى قوله (فاسألوهم ان كانوا ينطقون). (١)

قلت : الظاهر من قول القرطبى هذا رحمه الله أنه يرجح القول بأن ابراهيم عليه السلام كان يريد ايهام خصومه بأن كبير الأصنام غضب من عبادتهم معه ، لأنه صدر به كلامه ولكنه ضمنه معنى آخر وهو أن الكلام من باب تعليق الجزاء على الشرط ، وكأنه يرى اتحاد

ثم زاد على ذلك شيئا آخر وهو أن الكلام عن باب المعاريض ، فقال فى وسط كلامه على الآية الكريمة ما نصه : (وفى ضمن هذا الكلام اعتراف بأنه (ـ أى ابراهيم عليه السلام ـ) هو الفاعل وهذا الصحيح لأنه عدده على نفسه فدل أنه خرج مخرج التعريض) انتهى محل الغرض منه .

ومرادى من سياق كلامه هو الاستشهاد به على أن الآية الكريمة لابد من تأويلها عند عامة أهل التفسير ، وأما هو فقد جمع ثلاثة أقوال وجعلها راجعة الى معنى واحد هو التعريض ، لأن فيه مندوحة عن الكذب ، وبذلك يتفق مع ابن العربى فى تأويله الذى مرّ ذكره قريبا .

ثالثها : أن ابراهيم عليه السلام يريد تقرير الفعل لنفسه وهو قول ابن كثير

---

(١) المصدر السابق جـ ١١ ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠

(٢) نفس المصدر

قال : (بل فعله كبيرهم هذا يعنى الذى تركه لم يكسره (فاسألوهم ان كانوا ينطقون) (قال) : وانما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون ، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد . انتهى منه بلفظه (١) .

وخلاصته أنه يقوى أن ابراهيم يريد بذلك اقامة الحجة عليهم ، وأن يكونوا هم أنفسهم المكتشفون لذلك حتى تقفل عليهم أبواب المغالطات والحجج الباطلة ، وهذا - والله تعالى أعلم - أمر مسلم به مهما كانت المذاهب فى هذا الموضوع .

رابعها : أنه مجاز علاقته السببية وهو :

استظهار أبى حيان فى البحر المحيط (قال) : (والظاهر أن بل للاضراب عن جملة محذوفة ، أى قال : لم أفعله انما الفاعل حقيقة هو الله بل فعله كبيرهم وأسند الفعل الى كبيرهم على جهة المجاز لما كان سببا فى كسر هذه الأصنام هو تعظيمهم وعبادتهم له ولمن دونه من الأصنام كان ذلك حاملا على تحطيمها وكسرها فأسند الفعل الى الكبير اذ كان تعظيمهم له أكثر من تعظيمهم ما دونه (٢)) انتهى محصل الغرض منه وهو صريح فى أنه يرى أن الكلام ليس من المعاريض ، وانما من باب اسناد الفعل الى الحامل عليه كما يسند الى مباشره ، وهو أسلوب عربى معروف .

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ - ص ١٩٢

(٢) أبو حيان محمد بن يوسف بن على الأندلسى ، البحر المحيط . الناشر مطابع النصر الحديثة بالرياض - المملكة العربية السعودية ، بدون تاريخ الطبعة (بدون) جـ ٦ ص ٣٢٤ - ٣٢٥

وهناك من المتأخرين من يرى أن القضية أوضح فى التهكم من أن يطلب لها مخرج ، ولا داعى لتسمية هذه كذبة من ابراهيم عليه السلام ، ولا البحث عن تعليلها بشتى العلل التى اختلف فيها المفسرون • فالأمر أيسر من هذا بكثير ، انما أراد أن يقول لهم : ان هذه التماثيل لا تدرى من حطمها ان كنت أنا أم هذا الصنم الكبير الذى لا يملك مثلها حراكا • فهى جماد لا ادراك له أصلا • وأنتم كذلك مثلها مسلوبوا الادراك لا تميزون بين الجائز والمستحيل • فلا تعرفون ان كنت أنا الذى حطمتها أم أن هذا التمثال هو الذى حطمها ! •

(فاسألوهم ان كانوا ينطقون) اهـ محل الغرض منه •

قلت : وهذا كلام فى غاية الحسن ، وواضح من سياق الآيات • ولكنه يعكر صفوه ما ثبت فى الصحيحين من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " لم يكذب ابراهيم فى شىء قط الا فى ثلاث كلهن فى الله • قوله : انى سقيم ولم يكن سقيط • وقوله لسارة : أختى ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا • "

فهذا الحديث الصحيح صريح فى أن صورتها أطلق عليها اسم الكذب وان كان صريحا أيضا فى أنها فى الله • ونظيره حديث الشفاعة الذى عدد فيه ابراهيم عليه السلام هذه الكذبات الثلاث أنها سبب فى امتناعه عن الشفاعة ، فذلك هو الذى جعل العلماء يجتهدون فى التماس المخرج لها والا فالآيات أسلوبها واضح فى كون ابراهيم عليه السلام لا يريد اخفاء شىء عن خصومه وانما يريد أن يكشف لهم بأدق العبارات

---

(١) سيد قطب ، " فى ظلال القرآن " ط (٥) ـ ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م جـ ١٣ ـ ص• ٤ بتصرف •

وأبلغها أن أصنامهم هذه لا تنفع ولا تضر ، وإذا كانت كذلك فعبادتها خور ونتن ، ولا يقصدها بذلك الا ضعاف العقول والسذج من الناس.

واقرأ ان شئت قوله (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين). هل في هذه العبارة تخوف من المخاطبين بها ؟ ثم لما نفذ ودبر قسمه (فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم) هل ثبت أنه فر من البلد حتى لا يروه؟ لا ، انه يريد أن يسألوه ويوجهوا اليه اللوم ، حتى يكون التهكم أبلغ في ذلك الجواب الساخر ، فانه من الجلي في قوله ذلك : (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون) أنه يهزأ بعقولهم لأنه يحقر معبودهم أمامهم بقوله كبيرهم هذا .

فهذه الاشارة واضح فيها أنها للتحقير وهو من معانيها ونظيره قوله تعالى : (انما هذه الحيوة الدنيا لعب ولهو) الآية . ثم قال : (فاسألوهم ان كانوا ينطقون) فهذا استهزاء آخر وتحقير لشأن هذه الآلهة هي وعابديها ، وليس المراد منه ، مجردة ، لأن ذلك سبيل الجاهلين وقد أعاذ الله ابراهيم أن يكون من الجاهلين . بل مراده عليه السلام أن يوقفهم على أنهم في الحضيض من التفكير ليربأوا بأنفسهم عن عبادة الآلهة التي نحتوها بأيديهم الى عبادة خالق السماوات والأرض. هذه مهمة ابراهيم عليه السلام ، وقد قام بها أحسن قيام .

وقد نجح في ارجاعهم الى أنفسهم مقرين بخطئهم . قال تعالى : (فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون) . ولكن سرعان ما انتكسوا فرجعوا الى الوراء وتجاهلوا ضوء النهار لأن حجب التقليد أعمت بصائرهم حتى سخروا من أنفسهم من حيث لا يشعرون ، فقالوا " لقد علمت : ما هؤلاء ينطقون) .

وهذا ما كان ينتظره ابراهيم عليه السلام من اجابة الخصم نفسه أى اذا كانوا لا ينطقون كما قلتم ، فهم عاجزون عن النفع لغيرهم ،وعن الضر لمن أرادهم بسوء ، فآن لابراهيم عليه السلام أن يتعجب وينكر عليهم عبادة من كانت هذه صفاته فى الحقارة ، وقلة الغناء . قال : " أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون " .

فانظر رحمك الله قول ابراهيم هذا : " أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون " هل تحوم حوله علامات الخوف أو دواعى المعاريض ؟ وهذا مما يؤيد رأى القائلين بأن قول ابراهيم عليه السلام " بل فعله كبيرهم هذا " انما هو تهكم محض وتقرير بقومه وبصنيعهم الفاسد فى عبادتهم تلك الانقاض التى جمعوها من طين وماء وحجارة.

وأيد هذا الرأى شيخ الطائفة الطوسية صاحب تفسير التبيان وغالى فى تأييده وفند أقوال المفسرين القائلين بأن قول ابراهيم ذلك خرج مخرج المعاريض التى هى فى صورتها كالكذب وفى حقيقتها ليست كذبا كما دل على ذلك حديث الشفاعة ، وحديث لم يكذب ابراهيم عليه السلام فى شيء قط الا ثلاث كلهن فى الله الى آخر الحديث . فأبطل الطبرسى هذا الحديث وقال : انه لا أصل له فقال ما نصه :

(فأجابهم ابراهيم بأن قال : بل فعله كبيرهم هذا وما فعل شيئا لأحد أمرين :

أحدها : أنه قيده بقوله " ان كانوا ينطقون " فقد فعله كبيرهم . وقوله : " فاسألوهم " اعتراض بين الكلامين ، كما يقول القائل : عليه الدراهم فأسأله ان أقر .

والثاني : أنه خرج مخرج الخبر وليس بخبر وانما هو الزام دل على تلك الحال ، كأنه قال : بل ما تنكرون فعله كبيرهم هذا . فالالزام تارة يأتي بلفظ السؤال وتارة بلفظ الأمر ، كقوله تعالى (فأتوا بسورة مثله) وتارة بلفظ الخبر والمعنى فيه أنه من اعتقد كذا لزمه كذا . وقد قرئ في الشواذ : فعله كبيرهم بتشديد اللام - بمعنى فلعل كبيرهم . فعلى هذا لا يكون خبرا فلا يلزم أن يكون كذبا ، والكذب قبيح لكونه كذبا ، فلا يحسن على وجه سواء كان فيه نفع أو دفع ضرر .

وعلى كل حال فلا يجوز على الانبياء القبائح ، ولا يجوز أيضا عليهم التعمية في الاخبار ، ولا التقمية في أخبارهم ، لانه يؤدي الى التشكيك في أخبارهم ، فلا يجوز ذلك عليهم على وجه .

فأما ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم بأن قال (لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات كلها في الله) فانه خبر لا أصل له ، ولو حمد الكذب على وجه ، كما يتوهم بعض الجهال ، لجاز من القديم تعالى ذلك .

وزعموا أن الثلاث كذبات هي قوله " فعله كبيرهم هذا " وما كان فعله ، وقوله " اني سقيم " ولم يكن كذلك .

وقوله في سارة لما أراد الجبار أخذها : انها أختي ، وكانت زوجته ، حتى قال بعضهم : كان الله أذن له في ذلك . وهذا باطل ، لانه لو أذن الله له فيه ، لكان الكذب حسنا ، وقد بينا أنه قبيح على كل حال (١) . انتهى محل الغرض منه بلفظه . قلت :

أما قوله في حديث أخرجه الشيخان : لا أصل له ، فلا أصل له ،

---

(١) الطوسي - التبيان - ج ٧ ص ٢٣٠ خطبة النعمان النجف ١٣٨٥ - ١٩٦٦

ولا يوافقه على ذلك أحد ممن ينتسب لمعرفة الحديث ، لأن الاجماع حاصل عليه أن ما أتفق الشيخان البخارى ومسلم هو أصح شيء بعد كتاب الله . فلا تأثير لما ادعاه من بطلان هذا الحديث ، ولكن صوابه أن يلتمس المخرج مثل من سبقه من أجلاء علماء التفسير ، ولا يطعن فى نص من نصوص الشرع الثابتة لأن ذلك يفتح باب الطعن فى أصول شريعتنا المطهرة ، ولا يحل مشكلة ، وكذلك قوله فى الكذب انه لا يحسن على أى وجه ففيه تحكيم للعقل ، والعقل لا يحسن ولا يقبح بل الأمر فى ذلك كله الى المشرع تعالى ، ورسوله وهو الذى شرع على لسانه . قد ثبت عنه أن هذه الكذبات كلها فى الله وذلك وجه حسنها فليس لنا الا الرضا بذلك .

وثبت فى شرعنا أن الكذب تعتريه أحكام الشرع يجب ، ويحرم ، ويجوز ، ويندب ، ويكره ، ولا شك أن ذلك دال على أنه يكون حسنا فى حال وجوبه وندبه كانقاذ المسلم مثلا من التهلكة أو جماعة من المسلمين بأيدى الكفار ، وكالصلح بين الناس .

ولا شك أن من أشد أنواع الكذب النطق بكلمة الكفر كقول القائل مثلا : هو يشهد أن مع الله الها آخر أو شهادته بنفى الخالق ، عند الاكراه على ذلك . وقد اباح الله جل وعلا ذلك فى كتابه العزيز . فقال تعالى : (من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) .

ومعنى الآية الكريمة كما قرر أهل التفسير أن المرء ما دام قلبه مطمئنا بالايمان ، فلا حرج عليه عند الاكراه لو نطق بكلمة الكفر انقاذا لنفسه ، وذلك اذن من الله جل وعلا لعباده أن ينطقوا بكلمة هى أشنع أنواع الكذب عند الضرورة . وما كان الله ليأذن فى ذلك ، ويجوز لأحد كائنا من كان أن يقول انه لا يحسن على كل حال ، ويقول ان الاذن فيه من قبل الله تعالى باطل ،

وهذا في صريح الكذب . فما بالك بالمعاريض التي هي كذب في مجرد الصورة ، وأما حقيقتها فهي صحيحة حقه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للعجوز : " ان الجنة لا تدخلها عجوز " ، وكقوله " نحن من ماء " وما أشبه ذلك مما هو مستفيض في السنة والله تعالى أعلم .

المبحث الثالث

فيما ظهر رجحانه

اعلم أن الذى ظهر لى رجحانه أن قول ابراهيم عليه السلام : بل فعله كبيرهم دائر بين التهكم والمعاريض . أما التهكم فواضح من سياق الآية الكريمة ، ولولا ما ثبت من حديث الشفاعة ، وحديث : لم يكذب ابراهيم عليه السلام الا ثلاث كذبات كلها فى الله الى آخر الحديث لاقتصرت على أن الكلام من باب التهكم لا من باب المعاريض . ولثبوت هذين الحديثين جزمت بأن فى الكلام تعريضا ولكنه خفى ، لا يقبل الا مع نوع من التسليم والاعتراف بأن العقول عاجزة عن ادراك كل شئ .

وصدق صاحب الكشاف اذ يقول فى قول ابراهيم عليه السلام " بل فعله كبيرهم هذا " : (هذا من معاريض الكلام . ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها الا أذهان الراضة من علماء المعانى) (قال) : والقول فيه : أن قصد ابراهيم عليه السلام لم يكن الى أن ينسب الفعل الصادر عنه الى الصنم ، وانما يريده لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة ، وتبكيتهم وهذا كما لو قال لك صاحبك ، وقد كتبت كتابا بخط رشيق ، وأنت شهير بحسن الخط : أأنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمى لا يحسن الخط ، ولا يقدر الا على خرمشة فاسدة ، فقلت له : بل كتبته أنت ، كأن قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به ، لا نفيه عنك ، واثباته للأمى أو المخرمش لأن اثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به واثبات للقادر) انتهى محل الغرض منه

قلت :

واعلم أن الدليل عندى أن التهكم والاستهزاء أوضح فى هذا الموضع

---

(١) الزمخشرى المصدر السابق جـ ٣ ص ٥٧٧

من التعريض أن ابراهيم عليه السلام استهل فى أول كلامه فى محاجة قومه بالاستفهام الانكارى فقال : " ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون " . ثم ثنى بنسف مبادئهم والحكم عليها بأنها ضلال واضح فقال : " لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين " . ثم حلف أمامهم بالله العظيم انه ليكيدن أصنامهم بعد أن يولوا مدبرين ، فلما اجتمع الاستفهام الانكارى مع الاشارة الدالة على التحقير " ما هذه التماثيل " مع الحكم بتسفيه أحلامهم وأحلام آبائهم ، مع التهديد لأربابهم التى هم لها عابدون . دل ذلك على أن الكلام من باب التهكم والاستهزاء ، لأن ذلك هو المناسب للمقام ، ووجهه أنه بعد ما صارحهم بأنه لابد أن يكيد لأصنامهم ، مع علمهم أنها لا تفعل شيئا فسؤالهم له " من فعل هذا بآلهتنا يا ابراهيم " ليس سؤالا طبيعيا وانما هو سؤال تهديد ، ينبئ عن سوء النية ، ولما كان هو لا يأبه بذلك التهديد ، لشدة توكله على ربه جل وعلا ، قابلهم بذلك الجواب الساخر ، لأن تكسير الاصنام وحده دال على أنها لا تنفع ولا تضر ، فكان صوابهم أن يكتفوا به على عدم جدواها . فلما لم ينتبهوا لذلك وهو أكبر دليل ثم سألوا ابراهيم عمن فعل هذا التكسير بالآلهة وسمعهم يصفونها بالألوهية وهى مكسرة أشلاء ، حان لابراهيم عليه السلام حينئذ أن يتهكم بعقولهم المغطاة بظلام التقليد فقال : " بل فعله كبيرهم هذا " وهو يعلم أنهم يعلمون أنه لا يفعل شيئا لأنه شئ من صنعتهم التى صنعوها بأيديهم ، كأنداده التى كسرت ولم تفعل شيئا ، فالأمر ليس دونه ستار ، وانما يريد ابراهيم زيادة على الاستهتار البين أن يضايقهم فى المحاجة حتى لا يجدوا قولا يجادلون به سوى نسبة العجز لآلهتهم ، فقالوا : " لقد علمت ما هؤلاء ينطقون " . ومن عجز الهه ، فهو والله أشد عجزا .

فلما ظهر عجزهم عن المحاجة وعجز آلهتهم عن النطق وعن دفع الضرر من باب أولى ، ودعهم ابراهيم عليه السلام ذلك التوديع الذى تلتهب فيه نار التضجر التى كانت مخمدة بالصبر والحلم والحكمة وانتظار الاهتداء الى الحق ،

فقال : " أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون " .

فالآيات من أولها الى آخرها ،سلسلة متواصلة من الانكار والتحقير والتسفيه للاحلام وأحلام الآباء والتهديد للآلهة . ولا غرابة اذا جاء التهكم أثناء ذلك ثم التضجر بعد تحققه التام ، ويأسه من انتفاع قومه .

وهناك دليل قرآني وهو : ورود مثل هذا النوع من التهكم في القرآن الكريم كقوله تعالى مخاطبا للكافر يوم القيامة : (ذق انك أنت العزيز الكريم) .

هذا هو ما دعاني الى القول بأن المسألة من باب التهكم لا من باب التعريض. لأن أغراض التعريض حسب اطلاعي هي أن يكون المتكلم يخاف من اظهار الأمر على ما هو به في الواقع ، لأن ذلك يلحق به ضررا ما ، كقوله صلى الله عليه وسلم " نحن من ماء " فانه يريد بذلك تعمية الخبر عن عدوه ، أو يكون في الأمر نكتة تؤول الى ادخال السرور على المخاطب كمازحته صلى الله عليه وسلم للمرأة لما طلبت دخول الجنة : بأن الجنة لا تدخلها عجوز. وابراهيم عليه السلام ، لا يخاف من مخاطبيه لأن مواجهته لهم ولأصنامهم بأنها تماثيل وأنها لا تنفع ولا تضر ، وقسمه بالله أمامهم انه ليكيدنها ، وقوله " أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون " كلها مانعة من الحكم بأنه كان يخاف من بطشهم .

وأما الثانية وهي ادخال السرور ، فلا أحتاج الى التدليل على نفيها ، لأن ما بينه وبينهم من المشاتمة والمغاضبة ،مانع من ارادته ادخال السرور عليهم باستعمال المعاريض ، مثل ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العجوز المؤمنة ،من قوله " ان الجنة لا تدخلها عجوز " .

هذا ما كنت أعتقده من أن أغراض المعاريض محصورة فيما ذكر. ولكني بعد

النظر والتأمل فى أقوال أهل التفسير وغيرهم ، أيقنت أن أغراض المعاريض أكثر من أن تحصر . فانصاعت نفسى مطمئنة الى قبول أقوال من قالوا بأن قـــول ابراهيم ذلك : " بل فعله كبيرهم " من معاريض الكلام ، مع وضوح التهكم فيه. واهتديت الى تسمية هذا اللون من التعريض " بالمضايقة فى المحاجة " لأنـــه سوق الخصم الى أضيق طريق يمكن اصطياده منها . فابراهيم عليه السلام ، أجابهم ، بكلمة لا جواب لها الا ما فاهت به ألسنتهم من قولهم : " لقد علمت ما هؤلاء ينطقون " .

ولو لم يقل لهم : فعله كبيرهم هذا ، لما كانت هناك مناسبة يقرون بها على أنفسهم هذا الاقرار الذى ساقهم اليه بحججه البليغة . وصدق اللـــه العظيـم اذ يقول " وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء " الآيـــة .

وبهذا تعلم أن ابراهيم عليه السلام برئ من أن يكون قصد بهذا الكلام أن الكبير فعله حقا ، لأن ذلك كذب ، وابراهيم عليه السلام لم يداخله خوف من عدوه حتى يكون ذلك مدعاة لحذره من بطشهم ، وليس من أهل الأهـــواء الذين يكذبون لأدنى شئ حسب أغراضهم ومطامعهم الدنيوية لاخبار الله جـل وعلا بأنه آتاه رشده وأنه أمة قانتا لله حنيفا ، وأنه اجتباه ، وهداه الى صراط مستقيـــم .

فهذه الأوصاف كلها منافية تمام المنافاة لأوصاف الكذابين ، لأن الكذب مذمة كبرى ، ومنقصة عظمى ، فلا يمكن أن يتصف بها من قال الله فيه انه آتاه رشده ، وجعله امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم . والعلم عند الله تعالى .

تنبيهـــــــــات

الأول منها : فى قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام " انى سقيم " والاجابة عنه •

والثانـــى : فى قول ابراهيم عليه السلام لما أراد الجبار أخذ زوجته سارة : هى " أختى " ولم تكن أخته لأمه وأبيه ، والاجابة عن ذلك •

والثالث : فى قول الله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام (فلما جـن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفليـن• الى قوله فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون " • الآيـات والاجابة عن الاشكال الوارد عليها •

أما الأول : وهو قوله " انى سقيم " فاعلم أن الأصل فيه أن يكون صادقا فى قوله ، فيكون سقيما كما قال ،ويجب على كل مسلم أن يصدقه فى ذلك • ولكـن هذا السقم تعتريه احتمالات ثلاثة : أن يكون سقيما فى جسمه حاليـــا ، وأن يكون مريض القلب ، لأمرما ، وأن يكون مريضا فى المستقبل ، لأن الغالب أن من فى عنقه الموت يمرض فيموت • والأمور يحكم عليها بأغلب أحوالها •

اذا عرفت ذلك فاعلم أن الأول منها وهوكونه سقيما فى جسمه هـــو أظهر هذه الاحتمالات الثلاثة • وهو الذى يتبادر الى ذهن السامع ، ويليه فى الظهور الاحتمال الثانى ، وهو كونه سقيما فى قلبه من أجـــل عبادة الأصنام دون الله • ثم الثالـث والحكم أنه يجب حمل اللفـــظ على المعنى المتبادر منه مالم يصرف عنه صارف • وقد دل حديث لـم يكذب ابراهيم عليه السلام الا ثلاث كذبات كلها فى الله ومنها قوله " انى

سقيم ولم يكن سقيما ". على أن هذا المعنى غير مراد ، وبقى الاحتمال الثانى والثالث ، وقد ذهب الى كل منهما بعض العلماء . هـ

قال القرطبى رحمه الله تعالى بعد ما ساق الأقوال :

قلت : " وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم " لم يكذب ابراهيم عليه السلام الا ثلاث كذبات " الحديث .... الى أن قال : وهو يدل على أنه لم يكن سقيما وانما عرض لهم . وقد قال جل وعز : " انك ميت وانهم ميتون " . فالمعنى انى سقيم فيما استقبل فتوهموا هم أنه سقيم الساعة . وهذا من معاريض الكلام على ما ذكرنا ومنه المثل السائر " كفى بالسلامة داء " وقول لبيد :

فدعوت ربى بالسلامة جاهدا * ليصحنى فاذا السلامة داء

وقد مات رجل فجأة فالتف عليه الناس فقالوا : مات وهو صحيح ! فقال أعرابى : أصحيح من الموت فى عنقه ! فابراهيم صادق ، لكن لما كان الأنبياء لقرب محلهم واصطفائهم عد هذا ذنبا ، وقيل أراد سقيم لكفرهم)(١) . انتهى محل الغرض منه .

وقد تواطأ معه على هذا المعنى أبو حيان فى البحر فقال ما نصه : (قال وقوله انى سقيم من المعاريض عرض أنه يسقم فى المآل أى يشارف السقم قيل وهو الطاعون ، وكان أغلب . وفهموا أنه متلبس بالسقم ، وابن آدم لابد أن يسقم انتهى منه .

وقال ابن كثير : فأما الحديث الذى رواه ابن جرير ههنا : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنى هشام عن محمد عن أبى هريرة

---

(١) القرطبى ، المصدر السابق ، جـ ١٥ ص ٩٣

(٢) أبو حيان فى البحر ، المصدر السابق ، جـ ٧ ص ٣٦٦

رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لم يكذب ابراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات : ثنتين فى ذات الله تعالى ،قوله : (انى سقيم) وقوله : (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله فى سارة : هى "اختى" فهو حديث مخرج فى الصحاح والسنن من طرق ، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله حاشا وكلا ، وانما أطلق الكذب على هذا تجوزا ، وانما هو من المعاريض فى الكلام لمقصد شرعى دينى كما جاء فى الحديث ان فى المعاريض لمندوحة عن الكذب" (١) (٢) انتهى محل الغرض منه.

قلت : وهذا هو الصحيح فى المسألة ان شاء الله وهو واضح وبدون تكلف وموافق لقول الله تعالى (واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا) .

---

(١) ابن كثير ، المصدر السابق ، جـ ٤ ص ١٤

(٢) الحديث رواه البخارى فى الأدب المفرد عن مطرف بن عبد الله قال :صحبت عمران بن حصين فى الكوفة الى البصرة فما أتى عليه يوم الا أنشدنا فيه شعرا وقال : ان فى معاريض الكلام مندوحة عن الكذب وعزاه فى الدرر لابن السنى عن عمران بن حصين ولابى نعيم عن على بلفظ ان فى المعاريض مندوحة عن الكذب ، وأخرجه البيهقى فى الشعب والطبرانى فى الكبير ، والطبرى فى التهذيب بسند رجاله ثقات ،ورواه ابن السنى بسند جيد ،وقال البيهقى : رواه داود ابن الزبرقان عن عمران مرفوعا وموقوفا والصحيح الموقوف ، ووهى المرفوع ابن عدى ، وروى من وجه آخر ضعيف جدا عن على رفعه ، وكذا عند أبى نعيم عن على رفعه (ان فى المعاريض ما يكفى الرجل العاقل عن الكذب) وبالجملة فالحديث حسن كما قاله العراقى ، ولذا ،رد على الصنعانى حكمه عليه بالوضع (قال) : وروى البخارى فى الأدب المفرد ، والبيهقى فى الشعب عن عمران قال : أما فى المعاريض ما يكفى المسلم من الكذب ، قال فى المقاصد : (ورواه العسكرى عن مجاهد قال : قال عمر بن الخطاب : ان فى المعاريض لمندوحة للرجل المسلم الحر عن الكذب ، وأشار الى أن حكم الرفع.

انظره فى كشف الخفاء ومزيل الالباس ، للشيخ اسماعيل محمد العجلونى الطبعة الثانية سنة ١٣٥١ هـ دار احياء التراث العربى بيروت جـ ١ ص ٢٣٣ .

وسواء قلنا انه سقيم لكفر قومه فهو معنى صحيح وواقع ، أو قلنا انه سقيم فى المستقبل لأن من فى عنقه الموت فهو سقيم ، والله تعالى أعلم .

التنبيـــه الثانـــى

فى قوله فى زوجه سارة : أختـى ، فهذا يقال فيه مثل ما قيل فى قولـه تعالى حكاية عن ابراهيم : (انى سقيم) لأن حمله على كونها أخته فى الديـــن لا شبهة فيه ألبته ، ودليله قوله تعالى (انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بيـــن أخويكم) وقوله صلى الله عليه وسلم (المؤمن أخو المؤمن) الى آخر الحديث.. وهذا المعنى أطبق عليه جميع كتب التفسير ، والله تعالى أعلم .

التنبيه الثالث

في قوله تعالى : (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي الى آخر الآيات) .

اعلم أن هذه الآيات الكريمة أثار حولها بعض الطوائف شبها لا تليق بمنصب النبوة ، وذلك لأن الآية تحتمل أن ابراهيم عليه السلام كان في أول أمره يظن الكوكب ربه وكذلك القمر والشمس ، كما روى ذلك عن ابن عباس وغيره . ومحتمل أن يكون جازما بعدم ربوبيتها . ومراده هذا ربي في زعمكم الباطل ، أو أنه حذف أداة استفهام الانكار . ولكن القرآن الكريم دل على بطلان الأول وصحة الثاني . أما بطلان الأول ، فان الله جل وعلا نفى كينونة الشرك في الماضي عن ابراهيم عليه السلام في قوله تعالى (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) .

فهذه الآية الكريمة نفت كون الشرك في الماضي ونفي الكون الماضي يستغرق جميع الزمن الماضي ، وكذلك أثبتت الآية الكريمة في المقابل أن هذا الزمن الخالي من الشرك كان معمورا بالحنيفية والاسلام ، " ولكن كان حنيفا مسلما " فثبت بهذا أنه لم يتقدم عليه شرك يوما ما .

قال شيخنا العلامة (رحمه الله تعالى وأكرم مثواه) : وأما كونه جازما وقتا بعدم ربوبية غير الله تعالى ، فقد دل عليه ترتيب قوله تعالى (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال : هذا ربي) الى آخره ، (دل ترتيبه) " بالفاء " على قوله تعالى : (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين) . فدل على أنه قال ذلك موقنا مناظرا ، ومحاجا لهم كما دل عليه قوله تعالى :

(وحاجه قومه) الآية ، وقوله : (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومـــه) الآيه والعلم عند الله تعالى • انتهى منه ، (١) قلت :

وفي هذا رد على كـل شبهة مهما كان لونها لانه لا أحد أعلم بابراهيـم عليه السلام من ربه جل وعلا وقد زكاه وبرأه من الشرك بقوله (ان ابراهيم كـــان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين) وقوله : (وما كان من المشركيـــــن) فهاتان الآيتان صريحتان في نفي الشرك في ماضي الأزمنة ، ومثبتة للايمان فـــي ذلك الماضي • والعلم عند الله تعالى •

---

(١) الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي أضواء البيان مطبعة على صحي المدني القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م جـ ٢ ص ٢٠١

يوسف عليه السلام

الفصل الرابع

فيما نسب الى نبي الله يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام :

وفيه عدة شبه :

الاولى :

في قوله تعالى في سورة يوسف : (ولقد همت به ، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) الآية .

الثانية :

في قوله تعالى : (رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه) .

الثالثة :

في قوله تعالى : (وما أبرئ نفسي ان النفس لأمارة بالسوء) .

الرابعة :

في قوله تعالى : (اذكرني عند ربك) .

الخامسة :

في قوله تعالى : (جعل السقاية في رحل أخيه) .

السادسة :

في قوله تعالى : (قال ايتوني بأخ لكم من أبيكم) .

السابعة :

في قوله تعالى : (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا) .

الثامنـــة :

في قوله تعالى : (اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم) .

التاسعـــة :

في قوله تعـالى : (وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) .

العاشـرة :

في عدم اعلام يوسف عليه السلام أباه بحقيقة الأمر حتى تسكن نفسه . وبيان ما أشكل فيها والرد على ذلك .

أما الأولى :

وهي قوله تعالى " ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه " ففيه بحثان أولهما : لغوي وهو في تفسير معنى " الهم " لغة . وثانيهما : نحوي وهو حول جواز تقديم جواب " لولا " وإذا حذف كيف يقدر . وبذلك يتضح معنى الآية الكريمة ، وإذا اتضح معناها زال الاشكال ، وبطلت الشبهة .

معنى الهم لغة :

الهم في اللغة العربية يطلق ويراد به الخاطر القلبي وعلى أنه هو المراد في الآية فقد صرف عنه وازع التقوى .

وقال بعضهم هو الميل الطبيعي المزموم بالتقوى ، وعلى أنه المراد ، فلا معصية فيه لأنه أمر جبلي لا يتعلق به التكليف كما في الحديث : اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ، ولا أملك .

قالوا : ومن هذا النوع : هم بني حارثة ، وبني سلمة بالفرار يوم أحد المذكور في قوله تعالى : (اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما) .

ويطلق الهم ويراد به المحبة والشهوة . يقول الانسان فيما يحبه ويشتهيه هذا ما يهمني . وهذا أهم الأشياء الي . ويقول فيما لا يحبه ولا يشتهيه . هذا لا يهمني .

وقال بعضهم معناه : قارب الهم ولم يهم بالفعل كقول العرب : قتلته لو لم أخف الله أي قاربت أن أقتله كما قاله الزمخشري في تفسيره لهذه الآية الكريمة .

وقال بعضهم قد هم يوسف عليه السلام بالفعل ، ولكنه هم بضرب امرأة العزيز أو دفعها عن نفسه .

هذه هي المعاني التي ذكروها في معنى الهم لغة ، وقد رأيت أنها لا يلزم منها أن يوسف عليه السلام صمم على ما طلبت منه امرأة العزيز ، لأنه اما أن يكون

الميل الطبيعي أو الشهوة الغريزية المزموم كل منهما بوازع التقوى والعفة كميل الصائم الى الماء البارد ، وتقواه تمنعه من الشرب ، ويدل عليه قولها فيما حكى الله جل وعلا عنها (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) ، ويكون المعنى على هذا : وهم بها " أى مالت نفسه اليها أو اشتهاها ، ولكن وازع التقوى والعفة صرفاه عن العزم على ما شرتها ، وعلى هذا التفسير يكون جواب " لولا " مقدرا تقديره : لولا أن رأى برهان ربه فعل معها ما قد همت هى به منه ، ويرد عليه أنه ليس من لفظ ما قبل " لولا " وهو خلاف لما هو الغالب فى القرآن الكريم وفى كلام العرب من أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه كقوله (فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) وقوله تعالى : (ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها) .

واما أن يكون هم بضربها أو دفعها عنه ، ويكون قوله : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) ، معناه : صرفنا عنه السوء أى الضرب لامرأة العزيز لأنه يؤدى الى الاساءة به هو من جهة زوجها وأهلها ، ويساعدها على الحاق التهمة به بحجة أنه راودها فامتنعت فضربها ، وصرفنا الفحشاء عنه بسبب البرهان الذى أريناه المشار اليه فى قوله تعالى : (فلما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما) أى وهما مشتملان على تحريم الزنى ، والفهم فى أمور الدنيا والدين .

جواز تقديم جواب لولا :

اعلم أن تقديم جواب " لولا " وجواب الشرط قال به من النحاة عامة الكوفيين ، ومن أعلام البصريين : أبو العباس المبرد ، وأبو زيد الانصارى .

وعليه فيكون قوله (وهم بها) جواب " لولا " متقدم فى قوله " وهم بها لولا أن رأى برهان ربه " ومعنى ذلك أن رؤية البرهان حالت دون الهم ، أى لولا أن رأى برهان ربه ، هم بها لكنه رأى برهان فلم يهم بها .

عدم جواز تقديم جواب " لولا " :

وأما البصريون فقد منعوا تقديم جواب " لولا " ولكنهم جوزوا حذفه وتقديره من جنس ما قبل " لولا " .

وعلى هذا يكون معنى الآية (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) لهم بها ، أو (هم بها) ، فالهم معلق على عدم رؤية البرهان ، ولكن البرهان رؤى ووجد ، فانعدم الهم ولم يحصل أصلا .

وبهذا يتبين أن يوسف عليه السلام برئ من أن يكون هم بما همت به امرأة العزيز ، وأنه معصوم من ذلك .

وهناك آثار كثيرة مؤداها أن يوسف عليه السلام هم بفعل الفاحشة كما همت امرأة العزيز ، ولم يمنعه من ذلك الا جبريل لما جاءه في صورة أبيه يعقوب عليه السلام ، أو خرجت له يده مكتوب فيها آيات من كتاب الله تعالى ، ثم طارت شهوته فخرجت من أنامله ، وأن كل ولد يعقوب عليه السلام ولد له اثنا عشر ولدا ماعدا يوسف عليه السلام بسبب تلك الشهوة التي خرجت لم يولد له الا احدى عشر ولدا .

وقد كثرت هذه الآثار وتناقضت ، وتضاربت ، وهذا كما رأيت لا ينافي أنه صمم على الفاحشة وعزم عليها . والعزم المصمم يؤاخذ صاحبه به ولو لم يقع فيما عزم عليه لمانع حال دونه ، ودليله قوله صلى الله عليه وسلم (اذا التقا المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار . قالوا يا رسول الله عرفنا القاتل فما بال المقتول . قال : انه كان حريصا على قتل صاحبه) هـ . فدل هذا الحديث على أن العزم المصمم الذي هو معنى الحرص المذكور يؤاخذ صاحبه لأن هذا المقتول الذي لم يقتل صاحبه ، كان في النار ، بسبب عزمه على قتل صاحبه فقط .

وهذه الشبهة التي نحن بصدد الرد عليها وابطالها ، وعند الرجوع الى أدلة

الاقوال الثلاثة ، نجد أن القول الاخير باطل من عدة أوجه :

أولها : أنه لم يرفع الى النبى صلى الله عليه وسلم منه شئ •

وثانيها: أنه متناقض فى نفسه •

وثالثها :أنه مناف لقواعد اللغة العربية ولأسلوب القرآن الكريم •

ورابعها : أنه مناف لعصمة الانبياء المعلوم ثبوتها شرعا وعقلا •

وخامسها : أنه يتعارض مع ما ثبت فى القرآن الكريم من تبرئة الله ليوسف عليه السلام ، وامرأة العزيز ، وشاهد من أهلها والعزيز ، وشهادة الشيطان بذلك ، والنسوة اللاتى قطعن أيديهن •

ويتبين بهذا أن القولين الاول ، والثانى كل منهما صحيح

أما أحدهما وهو كون يوسف عليه السلام لم يحصل منه هم ألبتة بامرأة العزيز ، فقد دل عليه ظاهر القرآن الكريم لأن الهم المذكور فى قوله : وهم بها ، معلق على عدم روية البرهان ، وقد رأى البرهان ، فلم يحصل الهم لوجود البرهان ، ولا شئ يعكره سوى أن جواب لولا تقدم ، وتقدمه جائز عند الكوفيين واثنان من أعلام البصرة هما أبو زيد الانصارى وأبو العباس المبرد ، وممنوع عند الباقى من البصريين ولكنهم أوجبوا أن يقدر من جنس ما قبله ، وليس قبل قوله " لولا أن رأى برهان ربه " شئ يمكن أن يقدر منه الجواب بدون تكلف واختراع الا قوله " وهم بها " وإذا قدرناه كذلك كان التركيب كالآتى : لولا أن رأى برهان ربه ، هم بها ، ولكنه رأى برهان ربه ، فلم يهم بها •

هذه مذاهب النحاة قد تضافرت على هذا المعنى الذى يفهم منه أن يوسف عليه السلام لم يحصل منه هم بامرأة العزيز كما قرر ذلك أبو حيان فى البحر المحيط • ويؤيد هذا أن للآية نظائر فى القرآن الكريم قدم فيها جواب " لولا " أو جواب الشرط ، ولا نزاع فى تقديره من جنس ما قبله كما قررنا فى آية : لولا أن رأى برهان

ربه على مذهب البصريين ، أو يكون الجواب متقدم على مذهب الكوفيين ، منها قوله تعالى (ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها) ، ومنها قولـــه تعالى (فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) . فهاتان الآيتان على رأى الكوفيين جواب الشرط ، ولولا : فيهما متقدم وهو فى الأولى لكادت تبدى به لولا أن ربطنا على قلبها ، وفى الثانية فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين .

وأما على رأى البصريين فجواب الشرطى مقدر تقديره : ان كنتم مسلمين فعليه توكلوا ، وجواب " لولا " ، تقديره : لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدى به ، فهذا لا اشكال فيه وهو مجمع عليه بين أهل التفسير ، وهو عين ماذكر فى قوله تعالى : (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) كما تقدم ذلك قريبا موضحا .

وأما القول الثانى : وهو تفسيرالهم بأنه خاطر قلبى صرف عنه وازع التقوى أو الميل الطبيعى الذى لا يتعلق به التكليف كميل الصائم الى المـــاء القراح مع أن تقواه تمنعه من الشرب فى نهار رمضان وهو صائم ، فهذا يؤيده قوله تعالى (ولقد راودته عن نفسه ، فاستعصم) وقوله (رب السجن أحـــب الى مما يدعوننى اليه) وقوله (معاذ الله انه ربى أحسن مثواى انه لا يفلـــح الظالمـــون) .

وقد اختار هذين التفسيرين المحققون من المتقدمين ، والمتأخريـــن . أما من المتقدمين ، أبو حيان فى البحر المحيط قائلا مانصه : (والذى اختاره أن يوسف عليه السلام لم يحصل منه هم بها ألبتة ، بل هو منفى لوجود رؤيـــة البرهان كما تقول : لقد قاربت لولا أن عصمك الله (قال) ولا نقول : ان جواب " لولا " متقدم عليها ، وان كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك بل صريـــح أدواه الشرط العاملة مختلف فى جواز تقديم أجوبتها عليها . وقد ذهب الـــى ذلك الكوفيون ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصارى وأبو العباس المبرد .

بل نقول : ان جواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه كما يقول : جمهور البصريين في قول العرب : أنت ظالم ان فعلت ، فيقدرونه : ان فعلت ، فأنت ظالم . ولا يدل قوله : أنت ظالم ان فعلت ، على ثبوت الظلم ، بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل ، وكذلك هنا ، التقدير لولا أن رأى برهان ربه ، لهم بها فكان وجود الهم على تقدير انتفاء رؤية البرهان ، لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهم .

(ثم قال) : ولا التفات الى قول الزجاج : ولو كان الكلام : "ولهم بها" كان بعيدا ، فكيف مع سقوط اللام ؟ لأنه يوهم أن قوله : " هم بها " هو جواب " لولا " ونحن لم نقل بذلك وانما هو دليل الجواب وعلى تقدير أن يكون نفس الجواب ، فاللام ليست بلازمة لجواز أن يأتي جواب " لولا " اذا كان بصيغة الماضي باللام . وبغير لام تقول : لولا زيد لأكرمتك . ولولا زيد أكرمتك . فمن ذهب الى أن قوله " هم بها " نفس الجواب لم يبعد ، ولا التفات لقول ابن عطية : ان قول من قال : ان الكلام قد تم في قوله : " ولقد همت به " وان جواب - " لولا " في قوله : " وهم بها " وان المعنى ، لولا أن رأى برهان ربه لهم بها فلم يهم يوسف عليه السلام ، قال : وهذا قول يرده لسان العرب ، وأقوال السلف هـ .

(قال أبوحيان) : أما قوله يرده لسان العرب فليس كما ذكر . وقد استدل من ذهب الى جواز ذلك بوجوده في لسان العرب ، قال الله تعالى " ان كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من الموقنين " فقوله " ان كادت لتبدي به " اما أن يتخرج على أنه الجواب على ما ذهب اليه ذلك القائل ، واما أن يتخرج على ما ذهبنا اليه من أنه دليل الجواب والتقدير : لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به . (قال) :

وأما قول السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك ، لأنها

أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضا مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين فضلا عن المقطوع لهم بالعصمة ، والذى روى عن السلف لايساعد عليه كلام العرب ، لأنهم قدروا جواب " لولا " محذوفا ، ولا يدل عليه دليل ، لأنهم لم يقدروا : " لهم بها " ولا يدل كلام العرب الا على أن يكون المحذوف من معنى ماقبل الشرط لأن ماقبل الشرط دليل عليه انتهى محل الغرض منه) (١)

وأما من المتأخرين فقد اختاره شيخنا علامة زمانه رحمه الله تعالى فى كتابه " أضواء البيان فى ايضاح القرآن بالقرآن " قال ما نصه :

وقد قدمنا أن هذا القول هو أجرى الأقوال على لغة العرب ، وان زعم بعض العلماء خلاف ذلك . فبهذين الجوابين (يعنى القول : بأنه لم يقع هم أصلا ، أو هم ، ولكنه خاطر قلبى صرف عنه وازع التقوى) ، تعلم أن يوسف عليه السلام برىء من الوقوع فيما لا ينبغى ، وأنه اما أن يكون لم يقع منه هم أصلا بناء على أن الهم معلق بأداة الامتناع التى هى " لولا " على انتفاء رؤية البرهان وقد رأى البرهان ، فانتفى المعلق عليه وانتفاؤه ينتفى المعلق الذى هو همه بها كما تقدم ايضاحه فى كلام أبى حيان ، واما أن يكون همه خاطرا قلبيا صرف عنه وازع التقوى ، وهو الشهوة ، والميل الغريزى المزموم بالتقوى كما أوضحناه .

فبهذا يتضح لك أن قوله : " وهم " لا يعارض ما قدمنا من الآيات الدالة على براءة يوسف من الوقوع فيما لا ينبغى . انتهى منه (١) قلت :

أما القول بأنه هم مثل ما همت امرأة العزيز ، وأن جواب " لولا " ، " لخالطها " فقد قال به الزمخشرى فى كشافه ، وقد برهن على ذلك بأن الهم لا يتعلق بالذوات ، بل بالمعانى واذا كان كذلك فلابد من تعليقه بالمخالطة فقال ما نصه :

---

(١) أضواء البيان ، المصدر السابق ، ج (٣) ص ٥٥

" ولقد همت به " معناه : ولقد همت بمخالطته، " وهم بها " وهم بمخالطتها " لولا أن رأى برهان ربه " جوابه محذوف تقديره : لولا أن رأى برهان ربه لخالطها فحذف ، لأن قوله " وهم بها " يدل عليه ، كقولك همت بقتله لولا أني خفت الله . معناه : لولا أني خفت الله .(١) (هكذا قال)

فان قلت : كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد اليها ؟ قلت : المراد أن نفسه مالت الى المخالطة ونازعت اليها عن شهوة الشباب وقرمه (٢) ميلا يشبه الهم به والقصد اليه ، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم ، وهو يكسرها به ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى : هما لشدته لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع لأن استعظام الصبر على الابتلاء ، على حسب عظم الابتلاء وشدته ، ولو كان همه كهمها عن عزيمة لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين ، الى أن قال :

فان قلت ، قوله (وهم بها) داخل تحت حكم القسم في قوله (ولقد همت به) أم هو خارج منه ؟ قلت : الأمران جائزان ، (الى أن قال) : فان قلت:

لم جعلت جواب " لولا " محذوفا يدل عليه هم بها ، وهلا جعلته هو الجواب مقدما ؟ قلت : لأن لولا " لا يتقدم عليها جوابها ، من قبل أنه في حكم الشرط وللشرط صدر الكلام وهو مع ما في حيزه من الجملتين مثل كلمة واحدة ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض ، وأما حذف بعضها اذا دل الدليل عليه فجائز. فان قلت :

فلم جعلت "لولا " متعلقة بهم بها ، وحده ، ولم تجعلها متعلقة بجملة قوله

---

(١) لعل المراد " لولا أني خفت الله همت به "

(٢) قوله و " قرمه " أي شدة شهوته ، أفاده في الصحاح .

(ولقد همت به وهم بها) لأن الهم لا يتعلق بالجواهر ، ولكن بالمعانى فلابد من تقدير المخالطة ، والمخالطة لا تكون الا من اثنين معا فكأنه قيل : ولقد هما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما ؟ قلت نعم ما قلت ، ولكن الله سبحانه وتعالى قد جاء بالهمين على سبيل التفصيل حيث قال : (ولقد همت به وهم بها) فكان اغفاله ، الغاء له ، فوجب أن يكون التقدير : ولقد همت بمخالطته وهم بمخالطتها ، على أن المراد بالمخالطتين توصلها الى ما هو حظها من قضاء شهوتها منه ، وتوصله الى ما هو حظه من قضاء شهوته منها ، لولا أن رأى برهان ربه ، فترك التوصل الى حظه من الشهوة ، فلذلك كانت " لولا " ، حقيقة بأن تعلق بهم بها وحده انتهى منه بلفظه مع تجاوز قليل ، (١) قلت :

قد رأيت أنه قرر أولا أنه " هم بها " وثانيا أنه مال اليها ميلا يشبه الهم ، وثالثا أنه لم يهم بها ، لأنه قرر أن قوله تعالى (وهم بها) ، متعلق بلولا ، ولا يخلوا كلامه ، والحالة هذه من تناقض ، وذلك لأنه : اذا تعلق همه " بلولا " بأن كان جوابا لها ، وهى حرف امتناع لوجود ، والامتناع هنا معلق على وجود البرهان ، وقد وجد البرهان فامتنع الهم ، لوجود البرهان ، كان هذا دالا على أنه لم يحصل منه هم ، أصلا ولا ما يشبهه ، وهو الأمر الذى عليه المحققون من المتقدمين والمتأخرين كما قدمناه قريبا . والعلم عند الله تعالى . وبهذا نكون قد انتهينا من الكلام على الشبهة الأولى .

وأما باقى الشبهات فسنكتفى فى الرد عليها بما ذكره الرازى رحمه الله تعالى مع موجز قليل زيادة فى الايضاح والبيان ، وذلك لأنها غير واردة فى أغلبها ، والوارد منها مع قلته يتضح توجيهه بعد أدنى تأمل .

---

(١) الكشاف ، المصدر السابق ، ج (٢) ص ٣٥ ـ ٣٦

الشبهـــة الثانيـــة

قالوا : كيف صبر على الرق ولم يبين الحرية ، وذلك معصية ؟ والجواب من وجـــوه :

الأول :فلعله لم يكن نبيا فى ذلك الوقت ، ولما خاف على نفسه القتل جاز له أن يصبر على الرق ، ومن ذهب الى هذا الوجه حمل قوله تعالى (وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا) على وقت آخر .

الثاني :أنه يمكن جواز ذلك فى شريعته امتحانا له .

الثالث: يحتمل أنه أخبرهم بذلك ولم يلتفتوا اليه .

قلت : وحاصل الجواب عن هذه الشبهة انه ليس يلزم فى شرعه ما يلزم فـــى شرعنا على كل حال ، وانما فى العقائد ونحوها .

الشبهة الثالثة

في قوله : (وما أبرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء) وجوابه أنه أراد الدعاء ، والمنازعة ، ولم يرد المعصية وهو لا يبرئ نفسه عما لا يقوى عنه طباع البشر هـ . (قلت :

(ومعنى هذا الكلام عند قائله أن يوسف لا يبرئ نفسه من كونها دعته الى ذلك الفعل ونازعته اليه ، ووجهه أن ذلك شيء جبلت عليه طبائع البشر فلم يكن ليوسف أن ينفيه عن نفسه لانه بشر كالبشرية من حيث ان الكل مركوز فيه الميل الطبيعي) .

وأجيب من وجه آخر أن قوله تعالى (وما أبرئ نفسي) الى آخر الآية من كلام امرأة العزيز لانه متصل بقولها : (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء) الآية . وأنه ليس من كلام يوسف عليه السلام ، وعليه فلا ورود لشبهتهم المزعومة ، وأنه ليس في القرآن ما يدل على أنه من كلام يوسف عليه ، ولو كان من كلامه لاحتيج الى حذف كثير لا يجوز مثله في القرآن ولا في الشعر . ولو جعلنا ذلك من قول يوسف عليه السلام لم يوجب ذلك الحاق الفاحشة به بل هو أول دليل على براءة ساحته ، وذلك لانه قال (ليعلم أني لم أخنه بالغيب) ولا خيانة أعظم من الهم بامرأته ، والمقصود منها مقعد الرجل من امرأته .

الشبهـــة الرابعـــة

أنهم سجنـوا يوسف عليه السلام وذلك معصية بالاتفاق ، وأنه عليه السلام قال : (رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه) فيدل ذلك على محبته لتلـــك المعصية • ومحبتها معصية •

والجواب من وجهيـــن :

أولهما : أنه أراد بالأحب : الأخف والأسهل فهذا كمن يخير بين شيئين مكروهين جدا فيختار أيسرهما وأدناهما كراهية •

وثانيهما : أن توطين النفس على تحمل مشقة السجن أحب الى من مواقعتى المعصيـــة ، فأما قوله : (والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهليـــن) فهو تصريح بأن شيئا من الطاعات لا يتم الا بمعونة الله تعالى ولطفه •

الشبهـــة الخامســـة

كيف يجوز على يوسف عليه السلام مع نبوته أن يعول على غير الله فـــى الخلاص من السجن فى قوله للذى كان معه (اذكرنى عند ربك) (يعنى ملك مصر) .

والجواب أن الدنيا دار الأسباب ، فالتمسك بالأسباب لا ينافى حقيقة التوكـــل .

الشبهة السادسة

ما الحكمة فى طلب أخيه من اخوته ثم حبسه عن الرجوع الى أبيه مع علمه بما يلحق أباه من الحزن ؟ وهل هذا الا ضرر بأبيه ؟

(والجواب) : انه انما فعل ذلك بوحى من الله تعالى اليه زيادة فى امتحان يعقوب عليه السلام .

الشبهة السابعة

ما معنى جعل السقاية فى رحل أخيه ؟

(الجواب) أما جعل السقاية فى رحل أخيه فالغرض منه التسبب الى احتباس أخيه عنده . ويجوز أن يكون ذلك بأمر من الله تعالى .

وروى أنه أعلم أخاه بذلك ليجعله طريقا الى التمسك به . وعلى هذا الوجه لا يكون ذلك سببا لادخال الغم فى قلب أخيه .

قلت : والقرآن الكريم صريح فى أنه أراد بذلك التوصل الى أخذ أخيه وذلك فى قوله تعالى : (كذلك كدنا ليوسف ماكان ليأخذ أخاه فى دين الملك الا أن يشاء الله) الآية ، وهو واضح فى أن يوسف عليه السلام يسير على ضوء وحى الله وتعاليمه) هـ . والعلم عند الله تعالى .

الشبهـــة الثامنـــــة

ما بال يوسف عليه السلام لم يعلم أباه خبره حتى تسكن نفسه ، ويزول حزنه ؟

والجواب : لعله امتنع عنه بأمر الله تشديدا على يعقوب عليه الســـلام.

الشبهة التاسعة

قال الله تعالى : (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا) وكيف رضى باستخدام الأبوين ؟

(والجواب) : أنهم خروا لأجله . فان قلت : هذا التأويل يفسده قوله تعالى : (يأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا)

قلت : لا نسلم ، فان تأويل رؤياه : بلوغه أشرف المنازل ، فلما رأى أبويه على أشرف الحالات فى الدارين كان ذلك ، مصدقا لرؤياه المتقدمة .

الشبهـــة العاشـــرة

ما معنى قوله تعالى حكاية عنه (من بعد أن نزغ الشيطان بينـــى وبين أخوتى) .

(وجوابه) : أن النزغ الشيطانى ، كان منهم اليه لا منه اليهـــم ، وهو كقول القائل : كان بينى وبين فلان شر وان كان من أحدهما دون الثانى .

الشبهة الحادية عشرة

ما معنى قوله عليه السلام : (اجعلنى على خزائن الأرض) وكيف يجوز أن يطلب الولاية من قبل الظالم ؟

(وجوابه) : (أنه) انما التمس بتمكينه من خزائن الأرض ليحكم فيها بالعدل ، لانه بسبب نبوته كان مستحقا لذلك وللمستحق أن يتوصل الى حقه بأى طريق كان . (١)

---

(١) الرازى ، المصدر السابق ، "عصمة الانبياء" ج (١) ص ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢

فائـــــــــــدة

قال الفخر الرازى فى تفسيره الكبير عند قوله تعالى (ولقد همت بـــه وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) مانصه :

أما الذين لهم تعلق بتلك الـواقعة فهم : يوسف ، وامـــرأة العزيز وزوجها ، والنسوة ، والشهود .

أماحزم يوسف بأنه برئ من تلك المعصية فذكره الله تعالى فى قوله : (هى راودتنى عن نفسى) وقوله (رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه) الآيـــة .

وأما اعتراف زوج المرأة ففى قوله (قال انه من كيدكن ان كيدكـــن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين) .

وأما اعتراف الشهود بذلك ففى قوله (وشهد شاهد من أهلهـــا ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وان كان قميصه قد مـن دبر فكذبت وهو من الصادقين) .

وأما شهادة الله جل وعلا ببراءة يوسف ، ففى قوله : (كذلك لنصـرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين) . قال :

قد شهد الله تعالى ببراءته فى هذه أربع مرات :

أولها : (لنصرف عنه السوء) واللام للتأكيد ، والمبالغة .

وثانيها: قوله : (والفحشاء) أى وكذلك لنصرف عنه الفحشاء .

وثالثها: قوله : (من عبادنا المخلصين) وفيه قراءتان :قراءة باسم الفاعـــل وأخرى باسم المفعول .

فورود ه باسم الفاعل يدل على كونه آتيا بالطاعات ، والقربات مع صفة الاخلاص. وورود ه باسم المفعول يدل على أن الله تعالى ، استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته .

وعلى كلا الوجهين فانه من أدل الالفاظ على كونه منزها عما أضافوه اليه الى أن قال :

وعند هذا نقول : هؤلاء الجهال الذين نسبوا الى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة ان كانوا من أتباع دين الله فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته ، وان كانوا من أتباع ابليس وجنوده فليقبلوا شهادة ابليس على طهارته في قوله : (فبعزتك لاغوينهم أجمعين . الا عبادك منهم المخلصين) .

قال : ولعلهم يقولون : كنا في أول الامر تلامذة ابليس ، الى أن تخرجنا عليه فزدنا في السفاهة عليه ، كما قال الخوارزمي :

وكنت امرأ من جند ابليس فارتقى * بي الدهر حتى صار ابليس من جندي
فلو مات قبلي كنت أحسن بعده * طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

قال : فثبت بهذه الدلائل أن يوسف عليه السلام بريء مما يقول هؤلاء الجهال . (١) انتهى كلام الرازي .

قال شيخنا رحمه الله تعالى : ولا يخفى ما فيه من قلة الأدب مع من قال تلك المقالة من الصحابة وعلماء السلف الصالح . وعذر الرازي في ذلك هو اعتقاده أن ذلك لم يثبت عن أحد من السلف الصالح .

---

(١)

قلت : وبعد ذكره لهذه الروايات المنسوبة للسلف الصالح من الصحابة والتابعين ، قال مانصه :

هذه الأقوال التي رأيت نسبتها الى هؤلاء العلماء ، منقسمة الى قسمين :

قسم لم يثبت نقله عمن نقل عنه بسند صحيح وهذا لا اشكال في سقوطه .

وقسم ثبت عن بعض من ذكره ومن ثبت عنه منهم شيء من ذلك ، فالظاهر الغالب على الظن ، المزاحم لليقين ، أنه انما تلقاه عن الاسرائيليات ، لأنه لامجال للرأي فيه ، ولم يرفع منه قليل ولا كثير اليه صلى الله عليه وسلم .

وبهذا تعلم أنه لا ينبغي التجرؤ على القول في نبي الله يوسف عليه السلام بأنه جلس بين رجلي كافرة أجنبية ، يريد أن يزني بها ، اعتمادا على مثل هذه الروايات . مع أن في الروايات المذكورة ما تلوح عليه لوائح الكذب ، كقصة الكف التي خرجت له أربع مرات ، وفي ثلاث منهن لا يبالي بها ، لأن ذلك على فرض صحته ، فيه أكبر زاجر لعوام الفساق . فما ظنك بخيار الأنبياء ! مع أنا قد منا دلالة القرآن على براءته من جهات متعددة ، وأوضحنا أن الحقيقة لا تتعدى أحد أمرين :

اما أن يكون لم يحصل منه هم أصلا بناء على أن لهم معلق على عدم رؤية البرهان ، وقد رؤى البرهان . واما أن يكون همه الميل الطبيعي المزموم بالتقوى) (١).

وقد تم الكلام هنا في نبي الله يوسف عليه السلام ويليه ان شاء الله الكلام فيما يتعلق بنبي الله يونس عليه السلام .

---

(١) أضواء البيان ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٦٠

الفصـــل الخامـــس

" فى الكلام على نبى الله يونس عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام "

والكلام فيه ينحصر فى ثلاث آيات من كتاب الله تعالى :

أولها : قوله تعالى فى سورة الأنبياء : (وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظـــن ألن نقدر عليه) الآية (١) الى قوله : (لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين) .

وثانيها : قوله تعالى (واصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم) (٢) . الآية .

وثالثها : قوله تعالى : (وان يونس لمن المرسلين . اذ أبق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم) الآية (٣) .

أما الآية الأولى فالكلام فى ثلاثة مواضع منها ، هى :

أولا : قوله " مغاضبا " .

ثانيا : قوله " فظن ألن نقدر عليه " .

ثالثا : قوله : " انى كنت من الظالمين " .

اذا عرفت ذلك فاعلم أن أهل التفسير اختلفوا فى مغاضبة يونس عليـــه السلام هـــذه .

فقال قوم بانه كان مغاضبا لقومه وسبب ذلك أنه طال عليه أمرهم ، وتعنتهم فذهب فارا بنفسه ولم يصبر على أذاهم ، وكأن ذنبه أنه فرّ من غير اذن من ربـــه عز وجل .

---

(١) سورة الأنبياء آيه :
(٢) سورة القلم آية :
(٣) سورة اليقطين الصافات آية :

وقال قوم انه كان مغاضبا لله أى لاجله كما تقول : غضبت لك أى من أجلك ، والمؤمن يغضب لله عز وجل اذا عصى .

وهناك قول ثالث انه كان فى خلقه ضيق ، وأن ربه أمره أن يذهب الى قومه لينذرهم ، فسأل أن ينظر ليتأهب فأعجله الله حتى سأل أن يأخذ نعلا ليلبسه فلم يعط ذلك ، بل قيل له : الأمر أعجل من ذلك فخرج مغاضبا لربه .

هذه المعانى التى ذكروها لمعنى هذه المغاضبة وأسبابها .

المبحث الثانى
" نسبة الأقوال "

أما القول الأول :

وهو كونه مغاضبا لقومه فقد قال به جماعة من أهل التفسير منهم القرطبى وقال : (انه روى عن ابن عباس ، والضحاك (١)

وأما القول الثانى :

وهو كونه مغاضبا لربه أى لأجله وهو لا ينافى ما قبله فقد قال به (الشعبى والحسن وسعيد بن جبير ، واختاره الطبرى والقعنبى ،واستحسنه المهدوى .

وروى عن ابن مسعود . قال النحاس : وربما أنكر هذا القول من لا يعرف اللغة وهو قول صحيح . والمعنى مغاضبا من أجل ربه كما تقول : غضبت لك أى من أجلك (قال) : والمؤمن يغضب لله عز وجل اذا عصى) انتهى محل الغرض منه (٢) .

---

(١) القرطبى المصدر السابق جـ ١١ ص ٣٢٨
(٢) القرطبى ، نفس المصدر يتصرف ، جـ ١١ ص ٣٢٩

وأما القول الثالث :

وهو أنه مغاضبا ربه فقد عزاه القرطبي للحسن .

قلت : والظاهر أنه لا يثبت . وقيل ان يونس عليه السلام (لم يغاضب ربه ولا قومه ، وأن المفاعلة قد تأتي من الواحد ، والمعنى على هذا أنه لما وعد قومه بالعذاب وخرج عنهم ، تابوا وكشف عنهم العذاب ، فلما رجع وظن أنهم لم يهلكوا ،أنف من ذلك فخرج آبقا) قال أبوحيان : (وهو من المفاعلة التي لا تقتضي اشتراكا نحو عاقبت اللص وسافرت).

واعلم أن القول المنسوب للحسن وابن جبير في رسالتي هذه ، وهو أن يونس مغاضبا لربه ، أي لأجله ، تأويل من أهل العلم لقولهم كأبي حيان في البحر والقرظبي وغيرهما . الا أن قول الحسن يأبى ذلك لأنه وجه سبب المغاضبة بأنه عدم الاذن من الله جل وعلا ليونس عليه السلام .

المبحث الثالث

" ماظهر رجحانه "

قلت : أما الذي ظهر لي رجحانه بالدليل العقلي والشرعي معا هو أن المغاضبة كانت لقوم يونس وأنها لله ، أي لأجله ، لأن سببها هو كفرهم بالله وعدم تصديقهم لنبيه ،لأن رسل الله لا يغضبون لأنفسهم وانما يغضبون لله ، والدليل على ذلك أن يونس عليه السلام في الوقت الذي ذهب فيه عن قومه مغاضبا لهم وصفه الله جل وعلا بأنه رسوله وأكد ذلك " بان " التي هي توكيد وبلام التوكيد ، وما كان الله ليقابل غضب عبده عليه بوصفه بأنه رسوله ، ومعلوم أن الرسالة هي أعظم المناصب . قال الله تعالى (وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون) وقوله اذ أبق هو عين قوله تعالى (وذا النون اذ ذهب مغاضبا) ودليلي أيضا أن هذا القول هو الذي حققه أهل التفسير قاطبة .

وأما القول بأنه غاضب ربه فهو باطل بلا شك لأن النبي ،لا يمكن أن يغاضب ربه ، وانما مقامهم التواضع والخوف والرجاء . والله تعالى أعلم .

وأما الموضع الثاني من الآية الاولى وهو قوله تعالى (فظن ألن نقدر عليه) فله معنيان صحيحان لا ينافي أحدهما الآخر .

أحدهما : أن معناه ،التضييق أي فظن ألن نقدر عليه أي ألن نضيق عليه . وهذا القول يشهد له القرآن الكريم لأن من اطلاق " قدر " بمعنى ضيق في القرآن ، قوله تعالى : (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أي ويضيقه على من يشاء ، وقوله تعالى (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) أي ومن ضيق عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله .

وثانيهما : أنه بمعنى القضاء والقدر أي فظن يونس ألن يقضي الله عليه بذلك التضييق في بطن الحوت . و " قدر " بالتخفيف تأتي بمعنى " قدر " المضعفة ، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى : (فالتقى الماء على أمر قد قدر " أي على أمر قد قضي وقدر . ومنه قول الشاعر وأنشده ثعلبة شاهدا لذلك :

فليست عشيات الحمى برواجع * لنا أبدا ما أورق السلم النضر
ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى * تباركت ما تقدر يقع لك والشكر

قلت : وفي مختار (١) الصحاح : " القدر " و " القدر " ما يقدره الله من القضاء هـ . (والعرب تقول : قدر الله لك الخير يقدره قدرا ، كضرب يضرب ضربا ونصر ينصر نصرا بمعنى قدره لك تقديرا . ومنه على أصح القولين " ليلة القدر " لأن الله جل وعلا يقدر فيها الأشياء ، كما قال تعالى " فيها يفرق كل أمر حكيم " والقدر بالفتح ، والقدر بالسكون : ما يقدره الله من القضاء ، ومنه قول هدبة ابن الحشرم :

---

(١) مختار الصحاح المصدر السابق .

ألا يا لقومي للنوائب والقدر * وللأمر يأتي المرء من حيث لا يدري)

قاله شيخنا (١) العلامة في تفسيره لهذه الآية الكريمة وأما القول : بأن يونس عليه السلام ، ظن عدم قدرة الله عليه فلم أر من ذكره من كتب التفسير المعتمدة سوى ما أشار اليه البيضاوي من قوله في معنى الآية الكريمة فقال بعد ذكر القولين اللذين قدمتهما عاطفا عليهما : أو لن نعمل فيه قدرتنا .

(قال) (وقيل هو تمثيل لحاله بحال من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لأمرنا أو خطرة شيطانية سبقت الى وهمه فسميت ظنا للمبالغة)(٢) هـ .

وتابعه في ذلك صاحب الكشاف فقال : (والمخفف يصح أن يفسر بالقدر على معنى ، أن لن نعمل فيه قدرتنا ، وأن يكون من باب التمثيل بمعنى ، وكانت حاله ممثلة بحال من ظن ألن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لأمر الله .

(قال) : ويجوز أن يسبق ذلك الى وهمه بوسوسة الشيطان ثم يردعه ويرده بالبرهان كما يفعل المؤمن المحقق بنزغات الشيطان . وما يوسوس اليه في كل وقت .

(قال) : ومنه قوله تعالى (وتظنون بالله الظنونا) والخطاب للمؤمنين انتهى منه بلفظه) (٣) .

هذه هي المعاني التي ذكرها أهل اللغة وأهل التفسير لقوله : " فظن أن لن نقدر عليه " واليك عزوها الى القائلين بها .

---

(١) أضواء البيان المصدر السابق جـ ٤ ص ٧٤٦
(٢) البيضاوي . المصدر السابق ، ص ٤٤٥
(٣) الكشاف المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٥٨١

المبحث الثاني

في عزو الأقوال الى أصحابها

اعلم أن المعنيين الأول والثاني وهما أن معنى " نقدر " ، نضيق ، أو " نقضي " قال بهما أكثر المفسرين بناء منهم على أن الوضع اللغوي دال على ذلك ، وأنه المناسب لمقام النبوة ، ومنهم أبوحيان في البحر ، وأبو السعود ، والبيضاوي ، والزمخشري ، والقرطبي ، وصاحب أضواء البيان ، وابن كثير وغيرهم .

القول بأن معنى ، (نقدر) عليه من القدرة ضد العجز فقد عزاه صاحب فتح البيان (١) للحسن وسعيد بن جبير وقد قدمت لك الاشارة الى أن صاحب الكشاف والبيضاوي وأبي السعود رمزوا الى امكانه وأنه من باب الوسوسة التي يطردها المسلم بالبرهان .

المبحث الثالث

" الترجيح والاستظهار "

اذا عرفت هذا فاعلم أن الذي يدل الدليل على صحته وبطلان غيره هو أن معنى " نقدر " نضيق والدليل على ذلك أن " نقدر " لفظ مجمل دائر بين ثلاثة معان :

أولها : التضييق الذي هو ضد السعه .

وثانيها : القضاء والقدر .

وثالثها : القدرة التي هي ضد العجز .

واللفظ المجمل اذا دار بين ثلاثة معان لا مزية لأحدهما على الآخر وجب التوقف فيه حتى يأتي البيان . والبيان قد يكون نصا ، وقد يكون قرينة ظاهرة

(١)

لا يجوز العدول عنه الى المعنى الذى لم تصرف اليه قرينة تماثل تلك ، كما هو معروف فى مباحث الألفاظ عند الأصوليين .

اذا علمت ذلك فاعلم أنه دلت قرائن على أن المراد أن لن نضيق عليه :

أولها : نفس العقوبة التى عوقب بها يونس عليه السلام وهى التضييق عليه فى بطن الحوت . فكأن المعنى ، فظن يونس ألن نضيق عليه بهذا النوع من التضييق فضيقنا عليه به .

ثانيها : أنا لو حملناه على القدرة ضد العجز لترتب على ذلك جواز الكفر على الأنبياء وذلك محال ، لأن الأنبياء ، قوم اختارهم الله لتبليغ التوحيد ، والنهى عن الشرك ، وأمر باتباعهم فى كل ما جاءوا به فلو جاز منهم صدور الكفر لجاز تقليدهم فيه ، ولكنا مأمورين بالكفر اتباعا لهم ، وذلك محال ، لأن الله لا يأمر بالفحشاء ، ولا فحشاء أكبر من الكفر بالله ، وظن عجزه ؟ فلا بد لكل مؤمن من اليقين التام الذى لا يخالجه شك بأن الله قادر على كل شىء .

فان قلت : جائز أن يكون ذلك وقع من يونس عليه السلام قبل النبوة . قلت ذلك يرده قوله تعالى (وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين) الآية وذلك لأن " اذ " ظرف زمان لا يباقه وهذا الظرف أكد الله جل وعلا فيه " بان " ولام التوكيد أن يونس عليه السلام من المرسلين فى ذلك الوقت .

والآية أيضا دليل على أنه لم يخرج من دائرة الاسلام وأنه موصوف بالرسالة فى ذلك الوقت الموصوف فيه بالاباق . والرسالة هى أكبر مناصب النبوة ، لأنه لا خلاف بين العلماء أن النبى المرسل أعظم مهمة من النبى

الغير مرسل ، وأنا أستبعد كل الاستبعاد أن نبيا مرسلا يظن أن الله جل وعلا لا يقدر عليه بمعنى أنه يظن عدم قدرته عليه ثم يصفه الله بعد ذلك بأنه رسوله مؤكدا ذلك بأداتين من أدوات التوكيد . والعلم عند الله تعالى .

وأما قوله (انى كنت من الظالمين) فليس فيه مايدل على أنه فعل كبيرة ، وانما غايته أنه اعترف فى أثناء مناجاته ربه ودعائه اياه أنه من الظالمين لنفسه بذهابه ذلك عن قومه دون اذن من ربه تعالت قدرته ، لأن الظلم فى اللغة العربية هو وضع الشىء فى غير موضعه ومنه قول الشاعر :

الا الأوارى لأيا ما أبينها * والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد

والظاهر أن ظلم يونس هذا من هذا النوع لانه رأى أنه وضع نفسه فى غير مكانته اللائقة به حيث ذهب عن قومه دون اذن من ربه تعالى . وقد قدمنا الكلام على الظلم لغة وشرعا فى الكلام على قوله تعالى (فتكونا من الظالمين) فى سورة البقرة فى الفصل الذى خصصته لآدم عليه السلام . فراجعه هناك ان شئت .

وأما الآية الثانية وهى قوله تعالى (ولا تكن كصاحب الحوت) الآية ، فليس فيها ما يستوجب البحث زيادة على ما تقدم لأن خلاصته أن الله سبحانه ، لما رأى تعنت كفار مكة وعنادهم لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ورأى مشقة ذلك عليه - (كما دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله عز وجل مثل قوله تعالى (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) وقوله (فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين -) نهاه الله تعالى عن أن يدعوه تعنتهم وأذيتهم الى أن يقع فى مثل ما وقع فيه أخوه فى الرسالة والنبوة وفى تعنت قومه فى وجه دعوته فيقع فى ظلم نفسه كما حصل على يونس عليه السلام ، ولذلك امتثل رسول الله صلى الله عليه وسلم فصبر على أذى قومه ،

وبقى فى مكة المكرمة صابرا حتى أذن الله له فى الخروج .

فبان لك أن ذكر يونس هنا عليه السلام من باب العبرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليس شيئا جديدا زائدا على ما ذكر قبل فى سورة الانبياء . والعلم عند الله تعالى .

وأما الآية الثالثة وهى قوله تعالى : (وان يونس لمن المرسلين اذ ابق الى الفلك المشحون) الآية فهذه انما هى تنويع لأسلوب قصة يونس لأن قوله تعالى (اذ ذهب مغاضبا) بيان لقوله " اذ أبق " لأن الاباق هو عدم طاعة العبد لسيده ويدخل فيه ذهابه دون اذن منه ، وذلك هو المشار اليه فى قوله " اذ ذهب مغاضبا " أى مغاضبا قومه فذهب عنهم بنفسه بغير أمر من ربه . وذلك الغضب وان كان فى الله لكن الذهاب الذى ترتب عليه لما يكن بغير اذن الرب صار موجبا للوم والوصف بالاباق من قبل الله عز وجل تربية له ، وتنبيها على الطريق التى هى أقوم الطرق ، وايضاحا لمنهج الانبياء والرسل الذى يجب أن يسلكوه فى جميع تحركاتهم وسكناتهم .

وبهذا تعلم أن الآيات الثلاث المذكورة فى أول الفصل موضوعها واحد وهو الذهاب عن قومه دون الاذن له من ربه ، وبيان أنه اجتهد فى ذلك فأخطأ الأولى ، والأفضل ، وذلك لا يلزم منه كونه ، وقع فى المحظور ، لاحتمال كونه لم يوح اليه بعد بأنه لا يذهب الا بعد الاذن ، وكان الأمر على الاباحة الأصلية ، فاجتهد فى الخروج عن قومه لما أيس من ايمانهم ، ولم يبق الا نزول العذاب ، فأخطأ الصواب الأولى فعاتبه الله هذا العتاب الذى يبعث على التيقظ الدائم ، والانابة الى الله التى تكون سببا فى رفع الدرجات .

كما أن نبينا صلى الله عليه وسلم قد اجتهد فى بعض الأمور ولم يصب الأولى فيها ، فعاتبه الله جلت قدرته ، ولم يدل ذلك على أنه وقع فى محظور ، وانما

صوابه أن ينتظر الوحى أو يختار ، الأولى والأفضل ، والأمثلة على ذلك موجودة متوفرة منها :

أخذه للفداء من أسرى بدر فعاتبه الله بقوله (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) ومع هذا فلم يذكر أن هذا الذى أخذه حرام ، بل أذن الله فيه بقوله (فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) الآية.

ومنها : اذنه للمنافقين فى عدم الخروج الى غزوة تبوك المشار اليه بقوله (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) الآية . فالاذن للمنافقين وأخذ الفداء من الأسرى ، لا خلاف أنه اجتهاد من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتيه وحى فى ذلك لقطعنا أنه لو أوحى اليه فى ذلك بشىء لما تجاوزه ، وذهاب يونس عليه السلام عن قومه يجب حمله على أن يكون من هذا الباب . وعلى هذا فيكون وصفه بالاباق المراد به التشبيه لذهابه دون الأمر بذلك بفعل العبد الذى يذهب عن طاعة سيده . ويكون قوله تعالى (فالتقمه الحوت وهو مليم) أى آت بما يلام عليه وهو ذهابه مجتهدا قبل أن يأتيه اذن الرب جل وعلا .

والخلاصة : أنه دعاه الاستعجال الى مرضاة ربه والغضب لأجله أن يذهب عن قومه بعد طول تعنتهم مجتهدا فى ذلك فصادف غير الأولى والأفضل ، وكان الأولى والأفضل أن ينتظر الوحى ، فجاءه العتاب ، والامتحان على هذا الاستعجال والعلم عند الله تعالى .

واليك الشبهات التى أوردها الفخر الرازى عن أهل الحشو فى هذا النبى الكريم ، والرد عليها .

" الشبهات والرد عليها "

قال رحمه الله تعالى (تمسكوا بقوله تعالى (وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات ألا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين) الآية من ثلاثة أوجه :

الأول : أنه ذهب مغاضبا وذلك كان محظورا . ألا ترى أن الله تعالى قال : (واصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت) فذلك يقتضى أن ذلك الفعل من يونس عليه السلام ،كان محظورا .

الثاني : قوله (فظن ألن نقدر عليه) وذلك يقتضى كونه شاكا في قدرة الله تعالى .

الثالث: قوله (انى كنت من الظالمين) .

(قال رحمه الله تعالى) : الجواب عن الأول أن الآية دلت على أنه ذهب مغاضبا ولم تدل على أنه غاضب الله ، وكيف ومغاضبة الله تعالى ، لا تجوز على أحد من المسلمين ، فكيف على النبى عليه السلام ؟ فلعله انما خرج مغاضبا لقومه فلم قلتم ان ذلك معصية ؟ .

أما قوله : ولا تكن كصاحب "الحوت" فليس لأنه ثقلت عليه أعباء النبوة لضيق خلقه ، بل المراد أنه لم يقو على الصبر على تلك المحنة التى ابتلاه الله بها ولو صبر لكان أفضل فأراد الله تعالى بمحمد صلى الله عليه وسلم أفضل المنازل ، وأعلاها .

وعن الثانى أن الشك في قدرة الله تعالى كفر ولا نزاع أنه لا يجوز اتصاف الأنبياء به ، بل المراد ، أن لا نضيق الأمر عليه ، قال الله تعالى :

(ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) وقال : (وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه) أى ضيقه .

وعن الثالث (فالجواب عنه ما تقدم عن قصة آدم عليه السلام (١) . انتهى من كلام الرازى فى كتابه عصمة الانبياء بلفظه .

قلت : وهذه الاجابة الموجزة التى رد بها الرازى لا تنافى ما قدمته من بيانات أهل التفسير ولا ما رجحته بالأدلة العقلية والشرعية ، وليس فيه زيادة على ذلك وانما ذكرته تكميلا للفائدة ، وتأييدا لما ذكرته من التوجيهات المماثلة لكلامه أو قريبة منه والله تعالى التوفيق .

---

(١) الرازى المصدر السابق " عصمة الانبياء " ص ٦٠ - ٦١

الفصل السادس

(موسى عليه السلام)

فى الكلام على كليم الله (جل وعلا) موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، والكلام فيه حول آيتين من سورة الشعراء :

أولهما : قوله تعالى حكاية عن الجبار فرعون (قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين • وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين (١)•

والثانية : هى التى تليها فى المصحف الكريم ، وهى قوله تعالى : (قال فعلتها اذا وأنا من الضالين) (٢) •

اعلم أولا أن وجه الاشكال فى الآية الأولى هو كيف لم يكذب موسى فرعون فى قوله وأنت من الكافرين • والاشكال فى الآية الثانية هو قوله (وأنا من الضالين) أى كيف قال من الضالين ، وهو كليم الله ومن أولى العزم من الرسل ، والرسل معصومون ؟ •

وقبل الجواب عن هذين الاشكالين وتوجيه الآيتين توجيها يسلم معه جانب النبوة من الوقوع فيما لا ينبغى ، فلابد من الوقوف على معنى الكفر والضلال فى لغة العرب ، وفى القرآن الكريم الذى نزل بها ، وعندئذ ، يمكن توجيه الآيتين والاجابة عن الاشكالات الواردة عليهما • وهذا أوان الشروع فى ذلك •

" الكفر لغة "

اعلم رحمك الله أن الكفر فى اللغة أعم من الكفر الذى هو ضد الايمان ، لأنه

---

(١) سورة الشعراء آية ١٩
(٢) " " " ٢٠

يطلق ويراد به الجحود والتغطية والستر مطلقا • ومنه قول لبيد بن ربيعة :

يعلو طريقة متنه متواتـــر * في ليلة كفر النجوم غمامها

أى غطاها •

وقال صاحب التاج : قال الأزهرى : وأصل الكفر تغطية الشىء تغطية تستهلكه (ثم قال) : قال شيخنا : ثم شاع الكفر فى ستر النعمة خاصة ، وفـــى مقابلة الايمان ، لأن الكفر فيه ستر الحق ، وستر نعم فياض النعم •

(قال) : قلت : وفى المحكم الكفر ، كفر النعمة وهو نقيض الشكـــر ، والكفر جحود النعمة وهو ضد الشكر ، وقوله تعالى (إنا بكل كافرون) أى جاحدون ، قالوا الى أن قال : وكفر الشىء يكفره كفرا ستره ككفره تكفيرا ، والكافر الليل • وفى الصحاح الليل المظلم لأنه يستر بظلمته كل شىء ، وكفر الليل الشىء وكفر عليه غطاه وكفـــر الليل على أثر صاحبى ، غطاه بسواده •

ولقد استظرف البهاء زهير حيث قال :

لى فيك أجر مجاهـــــد * ان صح أن الليل كافـــر

والكافر البحر لستره ما فيه وقد فسر بهما قول ثعلبة بن صعيرة العازنى يصف الظليم والنعامة ورواحهما الى بيضهما عند غروب الشمس :

فتذكرا ثقلا رثيدا بعدما * ألقت ذكاء يمينها فى كافر

وذكاء اسم للشمس • وألقت يمينها فى كافر أى بدأت فى المغيب • قـــال الجوهرى ويحتمل أن يكون أراد الليل •

قلت : وقال بعضهم : عنى به البحر • وهكذا أنشده الجوهرى ، وقـال الصاغانى والرواية فتذكرتا على التأنيث والضمير للنعامة (الى أن قال) قلت وذكـر ابن السكيت أن لبيدا سرق هذا المعنى فقال :

حتى اذا ألقت يدا فى كافـر * وأجن عورات الثغور ظلامهـا

قال : ومن ذلك سمي الكافر ، كافرا ، لأنه ستر نعم الله تعالى) (١) انتهى محل الغرض منه بلفظه .

قلت : ومن هذا المعنى قول الله تعالى : (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) لأن الكفار هم الزراع ومعنى كونهم كفارا ، أنهم يحفرون للزرع ثم يسترونه ويغطونه في الأرض ، والله تعالى أعلم .

وبهذا يتبين لك أن الكفر يشمل الستر ، والتغطية ، والجحود . ونشرع الآن في بيان معنى الضلال في لغة العرب ، وفي القرآن الكريم .

" الضلال لغة "

اعلم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه أن للضلال في اللغة العربية ، وفي كتاب الله المنزل بها ، ثلاثة اطلاقات :

أولها : الضلال بمعنى الكفر المقابل للايمان .

وثانيها : الذهاب عن حقيقة الشيء .

وثالثها : الغيبوبة والاضمحلال .

هذه هي المعاني المشهورة ، وقد ورد في الندور مرادا به الحب .

قال ابن الكمال : الضلال : فقد ما يوصل الى المطلوب . وقيل : سلوك طريق لا يوصل الى المطلوب .

وقال الراغب : هو العدول عن الطريق المستقيم وتضاده الهداية ، قال تعالى (فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) .

---

(١) الزبيد ، محمد مرتضى تاج العروس ج ٣ ص ٥٣٥ . منشورات دار مكتبة الحياة بيروت - لبنان

ويقال : الضلال لكل عدول عن الحق عمدا كان أو سهوا يسيرا كان أو كثيرا الى أن قال : ولذا نسب الى الانبياء ، والى الكفار ، وان كان بين الضلالين بون بعيد ، ألا ترى أنه قال فى النبى صلى الله عليه وسلم (ووجدك ضالا فهدى) أى غير مهتد لما سيق اليك من النبوة ،وقال تعالى فى يعقوب عليه السلام حكاية عن أولاده (تالله انك لفى ضلالك القديم) ، وقال عنهم أيضا (ان أبانا لفى ضلال مبين) اشارة الى شغفه بيوسف وشوقه اليه ،وقال عن موسى عليه السلام (فعلتها اذا وأنا من الضالين) الآية ، تنبيها أن ذلك منه سهو .

وقال والضلال من وجه آخر ضربان :

ضلال فى العلوم النظرية كالضلال فى معرفة وحدانيته تعالى ومعرفة النبوة ونحوهما المشار اليهما بقوله تعالى (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) الآية .

وضلال فى العلوم العملية كالاحكام الشرعية التى هى العبادات ، الى أن قال :

وضل الشىء اذا (خفى وغاب) ومنه ضل الماء فى اللبن وهو مجاز ، ويقال : ضل الكافر اذا غاب عن الحجة ، وضل الناسى اذا غاب عنه حفظه ، وفى الحديث أن رجلا أوصى بنيه اذا مت فأحرقونى فاذا صرت حمما فاسحقونى ثم ذرونى لعلى أضل الله أى أغيب عن عذاب الله ، والضلال : النسيان ، ومنه قوله تعالى : (أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى) الآية ، الى أن قال : (وأضله دفنه) والشىء غيبه وهو مجاز ، قال المخبل :

أضلت بنو قيس بن سعد عميدها * وقارسها فى الدهر قيس بن عاصم

وقال النابغة يرثى النعمان بن الحارث الغسانى :

فان تحى لا أملك حياتى وان تمت * فما فى حياة بعد موتك طائل

فآب مضلوه بعين جليـــة * وغودر بالجولان حزم ونائل

أى رجع دافنوه حين مات ، وعين جليه أى خبر صادق أنه مات والجولان موضع بالشام أى يدفن النعمان ، دفن الحزم والعطاء) (١)

انتهى محل الغرض منه .

(المبحث الاول فى معانى الكفر والضلال محطة)

اذا عرفت هذا ، فاعلم أن المعانى التى ذكرها أهل العلم لقوله " وأنت من الكافرين " ثلاثة ، أشهرها : من الكافرين أى الجاحدين لنعمتنا عليك بالتربية ، ويليه من الكافرين بى أنى الهك ، وثالثها : من الكافرين لانك على ديننا الذى تعيبه الآن ، وبذلك يذهب الاشكال .

وأما قوله " وأنا من الضالين " فالصحيح فيه أن معناه من الضالين عن العلوم والاسرار التى لا تعلم الا عن طريق الوحى لان الله جل وعلا ، لم يوح الى فى ذلك شيئا ، ولم أكن نبيا ولا رسولا اذ ذاك . ويحتمل أن قوله من الضالين أى الناسين ، وقيل من الضالين عن كون الوكزة تأتى عليه فتقتله وكلها بمعنى الذهاب عن الشىء .

هذه هى المعانى للآيتين التى ذكرها أهل التفسير أو معظمهم ، واليك نسبتها الى بعض القائلين بها .

قال فى زاد المسير ما نصه : وفى قوله ، وأنت من الكافرين قولان : احدهما من الكافرين لنعمتى قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك وابن زيد . والثانى من الكافرين بالهك كنت معنا على ديننا الذى تعيب ، قاله الحسن والسدى ، فعلى الاول وأنت من الكافرين الآن ، وعلى الثانى وكنت هـ قال : وفى قوله : (وأنا من الضالين) ثلاثة أقوال :

---

(١) تاج العروس المصدر الآنف الذكر ج ٧ ص ٤١٠ - ٤١١

أحدها : من الجاهلين قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة . وقال بعض المفسرين : المعنى ، انى كنت جاهلا لم يأتنى من الله شيء .

والثاني : من المخطئين والمعنى انى قتلت النفس خطأ قاله ابن زيد .

والثالث: من الناسين ومثله : (أن تضل احداهما) قاله أبو عبيدة (١) هـ انتهى منه بلفظه .

وقال ابن كثير ما نصه : (وجحدت نعمتنا عليك ولهذا قال وأنت من الكافرين أى الجاحدين قاله ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير هـ قال فعلتها اذا أى فى تلك الحال وأنا من الضالين أى قبل أن يوحى الى وينعم الله على بالرسالة والنبوة قاله ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم : وأنا من الضالين أى الجاهلين ، قال ابن جريج : وهو كذلك فى قراءة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (٢) . انتهى محل الغرض منه .

قلت : وبهذا تعلم أنه لا يجوز لأحد كائنا من كان أن ينسب لموسى عليه السلام أنه كان من الكافرين بمعنى الكفر المقابل للايمان ، لأن الصحيح الذى لا يجوز العدول عنه أنه من الكافرين لنعمة فرعون ، أى الجاحدين لها ، وكذلك لا يجوز لأحد أن يقول : ان موسى من الضالين بمعنى الضلال المقابل للايمان ، لأن أصح ما قيل فى ذلك أن هذا الضلال الذى نسبه موسى لنفسه حين قتله القبطى معناه : الذهاب عن العلوم والأسرار التى لا تعلم الا عن طريق الوحى ، كما سأبين ذلك ان شاء الله فى بحث الترجيح بالأدلة الواضحة على ذلك .

---

(١) ابن الجوزى عبد الرحمن بن الجوزى زاد المسير فى علم التفسير الطبعة الأولى دمشق الحلبونى ، جـ ٦ ص ١١٨ ـ ١١٩ الناشر : المكتب الاسلامى

(٢) ابن كثير المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ . مكتبة النهضة الحديثة القاهرة الطبعة الأولى سنة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥ م

وأصح ما رأيت فى ذلك وأجمعه هو ما كتبه شيخنا العلامة رحمه الله تعالى فى كتابه " أضواء البيان فى ايضاح القرآن بالقرآن " قال رحمه الله تعالى ما نصه :

(وأظهر الأقوال عندى فى معنى قوله وأنت من الكافرين : أن المراد به كفر النعمة يعنى أنعمنا عليك بتربيتنا اياك صغيرا واحساننا اليك تتقلب فى نعمتنا ، فكفرت نعمتنا ، وقابلت احساننا بالاساءة لقتلك نفسا منا ، وباقى الأقوال تركناه لأن هذا أظهرها عندنا . (الى أن قال) فى قوله تعالى (فعلتها اذا وأنا من الضالين) الآية أى قال موسى مجيبا لفرعون : فعلتها اذا : أى اذ فعلتها وأنا فى ذلك الحين من الضالين : أى قبل أن يوحى الله الى ، ويبعثنى رسولا ، وهذا هو التحقيق ان شاء الله فى معنى الآية .

وقول من قال من أهل العلم : وأنا من الضالين أى من الجاهلين ، راجع الى ما ذكرنا ، لأنه بالنسبة الى ما علمه الله من الوحى يعتبر قبله جاهلا : أى غير عالم بما أوحى الله اليه .

وقد بينا مرارا فى هذا الكتاب المبارك أن لفظ الضلال يطلق فى القرآن وفى اللغة العربية ثلاثة اطلاقات :

<u>الاطلاق الأول</u> : يطلق الضلال مرادا به الذهاب عن حقيقة الشىء ، فتقول العرب فى كل من ذهب عن علم حقيقة شىء ضل عنه ، وهذا الضلال ذهاب عن علم شىء ما ، وليس من الضلال فى الدين .

ومن هذا المعنى قوله هنا : وأنا من الضالين : أى من الذاهبين عن علم حقيقة العلوم والأسرار التى لا تعلم الا عن طريق الوحى ، لأنى فى ذلك الوقت لم يوح الى ، ومنه على التحقيق (ووجدك ضالا فهدى) أى ذاهبا عما علمك من العلوم التى لا تدرك الا بالوحى .

ومن هذا المعنى قوله تعالى : (قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) فقوله (لا يضل ربى) أى لا يذهب عنه علم شىء كائنا ما كان .

وقوله تعالى (فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما) : أى تذهب عن علم حقيقة المشهود به بدليل قوله بعده : فتذكر احداهما الأخرى .

وقوله تعالى عن أولاد يعقوب (ان أبانا لفى ضلال مبين) .

وقوله (قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم) على التحقيق فى ذلك كله .

ومن هذا المعنى قول الشاعر :

وتظن سلمى أننى أبغى بهـا * بدلا أراها فى الضلال تهيم

والاطلاق الثانى : وهو المشهور فى اللغة ، وفى القرآن الكريم ، هو اطلاق الضلال على الذهاب عن طريق الايمان الى الكفر ، وعن طريق الحق الى الباطل ، وعن طريق الجنة الى النار ، ومنه قوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

والاطلاق الثالث : هو اطلاق الضلال على الغيبوبة والاضمحلال ، تقول العرب ضل الشىء اذا غاب واضمحل ، ومنه قولهم : ضل السمن فى الطعام ، اذا غاب فيه ، واضمحل ، ولأجل هذا سمت العرب الدفن فى الأرض اضلالا ، لأن المدفون تأكله الأرض فيغيب فيها ويضمحل .

ومن هذا المعنى قوله تعالى (وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض) الآية ، يعنون : اذا دفنوا وأكلتهم الأرض ، فضلوا فيها : أى غابوا فيها واضمحلوا .

ومن اطلاقهم الاضلال على الدفن ، قول نابغة ذبيان يرثى النعمان ابن الحارث ابن أبى شمر الغسانى :

فان تحى لا أملك حياتى وان تمت * فما فى حياة بعد موتك طائل
فآب مضلوه بعين جلية * وغودر بالجولان حزم ونائل

وقول المخبل السعدى يرثى قيس بن عاصم :

أضلت بنو قيس بن سعد عميدها * وفارسها فى الدهر قيس بن عاصم

فقول الذبيانى : فآب مضلوه : يعنى فرجع دافنوه ، وقول السعدى : أضلت : أى دفنت .

ومن اطلاق الضلال أيضا على الغيبة والاضمحلال قول الأخطل :

كنت القذى فى موج أكدر مزبد * قذف الاتى به فضل ضلالا

وقول الآخر :

ألم تسأل فتخبرك الديار * عن الحى المضلل أين ساروا

وزعم بعض أهل العلم : أن للضلال اطلاقا رابعا : قال : ويطلق أيضا على المحبة قال : ومنه قوله (قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم) أى فى حبك القديم ليوسف . قال : ومنه قول الشاعر :

هذا الضلال أشاب منى المفرقا * والعارضين ولم أكن متحققا
عجبا لعزة فى اختيار قطيعتى * بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

وزعم أيضا أن منه قوله (ووجدك ضالا) قال : أى محبا للهداية فهداك ، ولا يخفى سقوط هذا القول والعلم عند الله تعالى) (١) انتهى منه بلفظه .

قلت : وحاصل ما ذكره أنه رجح كون المراد بقوله : (وأنت من الكافرين) كفر النعمة ، وعلى أنه المراد فلا اشكال فيه ، لأن موسى عليه السلام ، لا يهمه

---

(١) أضواء البيان المصدر السابق جـ ٦ ص ٣٧١ - ٣٧٢ - ٣٧٣

أن كان جاحدا لنعمة فرعون عليه وقد بين أن تلك النعمة بجانب تعبيده لبنى اسرائيل ، وقتله أبناءهم واستحيائه لنسائهم لا تعد نعمة ، وانما هى نقمة لا تستحق الشكر . وقد أشار موسى عليه السلام الى ذلك بقوله (وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل) ، فكأن موسى عليه السلام ، لما قال له فرعون " وأنت من الكافرين ، بعد قوله : " ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين " رد عليه قائلا : نعم هو كما قلت أنا من الكافرين لنعمتك ، لانك لاسأتك على أهلى وقومى الذين كنت تذبح أبناءهم وتستحى نساءهم ، وأنا فرد واحد منهم ، فنعمتك هذه التى تمن بها على نعمة مكفورة ، أى مجحودة ، ومردودة ، لانها غير واقعة موقعها !

ان الصنيعة لا تعد صنيعة * حتى يصاب بها طريق المصنع

ثم أفاد بوضوح تام أن معنى قوله (فعلتها اذا وأنا من الضالين) أى من الذاهبين عن حقيقة العلوم والأسرار التى لا تعلم الا عن طريق الوحى ، ومن جملة ذلك المجهول له ، تحريم قتل ذلك القبطى الغير معصوم الدم لانه كافر ومن قوم كافرين ، واستدل لذلك بأنه مفهوم من معنى الضلال ، وذلك واضح من كلام العرب شعره ونثره ، ومن القرآن الكريم .

ولذلك لم يترك لى رحمه الله تعالى مجالا لأن نختار للترجيح غير ما رجحه وأكثر من الأدلة الدالة عليه حتى لم يترك لبسا فى أن المراد بالكفر المذكور جحود نعمة فرعون التى امتن بها على موسى عليه السلام ، ولم يترك لبسا أيضا فى أن المراد بالضلال المذكور فى قوله : وأنا من الضالين ، الذهاب عن طريق الحكم الشرعى الذى يعرف من مقتضاه أن قتل ذلك القبطى الذى كان معتديا على الاسرائيلى ، جائز أو غير جائز ، لأن ذلك لا يعلم الا عن طريق الوحى ، وهو لم يوح اليه اذ ذاك ، وهذا وان كان واضح ومستساغا ، فلابد من أن أذكر

لك ما ظهر لي رجحانه ان شاء الله مع ما تيسر لي من الأدلة على ذلك .

والله وحده هو المستعان على ذلك لأنه القادر عليه وعلى كل شيء .

المبحث الثالث

ترجيح ما ظهر رجحانه

قلت : اعلم أن التحقيق الذى لا يجوز العدول عندى عنه أن معنى قوله (وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين) أى من الكافرين لنعمتنا عليك بالتربية على فراشنا فراش الملوك وذلك لعدة قرائن :

أولها : أن المعلوم من الواقع أن موسى عليه السلام تربى على فراش فرعون فى ملكه ، وفرعون جبار طاغية فحاله هذه مناسبة لأن يبادر عند أول رؤية لما يكرهه من موسى الى المن بما قد بذل له من النعمة .

وثانيها : أن فرعون ليس بمؤمن حتى يعيب موسى عليه السلام أنه من الكافرين ، فذلك لا يتأتى منه حتى يكون هو من المؤمنين ، وموسى عليه السلام من الكافرين ، وهيهات فذلك دونه خرط القتاد ، الا اذا كان يعنى : من الكافرين بربوبية فرعون كما دل على ذلك قوله : يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى . وعليه فلا اشكال فى امضاء موسى عليه السلام ذلك ، وعدم تكذيبه لمقالة فرعون هذه ، لأنه من الكافرين به قطعا .

وثالثها : أن الكفر فى أصل اللغة وضع لهذا المعنى الذى هو الجحود ، والستر ، والتغطية ، واستعماله فى مقابلة الايمان ، مستعار من هذا المعنى ، لأنه جحود لحق الله تعالى على عبده ، وانعامه عليه بما لا يحصى كثرة . والعلم عند الله تعالى .

وأما ما ظهر لى رجحانه بالدليل بالنسبة لقول موسى عليه السلام : (وأنا من الضالين) هو أن الضلال هنا بمعنى الذهاب عن تفاصيل الشريعة التى يحملها الآن وقت مخاطبته لفرعون لأنه وقت قتله القبطى لم يوح اليه بشىء ، ولا يلزم من ذلك

أنه ضال بمعنى الضلال الذى هو نقيض الايمان لأن أصل الايمان قد يوجد عند الشخص ، وهو لا يعلم تفاصيل ما أوجب الله عليه ، ولا ما حرم عليه ، وذلك معلوم من واقع كافة الناس ، ومنهم الانبياء عليهم الصلاة والسلام .

ويدل على ذلك أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم كان متحيرا أول أمره ، ولذلك قال الله جل وعلا فيه (ووجدك ضالا فهدى) أى ذاهبا عن الوحى وتفاصيله فهداك لذلك .

والدليل على أن موسى عليه السلام كان مؤمنا ربه وليس بضال ، الضلال المنافى للايمان ، قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام (ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) وهذا أوان قتله القبطى فتأمل .

وبهذا يبطل قول من قال : ان هذا الضلال الذى نسبه موسى عليه السلام لنفسه فى حال اعتذاره عن قتل القبطى صاحب فرعون ، ضلال بمعنى الكفر بالله وأنه كان من الضالين أى غير المؤمنين ، والدليل على بطلان هذا القول أيضا أن موسى عليه السلام بعد قتله القبطى مباشرة ، رأى ببصيرته النيرة ، وفطرته التى فطره الله عليها أن قتله لهذا القبطى وان كان كافرا الا أنه لما لم يكن بوحى من الله ، رأى أنه من عمل الشيطان أى بوحيه واغوائه ، واستغفر ربه منه ، وغفره الله له ، ودل على ذلك قوله تعالى حاكيا عن موسى عليه السلام (فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين . قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين) الآية . فهذه الآيات صريحة فى أن موسى عليه السلام راسخ فى الايمان قبل النبوة ، وأنه ليس من الضالين الضلال المقابل للايمان ، وانما هو الضلال بمعنى الذهاب عن تفاصيل العلوم وأسرارها التى لا تعلم الا بوحى من الله جل وعلا ، وهذا هو الذى دلت عليه اللغة العربية والقرآن الكريم ، وعليه المحققون من أهل التفسير وأهل الحديث

والاصوليين كما سأبين ذلك ان شاء الله في خاتمة هذه الرسالة والعلم عند الله تعالـــى .

الشبهات والرد عليها

اعلم أن الرازى رحمه الله تعالى ذكر عن أهل الحشو ست شبهات حول موسى عليه السلام ، فقال ما نصه :

(تمسكوا بقوله تعالى : فوكزه موسى فقضى عليه) فان ذلك القبطى اما أن يكون مستحقا للقتل أولا ، فان كان الاول ، فلم قال : " هذا من عمل الشيطان " و " رب انى ظلمت نفسى " الآية و " فعلتها اذن وأنا من الضالين " ؟ وان كان الثانى كان عصيا فى قتله).

هذه هى شبهتهم الاولى ، وقال الرازى ردا عليهم فى ذلك ما نصه :

(جوابه) يحتمل أن يقال : انه لكفره كان مستحقا للقتل وانه لم يكن ، لكن موسى قتله خطأ ، وأنه لم يقصد الا تخليص الذى من شيعته من ذلك القبطى . فتأدى به ذلك الى القتل من غير قصد .

أما الآيات فمن جوز الصغيرة حملها عليها ، فان الاستغفار والتوبة يجب من الصغيرة كما يجب من الكبيرة ، ومن أباها فلم يحملها عليه . وأما قوله " هذا من عمل الشيطان ففيه وجهان :

الاول : أن الله تعالى ندبه الى تأخير قتل أولئك الكفار الى حال القدرة ، فلما قتل فقد ترك المندوب . فقوله (هذا من عمل الشيطان) معناه : اقدامى على ترك المندوب من عمل الشيطان .

الثانى : أن يكون المراد أن عمل المقتول عمل الشيطان ، والمراد بيان كونه مخالفا لله تعالى مستحقا للقتل ، ويكون قوله : " هذا " اشارة المقتول بمعنى أنه من جند الشيطان وحزبه ، يقال : فلان من عمل الشيطان : أى من أصحابه . فأما قوله : (رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى " فعلى نهج قول

آدم : ظلمنا أنفسنا — والمراد أحد الوجهين اما على سبيل الانقطاع الى الله تعالى ، والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه ، وان لم يكن هناك ذنب قط ، أو من حيث انه حرم نفسه الثواب على فعل المندوب. وأما قوله : — فاغفر لى — فالمراد : اقبل منى هذه الطاعة والانقطاع اليك . وأما قوله : (فعلتها اذن وأنا من الضالين) فلم يقل : انى صرت بذلك ضالا ، ولكن فرعون لما ادعى أنه كان كافرا الى حال القتل ، نفى عن نفسه كونه كافرا فى ذلك الوقت فاعترف بأنه كان ضالا أى متحيرا لا يدرى ما يجب عليه أن يفعله وما يريده فى ذلك والله أعلم .)

الشبهة الثانية

كيف لموسى عليه السلام أن يقول لرجل من شيعته يستصرخه - انك لغوى مبين - ؟ - وجوابه أن قوم موسى عليه السلام كانوا غلاظا جفاة ، ألا ترى الى قولهم بعد مشاهدة الآيات (اجعل لنا الها كما لهم آلهة) وكان المراد ذلك .

قلت : ومعنى جواب الرازى هذا أن قول موسى : انك لغوى مبين) معناه جاف غليظ ، ومن قوم كذلك ، والأمر أوضح من هذا بكثير ، لأن معنى قول موسى ذلك ، مفهوم من القصة معناه ، وذلك لانه وجده اليوم متشاجرا مع قبطى ثم وجده من الغد يصرخ مع آخر فدله ذلك على أنه صاحب شغب وشجار دائم ، فقال (انك لغوى مبين) أى بين الغواية . والعلم عند الله تعالى .

الشبهة الثالثة

لما قال الله تعالى له (أن ايت القوم الظالمين) فلم قال فى جوابه : (انى أخاف أن يكذبون • ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل الى هارون) • وهذا استغناء عن الرسالة ؟

(قال الرازى رحمه الله تعالى : " جوابه " ليس هذا استغناء عن الرسالة ، ولكنه اذن فى أن يسأل ضم أخيه اليه فى الرسالة ، على ما ذكره الله تعالى فى قوله فى سورة "طه" (وهل أتاك حديث موسى) - الى قوله (واجعل لى وزيرا من أهلى) - فقال الله تعالى - (قد أوتيت سؤلك يا موسى • وكان فى ذلك السؤال مأذونا فاندفع السؤال) •

قلت : قد أحسن الرازى فى الرد على هذه الشبهة كما رأيت ، ولكن فى الأمر زيادة ايضاح وهى أننا لا نسلم أن موسى عليه السلام استغنى عن الرسالة وانما لعلمه بعدم قدرته على البيان الكافى ، وأن القوم أعداء له بسبب قتله نفسها منهم مع علمه بفصاحة أخيه هارون ، وقدرته على البيان ، دعا ربه الكريم أن يشرك معه أخاه ليكون عونا له فى تبليغ رسالة ربه جل وعلا ويقوما بذلك حق القيام ، ولو كان فى هذا ما ينافى الأدب مع الله جل وعلا لنبه موسى عليه السلام على ذلك ، وبينت له الطريق الأولى ، فلما لم يعاتبه الله سبحانه وتعالى على ذلك ، بل أعطاه سؤله ، دل ذلك على مشروعية الأمر ، وبذلك تبطل هذه الشبهة قبح الله من انتحلوها ، فانهم لا يفقهون شيئا • والله تعالى أعلم •

الشبهة الرابعة

(قالوا) : كيف جاز لموسى أن يأمر السحرة بالقاء الحبال والعصى وذلك سحر وتلبيس وكفر ، والأمر بمثله لا يجوز ؟ .

و (جوابه) كما قال الرازى أن : ذلك الأمر كان مشروطا والتقدير ألقوا ما أنتم ملقون ان كنتم قادرين ، وأيضا لما تعين ذلك طريقا الى كشف الشبهة صار جائزا) .

قلت : ومراده بهذا أن قصد موسى بهذا الأمر أن يلقوا جميع ما لديهم من السحر والحيل حتى يطمئنوا أن الغلبة لهم ، فيلقى موسى عصاه فتبتلعه ، فهى خطة ناجحه ، ولذلك ، ألقى السحرة ساجدين .

وأيضا فان موسى عليه السلام فى جميع خططه وتحركاته مع خصومه يتلقى أوامره من العليم الخبير ، فلابد أن يكون قوله (ألقوا ما أنتم ملقون) بأمر من الله جل وعلا ، وباعلام بعاقبة أمره ، لأن الله تعالى قال لموسى وهارون : لاتخافا - اننى معكما أسمع وأرى) ومن كان الله معه يسمعه ويراه ، فلا تسأل عنه فان الحق بين عينيه وقاد ، فلا تعترض عليه ان ربك لبالمرصاد .

الشبهـــة الخامســـة

(فأوجس في نفسه خيفة موسى) أو ليس خوفه يقتضي شكه فيما أوتي بـــه ؟ـ

جوابه لعله خاف لأنه رأى من قوة التلبيس ما أشفق عنده من وقوع الشبهـــة علـــى بعض الناس ، فآمنه الله منه ، وبيّن أن حجته تتضح للقوم بقوله تعالى (لا تخـــف انك أنت الاعلى) .

قلت : وأيضا فان الخوف الطبيعي الجبلي لا يملك أحد منه نفســـه ، ولا شبهة فيه ألبته .

الشبهة السادسة

(وألقى الألواح) الآية (قالوا) فلا يخلوا اما أن يكون قد صدر الذنب عن هارون عليه السلام ما استحق به ذلك التأديب أو لم يصدر عنه ، فان صدر عنه فقد صدر الذنب عن هارون عليه السلام ، وان لم يصدر عنه فصدر عن موسى عليه السلام ، وأيضا فلأن هارون نهى موسى في قوله : لا تأخذ بلحيتي ، فان كان موسى عليه السلام مصيبا فيما فعله ، كان هارون عاصيا في منعه عن فعل الصواب ، وان كان هارون عليه السلام مصيبا في ذلك المنع كان موسى عليه السلام عاصيا في ذلك الفعل .

(قال الفخر الرازي) (جوابه) أما من جوز الصغائر عليهم فقد حمل الواقعة عليه وزال السؤال . وأما من أباها فله وجهان :

الأول : أن موسى أقبل وهو غضبان على قومه ، فأخذ برأس أخيه وجره اليه كما يفعل الانسان بنفسه في مثل ذلك الغضب ، فان المفكر الغضبان قد يعض على شفتيه ، ويقلب أصابعه ، ويقبض على لحيته ، فأجرى موسى عليه السلام أخاه مجرى نفسه ، لانه كان شريكه فصنع به ما يصنع الرجل بنفسه في حال الغضب والفكر . وأما قوله — لا تأخذ بلحيتي — فلا يمتنع أن يكون هارون عليه السلام ، خاف أن يتوهم بنو اسرائيل بسوء ظنهم أنه منكر عليه معاتب له ، ثم أخذ في شرح القصة ، وقال في موضع آخر — اني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل — وفي موضع آخر — يا بن أم ان القوم استضعفوني . —

الثاني : أن بني اسرائيل كانوا في نهاية سوء الظن بموسى حتى أن هارون عليه السلام غاب عنهم غيبة فقالوا لموسى : أنت قتلته ، فلما واعد الله (جل وعلا) موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر ، وكتب له الألواح من كل شيء ،

رجع فرأى فى قومه ما رأى فأخذ برأس أخيه ليدنيه فيتفحص كيفية الواقعة فخاف هارون أن يسبق الى قلوبهم مالا أصل له ، فقال اشفاقا على موسى عليه السلام : لا تأخذ بلحيتى — لئلا يظن القوم بك مالا يليق) . (١)

قلت : وأيضا فان التحقيق أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام يغضبون ولكن غضبهم لله وفى الله ، وأن موسى عليه السلام لما رأى قومه ارتكبوا من المنكر ما لا صبر عليه وهو عبادتهم العجل وقولهم : (هذا الهكم واله موسى) عاجله الغضب عن استكشاف الخبر ، لأن هذا الأمر مثير فحمل اللائمة أخاه لانه كان وكيلا عنه وما بينهما مغتفر لا عتب من هارون على موسى عليهما السلام ، لانه يدرك أن ما شاهده موسى عليه السلام من عبادة العجل ، أمر مذهل وأولى من يبرد فيه الغضبان غضبه ، نفسه ، ومن هو كنفسه مثل هارون من موسى ، وغاية ما فى الأمر أن موسى عليه السلام لما رأى من قومه ذلك الصنيع القبيح ، اجتهد فى ابرازا ستنكاره فى ثوب مروع ، ملفت بذلك انتباههم ، أنهم وقعوا فى أمر بالغ الخطورة ، فذلك أحرى وأجدر أن يرجعوا ويتوبوا .

والظاهر أن ما فعله موسى عليه السلام من ذلك كله ، بأمر من الله تعالى وتعليم منه جل وعلا ، لانه قد نجح فى ارجاع قومه عن عبادة عجل السامرى ، ولأن الله جل وعلا لم يعاتبه ، ولم يبين له أنه وقع فى غير الأولى ، والانبياء قطعا لا يقرون على باطل ، ولا على ما دون الأولى بدون توجيه اليه ، والعلم عند الله .

وقد تم الكلام هنا حول موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

---

(١) الرازى ، عصمة الانبياء ، المصدر السابق ، ص ٤٤ — ٤٥ — ٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

(داود عليه السلام)

الفصل السابع

في الكلام على نبي الله داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام

والكلام فيه حول قوله تعالى في سورة (ص) :

(وهل (١) أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب . اذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان ، بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط . ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم ، وظن داود أنما فتناه ، فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك ،وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) .

---

(١) سورة ص ـ آية :

المبحث الأول

في ذكر الأقوال

اعلم أن الكلام حول هذا النبي الكريم المراد منه ابطال الشائعة التي امتلأت بها كتب التفسير لأنها منكر من القول وزور ، وهي أن هذا الخصم المذكور في قوله تعالى (وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب . اذ دخلوا على داود) الآية سببه أن داود عليه السلام عشق امرأة رجل من جيشه اسمه أوريا وأرسله الى مقدمة الجيش وعنده التابوت ليعرضه للموت فسلم مرته الأولى ثم أرسله الثانية ، والثالثة ، حتى مات ثم لم يحزن عليه ، ثم تزوج امرأته وولدت له سليمان ، وكان لداود تسع وتسعون امرأة غيرها ، فجاء الملكان في صورة خصمين تعريضا بفعل داود عليه السلام .

هذا وكنيا عن المرأة بالنعجة ، فلما سمع داود عليه السلام كلام المدعي قال له : لقد ظلمك بسؤاله نعجتك ليضمها الى نعاجه ، فانتبه داود عليه السلام الى أن هذا الفعل هو الذي صنع مع أوريا فاستغفر ربه من ذلك الذنب ، وبكى حتى نبت العشب من دموعه ، فغفر الله له ذلك الذنب .

واختلفوا في سبب هذا الامتحان على خمسة أقوال :

أحدها : أنه قال : يا رب قد أعطيت ابراهيم ، واسحاق ، ويعقوب من الذكر ما لو وددت أنك أعطيتني مثله ، فقال الله تعالى : اني ابتليتهم بما لم أبتليك به ، فان شئت ابتليتك بمثل ما ابتليتهم به ، وأعطيتك كما أعطيتهم ؟ قال : نعم ، فبينما هو في محرابه ، اذ وقعت عليه حمامة ، فأراد أن يأخذها فطارت فذهب ليأخذها ، فرأى امرأة تغتسل .

رواه العوفى عن ابن عباس ، وبه قال السدى (١) .

وثانيها : أنه مازال يجتهد فى العبادة حتى برز له قرناؤه من الملائكة وكانوا يصلون معه ويسعدونه بالبكاء ، فلما استأنس بهم ، قال : أخبرونى بأى شىء أنتم موكلون ؟ قالوا ما نكتب عليك ذنبا بل نكتب صالح عملك ونوفقك ، ونصرف عنك السوء ، فقال فى نفسه : ليت شعرى كيف أكون لو خلونى ونفسى ، وتمنى أن يخلى بينه وبين نفسه ليعلم كيف يكون ؟ فأمر الله الملائكة أن يعتزلوه ليعلم أنه لا غناء له عن الله عز وجل . فلما فقدهم ، جد فى العبادة واجتهد ضعف عبادته الى أن ظن أنه قد غلب نفسه ، فأراد الله تعالى أن يعرفه ضعفه فأرسل اليه طائرا من طيور الجنة فسقط فى محرابه فقطع صلاته ومد يده اليه فتنحى عن مكانه فأتبعه بصره فاذا امرأة أوريا . هذا قول وهب بن منبه (٢).

ثالثها : أنه تذاكر هو وبنو اسرائيل ، فقالوا : هل يأتى على الانسان يوم لا يصيب فيه ذنبا ؟ فأضمر داود فى نفسه أنه سيطبق ذلك ، فلما كان يوم عبادته ، أغلق أبوابه ، وأمر أن لا يدخل عليه أحد ، وأكب على قراءة الزبور ، فاذا حمامة من ذهب ، فأهوى اليها ، فطارت فتبعها فرأى المرأة ، رواه مطر عن الحسن . (٣)

---

(١) زاد المسير المصدر السابق . وفيه : رواه الطبرى من رواية العوفى عن ابن عباس : ١٤٦/٢٣

(٢) قال : ذكره الطبرى ١٤٩/٢٣ بسند فيه جهالة من رواية ابن اسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه .

(٣) رواه الطبرى ١٤٨/٢٣ من رواية مطر عن الحسن ، ومطر هو ابن طهمان الوراق أبو رجاء ، قال الحافظ ابن حجر فى التقريب " صدوق كثير الخطأ " انظره فى زاد المسير نفس المصدر

ورابعها : أنه قال لبنى اسرائيل حين ملك : والله لاعدلن بينكم ولم يستثن فابتلى ، رواه الحسن .

وخامسها : أنه أعجبه كثرة عمله ، فابتلى قاله أبوبكر الوراق .

ذكر هذه الاقوال صاحب زاد المسير .

قلت : ولما كان هذا القول ساقطا من جهة النقل ، وساقطا من جهة العقل ، وجب رده وعدم قبوله ، وبقى أن نعتمد على ما دل عليه ظاهر القرآن الكريم مما ذكره المحققون من أهل العلم ، وذلك يتلخص فى ثلاثة أقوال كلها يمكن قبوله مع سلامة جانب النبوة من الصاق ما لا يليق بالصلحاء من المؤمنين ، فأحرى الانبياء الذين اختارهم الله جل وعلا ، وجعلهم أبعد الناس عن الرذائل ، وعن كل ما يشين وينغص من مراتبهم السنية . وبعض هذه الاقوال أقرب الى معنى الآية من الآخر وهو المناسب لجانب النبوة كما سأبين ذلك ان شاء الله فى مبحث الترجيح .

أولها : أنه عليه السلام ما زاد على أن قال للرجل : انزل لى عن امرأتك وأكفلنيها ، فعاتبه الله على ذلك ونبهه عليه وأنكر عليه شغله بالدنيا ، وكان هذا جائزا فى شريعة داود عليه السلام . وقد دل على جواز ذلك فى شريعتنا ما كان قد وقع بين الانصار والمهاجرين من نزول أحدهم عن امرأته لأخيه ، الا أن ذلك لم يقبل منه .

وثانيها : أن داود عليه السلام لم يزد على أن خطب على خطبة أوريا فأجيب هو دون أوريا ، وذلك هو معنى وعزتنى فى الخطاب ، أى الخطبة ولم يكن قد تقدم تزوج أوريا لها ، فعوتب داود بشيئين أحدهما : خطبته على خطبة أخيه ، والثانى اظهار الحرص على التزوج مع كثرة نسائه .

وثالثها : أن ذنب داود عليه السلام لم يكن بسبب امرأة أوريا وانما بسبب أنه قضى

لأحد الخصمين قبل سماع كلام الآخر وذلك قوله : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وهذا حكم بمجرد الدعوى ، وهو مخالف للصواب ، فكان سبب استغفاره ، وتوبته .

وبهذه الوجوه تثبت نزاهة داود عليه السلام مما نسب اليه . وهذه الاقوال وان كان بعضها دون ذلك القول الشنيع ، فليس شيء منها يمكن فهمه من هذه الآيات التي جعلت مأخذا لها ودليلا ، لأن قولهم ان داود طلب من أوريا النزول عن امرأته وذلك جائز ، لا يدل عليه قوله تعالى (وهل أتاك نبأ الخصم) ولا يدل عليه قوله (لقد ظلمك بسؤال نعجتك) ،ولا يدل عليه قوله (فاستغفر ربه) ، ولا يدل عليه قوله (فغفرنا له ذلك) ، لأنها ليس فيها ذكر أوريا ولا امرأته ، ولا النزول عنها ، وليس في السنة شيء مرفوع الى النبي صلى الله عليه وسلم بشأن هذه القصة ، وليس هناك اجماع ولا قياس في المسألة أصلا لأنها ليست مما يدخله الاجتهاد . وهذه هي الأدلة التي يجوز قبولها في هذا الشأن .

وأما الاسرائيليات التي نقلها أهل التفسير فلا تصلح دليلا للقدح في نبي من أنبياء الله ذكره تعالى على وجه المدح ، قال تعالى (واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب) وذا الأيد معناه ، صاحب القوة في الدين ،وأواب معناه رجاع الى ربه بالاستغفار ، كما هو شعار كل الأنبياء . وما كان ليذكره بصيغة المدح أولا ، ثم يذكر عنه بعد ذلك على جهة البرهان أمرا لا يليق بآحاد الصلحاء من أتباعه ، وانما المناسب أن يذكر ما يبرهن على هذا المدح ليكون مثلا صالحا ليقتدى به محمد صلى الله عليه وسلم وذلك لا يصح أن يكون عشقه لامرأة أوريا ، واتباعه لهواه حتى أرسله في مقدمة الجيش ليموت فيتزوجها وتلد له سليمان ، أو أنه طلبه النزول عنها ، أو خطب على خطبته ، اذ ليس في هذا شيء من القوة في الدين ، واذا حصل فالرجوع عنه ليس بغريب ولا محل

تعجيب ، وانما القوة فى الدين أن يكون شديد الحذر والتغلب على هواه ، وأن يكون استغفاره وتوبته ورجوعه وكونه يخر راكعا ، كل ذلك يقع منه على الدوام. أو يكون الباعث عليه الخوف من الله جل وعلا ، أن يكون قد ابتلاه ولم ينجح فى ذلك الابتلاء ، سواء فسر الظن بأنه اليقين ، أو حمل على ظاهره ، وهو أبلغ عندى لأن تركه على ظاهره هو المناسب لقوله " ذا الأيد " وقوله " هل أتاك نبأ الخصم " لأنه اذا كان يستغفر ربه ويتوب اليه ويخر راكعا لمجرد أنه ظن الابتلاء ، فهذا أنسب للقوة فى الدين ، وهو محل التعجيب والاستغراب الذى ينبىء عنه قوله تعالى (وهل أتاك نبأ الخصم) وهو الملائم لقوله (واذكر عبدنا داود ذا الأيد) فى مقام التسلى ، والتأسى ، والاعتبار ، وهو الممكن فهمه من ظاهر الآيات.

وأما اذا حمل على اليقين فيكون تأويلا والحمل على الظاهر أولى ، بل واجب ما لم يصرف عنه صارف ، وكذلك من تاب بعد أن تيقن الوقوع فلا تعد توبته قوة أزيد على غيره من التائبين ، وكذلك ليس محل تعجيب ، وهذا يذهب ببلاغة القرآن الكريم ، واذا لم يكن هذا القول هو الصحيح فليس فى القرآن ولا فى السنة ما يدل على غيره من تلك الأقوال التى فشا ذكرها فى كتب التفسير. وهو كونه ظن الابتلاء بالمتسورين ففزع منهم ، أو التسرع فى الحكم.

اذا عرفت هذا فاليك نسبة هذه الأقوال الى القائلين بها وهو المبحث الثانى.

المبحث الثاني

أما القول بأنها كانت زوجا لأوريا ، أو أن أوريا خطبها فحسب ، وأن داود ما زاد على أن طلبها منه بالطلاق وكان ذلك جائزا فى شريعته ، أو أنه خطب على خطبته فقدمه أهل المرأة على أوريا لجلالته ، فهذا القول قال به جماعة من أهل التفسير منهم أبو البركات صاحب التفسير المشهور (ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم) . فقال ما نصه :

(وأصل القصة أن داود عليه السلام رأى امرأة رجل من جيشه يقال له أوريا فمال قلبه اليها فسأله أن يطلقها ، فاستحى أن يرده ففعل ، فتزوجها وهى أم سليمان . وكان ذلك جائزا فى شريعته ، معتادا فيما بين أمته غير مخل بالمروءة حيث كان يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها اذا أعجبته . وقد كان الأنصار فى صدر الاسلام يواسون المهاجرين بمثل ذلك من غير نكير ، خلا أنه عليه الصلاة والسلام لعظم منزلته ، وارتفاع قدره ومرتبته ، وعلو شأنه نبه بالتمثيل على أنه لم يكن ينبغى له أن يتعاطا ما يتعاطاه آحاد أمته ، ويسأل رجلا ليس له الا امرأة واحدة أن ينزل له عنها فيتزوجها مع كثرة نسائه ، بل كان يجب عليه أن يغالب هواه ، ويقهر نفسه ، ويصبر على ما امتحن به . (قال) : وقيل لم يكن أوريا تزوجها بل كان خطبها ، ثم خطبها داود عليه الصلاة والسلام فآثره أهلها ، فكان ذنبه عليه الصلاة والسلام ، أن خطب على خطبة أخيه المسلم) ثم قال :

(وأما ما يذكر من أنه عليه الصلاة والسلام ، دخل ذات يوم محرابه وأغلق بابه ، وجعل يصلى ويقرأ الزبور ، فبينما هو كذلك اذ جاءه الشيطان فى صورة حمامه من ذهب فمد يده ليأخذها لابن صغير له فطارت ، فامتد اليها فطارت فوقعت فى كوة فتبعها فأبصر امرأة جميلة قد نقصت شعرها فغطى بدنها وهى امرأة

أوريا وهو من غزاة البلقاء ، فكتب الى أيوب بن صوريا وهو صاحب بعث البلقاء ، أن ابعث أوريا وقدمه على التابوت ، وكان من يتقدم على التابوت لا يحل لـــه أن يرجع حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد . ففتح الله تعالى على يـــده وسلم . فأمر برده مرة أخرى وثالثة حتى قتل . وأتاه خبر قتله فلم يحزن كمـــا كان يحزن على الشهداء ، وتزوج امرأته ، فافك مبتدع مكروه ، ومكر مخترع بئسمـا مكروه ، تمجه الأسطع ، وتنفر عنه الطباع ، ويل لمن ابتدعه ، وأشاعه ، وتبـــا لمن اخترعه ، ولذلك قال على رضى الله عنه : من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص ، جلدته مائة وستين ، وذلك حد الفرية على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم) .

ثم قال : هذا وقد قيل : ان قوما قصدوا أن يقتلوه عليه الصلاة والسـلام فتسوروا المحراب ، ودخلوا عليه ، فوجدوا عنده أقواما ، فتصنعوا بهذا التحاكـم فعلم عليه الصلاة والسلام غرضهم ، فهم بأن ينتقم منهم ، فظن أن ذلك ابتلاء له من الله عز وجل ، فاستغفر ربه مما هم به وأناب) انتهى منه بلفظه . (١)

وممن مال الى هذا الرأى ، وان كان غيره أظهر منه : ناصر الدين البيضاوى فقال ما نصه : وأقصى ما فى هذه القصة ، الاشعار بأنه عليه الصلاة والسلام ، ودّ أن يكون له ما لغيره ، وكان له أمثاله ، فنبهه الله بهذه القصة فاستغفر وأناب .

(قال) : ومـا روى أنه وقع بصره على امرأة فعشقها وسعـى حتى تزوجهـا ، وولدت منه سليمان ان صح ، فلعله خطب مخطوبته ، أو استنزله عن زوجتـــه ، وكان ذلك معتادا فيما بينهم ، وقد واسى الأنصار المهاجرين بهذا المعنـــى ، وما قيل : انه أرسل أوريا الى الجهاد مرارا ، وأمر أن يقدم حتى قتل فتزوجهـا ، هراء ، وافتراء ، ولذلك قال على رضى الله عنه : من حدث بحديث داود علـــى

---

(١) أبو السعود ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٥٧١

ما يرويه القصاص جلدته (١) مائة وستين ، الى آخر ما ذكره أبو السعود آنفا ، انتهى منه بتصرف .

وممن اختار هذا القول القاضي أبو يعلى واستدل عليه بقوله : وعزني في الخطاب يعني : القول بأنه ما زاد على أن خطب على خطبة أوريا ، وأنه لم يعتقد ذلك معصية (٢) .

والقول بأنه قال : أنزل لي عنها رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما زاد داود على أن قال لصاحب المرأة أكفلنيها وتحول لي عنها .

وأما القول بأنه سعى الى قتل أوريا وهو الذي تقدم ابطاله ورده من البيضاوي وأبي السعود وغيرهما ، فقد ذكره الامام جمال الدين في كتابه زاد المسير ، وقال : وعلى هذا أكثر المفسرين . قال : وقد روى نحوه العوفي عن ابن عباس ، وروى عن الحسن وقتادة والسدي ومقاتل في آخرين الى أن قال : وهذا لا يصح من طريق النقل ، ولا يجوز من حيث المعنى ، لأن الأنبياء منزهون عنه) انتهى محل الغرض منه .

وأما القول بأنه لم يكن أرسل أوريا الى مقدمة الجيش ليموت فيتزوج امرأته ولا أنه طلبه النزول عنها ، ولا أنه خطب على خطبته ، بل الصحيح ما دل عليه ظاهر الآية فهو قول أبي حيان صاحب البحر المحيط . قال ما نصه :

(والذي يذهب اليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الانس دخلوا عليه من غير المدخل ، وفي غير وقت جلوسه للحكم ،

---

(١) البيضاوي ، المصدر السابق ، ص ٥٩٥

(٢) زاد المسير ، المصدر السابق ، ص ١١٥ — ١١٦

وأنه فزع منهم ظانا أنهم يغتالونه اذ كان منفردا فى محرابه لعبادة ربه • فلما اتضح لهم أنهم جاءوا فى حكومة ، وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قص الله تعالى ذلك ، وأن داود عليه السلام ظن دخولهم عليه فى ذلك الوقت ، ومن تلك الجهة ، انفاذ من الله أن يغتالوه ، فلم يقع ما كان ظنه ، فاستغفر من ذلك الظن حيث أخلف ، ولم يكن يقع مظنونه ، وخر ساجدا ورجع الى الله تعالى فغفر له ذلك الظن • ولذلك أشار بقوله فغفرنا له ذلك ولم يتقدم سوى قوله : (وظن داود أنما فتناه) ، (قال) :

ويعلم قطعا أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم فى شىء منها ضرورة أن لو جوزنا عليهم شيئا من ذلك بطلت الشرائع ، ولم نثق بشىء مما يذكرون أنه أوحى الله اليهم به ، فما حكى الله تعالى فى كتابه يمر على ما أراده تعالى ، وما حكى القصاص مما فيه غض عن منصب النبوة طرحناه • ونحن كما قال الشاعر :

ونؤثر حكم العقل فى كل شبهة * اذا آثر الاخبار جلاس قصاص)

انتهى منه بلفظه (١) •

---

(١) أبو حيان فى البحر ، المصدر السابق ، جـ ٧ ص ٣٩٣

المبحث الثالث

فى الترجيح ومناقشة الأقوال

قلت : اعلم أن أظهر هذه الأقوال عندى هو ما اختاره أبو حيان فى البحر ، وهو أن داود عليه السلام فزع من المتسورين المحراب ، لأنهم دخلوا عليه فى وقت غير معتاد ، ومن طريق غير مألوف الدخول منه ، فظنهم جاءوا لقتله ، فلما تبين أمرهم وأنهم جاءوا للتحاكم وأخلف ظنه تاب من ذلك الفزع الذى حصل له لظنه أن ذلك المجيء فى غير وقته والدخول من غير محله انما وقع ابتلاء له ، هل يثبت أمام هذه الصورة المروعة أو يفزع كما حصل ، فغفر الله له ذلك أى ظنه القتل ، والفزع ، لا ظنه الابتلاء ، لأن الاشارة فى قوله تعالى (فغفرنا له ذلك) لا يتجه الا أن تكون عائدة الى الفزع الناشىء عن ظنه أن القوم جاءوا لانفاذ قتله ، أو هو عائد الى قوله للمدعى (لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه) قبل أن يسمع حجة المدعى عليه .

وأما قوله (وظن داود أنما فتناه) فلا يتجه عندى عود الاشارة اليه ، لأن ظن الابتلاء الباعث على الانابة والتوبة ، ليس بذنب حتى يقال فيه (فغفرنا له ذلك) ، وانما المغفور له هو ذلك الفزع أو التسرع فى الحكم . والعلم عند الله تعالى .

وهذا القول هو أقرب الى ظاهر الآية الكريمة كما رأيت ، وأما غيره من الأقوال فليس شىء منها مأخوذا من ظاهر الآية ، ولم يرد به نص عن المعصوم ، وما روى منه عن السلف ككونه تسبب فى قتل أوريا حتى مات ، فتزوج امرأته ، فهذا ، عليه علامة الوضع ، وأنكره جميع المحققين من أهل التفسير وغيرهم ، وهو المروى عن ابن عباس وابن وهب ومقاتل .

والاجابة عنهم ، أنه اما لم يثبت عنهم نقلا ، أو تلقوه عن بنى اسرائيل ،

وذلك شيء لا يعتمد عليه في الحط على الأنبياء ، فهو افتراء بيّن لا غبار عليه. وقد سمعت كلام علي رضي الله عنه في ذلك كما نقل أبو السعود والبيضاوي ، أنه قال : من حدث بحديث داود عليه السلام كما يحكيه القصاص جلدته حد الفرية مائة وستين جلدة ، وهو حد الفرية على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وأما الرأي الثاني وهو كونه طلبه النزول عن زوجته ، أو خطب على خطبته ، وأن ذلك كان جائزا في شريعة داود عليه السلام ، غير مخل عند قومه ، معتادا فيما بينهم ، فهو جيد ، غير أن القائلين به لم يروه لا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عن السلف بطريق صحيح ، وليس في القرآن الكريم ما يدل عليه ، والقائلون به حملوا الخصم في قوله (وهل أتاك نبأ الخصم) على أنهما ملكان وليس لهم دليل على ذلك سوى أنهم تسوروا المحراب ، وجاءوا في وقت غير وقت الحكم ، وهذا ممكن حصوله من بني آدم ، وهو الأصل .

وكذلك حملوا النعجة والنعاج في قوله (ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة) على المرأة ، والأصل أنها أنثى الضأن أو الوحش ، والمقام هنا ليس مقام غزل ، ولا تشبيه ، وليس في الآية قرينة تلزم بذلك سوى قوله (أكفلنيها) ، والكفالة معناها : القيام بما يصلح المكفول ، ويدخل فيه اصلاح ما قمت باصلاحه من ناطق ، أو صامت ، أو نام . تقول : أنا كافل اليتامى ، وأنا متكفل باصلاح هذا البستان ، ويرعى هذا الحيوان ، ولا يختص هذا اللفظ بكفالة المرأة .

وقوله : (وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض) واضح في أن المراد بالنعاج : اناث الضأن ، لأنها هي التي تحصل فيها الخلطة عادة ، وأما النساء فليس فيها خلطة أصلا . وكذلك الأصل : الاكتفاء بما دلت عليه الألفاظ ، دون التقدير ، وهذا هو ما ذهب اليه أبو حيان في البحر المحيط .

ووجهته : أن الخصم المذكور فى قوله (وهل أتاك نبأ الخصم) من الانس ، وأن داود عليه السلام ظنهم يريدون قتله ففزع منهم ، ولما علم أنهم خصمان ، وأنهم خلطاء ماشية بغى بعضهم على بعض ، كما فى القرآن الكريم ، وسمع حجة المدعى وكانت فى غاية الاثارة ، ظن أنه ابتلى اما فى رياطة الجأش أمام المتسورين للمحراب ، واما فى التثبت وعدم التسرع مهما كانت صورة الخصام مثيرة ، ولما لم ينجح لا فى الاولى ولا فى الثانية ، (خر راكعا وأناب) حتى غفر الله له ذلك ، أى الفزع ، أو ذلك التسرع . والثانى أولى وأقرب ، لأن الفزع أمر جبلى ، لا يآخذ به .

وأما الاجابة عن تسرعه ذلك ، فهى اما أن نقول انه حمله الغضب لله من الظلم الذى تحمله صورة دعوى المدعى (ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة) أو أنه رأى مخايل الظلم على وجه المدعى عليه فحكم ، بناء على الاجتهاد ، والانبياء يخطئون فى الاجتهاد بلا ريب ، ولكن لا يقرون على خطأ ، ويقعون فى غير الاولى ، فكان هذا سبب استغفاره .

واما أن يكون سمع اقرار المدعى عليه ، ويكون استغفاره من ذلك الفزع الذى وقع منه ، وان كان أمرا جبليا ، لأن الانبياء عليهم الصلاة والسلام يستعظم فى جانبهم ما لا يستعظم فى جانب غيرهم ، هذا بناء على أن هذه الآيات لا ذكر فيها للذنب ولا المعصية ، وليس فيها غير أنه استغفر ربه ، وخر راكعا وأناب .

وقد تقدم لك أن الاستغفار والتوبة لا يلزم منهما سبق ذنب ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستغفر الله ويتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة ، وكان يقول : (اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين) فلو كان لابد من ذنب قبل التوبة فيكون المعنى : اللهم اجعلنى من المذنبين ، ثم من التوابين . والعلم عند الله تعالى .

تنبيـــــــــــــه

قال ابن كثير : (ذكر المفسرون ها هنا قصة أكثرها مأخـــوذ مــن الاسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكـن روى ابن أبى حاتم هنا حديثا ، لايصح سنده ، لانه من رواية يزيد الرقاشـــى عن أنس رضى الله عنه • ويزيد وان كان من الصالحين ، لكنه ضعيف الحديـث عند الائمة (١) ، فالاولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة ، وأن يـــرد علمها الى الله عز وجل ، فان القرآن الكريم حق ، وما تضمنه فهو حق أيضا •

(قال) وقوله تعالى : (ففزع منهم) ، انما كان ذلك لانه كان فى محرابه ، وهو أشرف مكان فى داره ، وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم ، فلم يشعر الا بشخصين قد تسوروا عليه المحراب ، أى احـتاطا به يسألانه عـن شأنهما قال : (وعزنى فى الخطاب) ، أى غلبنى • يقال عز يعز اذا قهــر وغلب ، وقوله : (وظن داود أنما فتناه) قال ابن عباس : أى اختبرنـــــاه ، (وقال) فى قوله تعالى : (فغفرنا له ذلك) أى مـا كان منه مما يقـــال فيه : "حسنات الأبرار سيئات المقربين " (٢) •

قلت : وخلاصة ما ذكره أن المسألة فيها اجمال غير موضح ، واذا كان كذلك ، وجب التوقف فيها والايمان بما دل عليه كتاب الله ، وهذا قريــب مـن

---

(١) قلت : وقد قال ابن حجر العسقلانى فيه ما نصه : يزيد بن أبان الرقاشى بتخفيف القاف ثم معجمة ، أبو عمر البصرى ، القاضى بتشديد المهملـة زاهد ، ضعيف ، من الخامسة ، مات قبل العشرين / بخ ت ق •
انظره فى : تقريب التهذيب ج ٢ ص ٣٦١ •
قلت : وقوله ضعيف معنى قول ابن كثير : ضعيف الحديث عند الائمة •

(٢) مختصر الصافونى لابن كثير ، المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٠ بتصرف

الرأى الذى اخترته ، وهو أحوط ، وقد قدمنا لك أنه اختيار أبى حيان فى البحر المحيط .

وهناك من محققى المتأخرين من خالف جميع هذه الأقوال التى تقدم ذكرها قريبا ، فلابد من الالمام بذلك لعل المتأخر يكون أتم نظرا كما قيل . وصاحب هذا الرأى الامام الشهيد السيد قطب رحمه الله تعالى ، قال ما ملخصه :

ان هذه القضية جيء بها امتحانا ، وتنبيها للنبى داود عليه السلام ، وتوجيها له لما أعده الله له ، وولاه عليه من القضاء والحكم بين الناس ، وأن الخصم المذكور فى الآية كانا ملكين جاءا لامتحان النبى الملك الذى ولاه الله على أمر الناس ليقضى بينهم بالحق والعدل ، وليتبين قبل اصدار الحكم ، وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية فى صورة صارخة ، مثيرة ، ولكن القاضى عليه أن لا يستثار ، وعليه ألا يتعجل ، ولا يأخذ بظاهر قول أحد الخصمين قبل أن يمنح الآخر فرصة للادلاء بحجته ، وقوله ، فقد يتغير وجه المسألة كله ، أو بعضه ، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعا ، وعند هذا تنبه داود عليه السلام الى أنه الابتلاء أى الاختبار ، قال تعالى : وظن داود أنما فتناه ، أى ابتليناه واختبرناه ، وهنا أدركته طبيعته انه أواب (فاستغفر ربه) وخر راكعا وأناب ، فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب .

قال وقد خاضت بعض التفاسير مع الاسرائيليات حول هذه الفتنة خوضا كبيرا تتنزه عنه طبيعة النبوة ، ولا يتفق اطلاقا مع حقيقتها ، حتى الروايات التى حاولت تخفيف تلك الأساطير ، سارت معها شوطا .

ثم قال : وهى لا تصلح للنظر من الأساس . والتعقيب القرآنى الذى جاء بعد القصة ، يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة ، ويحدد التوجيه المقصود بها من الله تعالى لعبده الذى ولاه القضاء والحكم بين الناس .

قلت ويعنى بالتعقيب القرآنى قوله تعالى : (يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) قال واتباع الهوى فيما يختص بنبى هو السير مع الانفعال الأول ، وعدم التريث والتبين مما ينتهى مع الاستطراد فيه ، الى الضلال الى أن قال :

ومن رعاية الله تعالى لعبده داود عليه السلام أنه نبهه عند أول لفتة ، ورده عند أول اندفاعة ، وحذره النهاية البعيدة وهو لم يخط اليها خطـــوة ، وذلك فضل الله على المختارين من عباده ، فهم ببشريتهم قد تعثر أقدامهم أقل عثرة فيقيلها الله ، ويأخذ بأيديهم ، ويعلمهم ، ويوفقهم الى الانابة ، ويغفر لهم ، ويغدق عليهم بعد الابتلاء اهـ منه مختصرا (١) .

قلت : وهذا الرأى كما رأيت لا ينافى ما تقدم من ابقاء القصة على ما دل عليه ظاهر القرآن الكريم ، ولكن مع سلامة جانب النبوة ، فهو يحتاج الـى دليل ، لأن الأصل فى الخصمين أن يكونا من الانس ، وما ادعاه من أنهمـــا ملكان يحتاج الى دليل ، لانه عدول عن الأصل . والعدول عن الأصل لا يجوز الا بدليل يجب الرجوع اليه ، والعلم عند الله تعالى .

وقد تم الكلام هنا عن النبى الكريم داود عليه السلام ، ويليه الكـــلام على ابنه سليمان عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام .

---

(١) سيد قطب : ظلال القرآن المصدر السابق ج ٩ ص ٩٦ ــ ٩٧

سليمـان عليه الصلاة والسلام

الفصـل الثامـن

فى الكلام حول نبى الله سليمان عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام

والكلام فيه من خلال آيتين من سورة " ص " :

أولاهما : قوله تعالى (اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد . فقال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب . ردوها علىّ فطفـق مسحا بالسوق والأعناق)الآية (١)

والثانية : قوله تعـالى (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثـم أناب) الآية (٢) .

وقبل اثارة الاشكال والشبهة فاعلم أن قوله فى الآية الأولى " فطفـق مسحا بالسوق والأعناق " فيه للعلماء أوجه من التفسير :

أحدهـا :

أنه مسح أعناقها ـ أى الخيل ـ وسوقها بيده حبا لها .

وثانيهـا :

أن المراد بالمسح ، الكى ، كوى سوقها وأعـناقها اشعارا وعلامة أنـه حبسها فى سبيل الله تعالى .

وثالثهـا :

أنه مسح أعناقها وسوقها بالسيف .

---

(١) سورة ص آية ٣٢ ـ ٣٣
(٢) " " " ٣٤

أما القول الاول فقد رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس • وقال مجاهد : مسحها بيده وهذا اختيار ابن جرير ، والقاضى أبى يعلى • (١)

وأما الثانى فقد حكاه الثعلبى •

وأما الثالث فرواه مجاهد عن ابن عباس قال :
(مسح أعناقها وسوقها بالسيف) وهو قول الحسن وقتادة وابن السائب واختيار السدى ، ومقاتل والفراء وأبى عبيدة والزجاج وابن قتيبة وأبى سليمان الدمشقى والجمهور • (٢)

وروى أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : (فطفق مسحا بالسوق والاعناق) قال بالسيف ، والمفسرون على هذا القول الاخير ، وقد اعترضوا على القول بأنه مسحها بيده حبا فقالوا : أى مناسبة بين شغلها له عن الصلاة ، وبين مسح أعرافها حبا لها ؟ ونفى بعضهم ثبوت هذا القول عن ابن عباس •

اذا عرفت هذا فاعلم أن فى كونه قطع أعناق الخيل وسوقها اشكالا وهو كيف يقطع أعناق الخيل وسوقها وهو نبى ، والخيل لا ذنب لها ، فكيف وجه العقوبة لها وقصد التشفى بقتلها وهذا يشبه فعل الجبارين ، لا فعل الانبياء • ؟

وكذلك قالوا : كيف يشتغل سليمان عليه السلام بنظر الخيل حتى تشغله عن ذكر الله ؟

---

(١) زاد المسير • المصدر السابق • جـ ٧ • ص ١٣٢
(٢) " " • نفس المصدر

وأجيب عن الاول بأنه عقرها وتصدق بلحومها وكان ذلك جائزا فى شريعته ، وعليه فيكون عقرها قربانا ، كما نحر النبى صلى الله عليه وسلم مائةمن الابل يوم النحر ، فى حجة الوداع . قال وهب بن منبه : (شكر الله تعالى له ذلك ، فسخر له الريح مكانها ، وهى أحسن فى المنظر وأسرع فى السير ، وأعجب فى الاحدوثة) (١) .

قلت : أما قوله : وهى أحسن فى المنظر فلا يوافقه عليه كل الناس لانه غير ظاهر بل الظاهر أن الخيل أحسن فى المنظر من الريح ، ويدل عليه ما حصل من البدل لاحتمال أن يراعى فيه عدم الجمال والحسن الذى كان سببا فى اشتغاله عن ذكر الله ، والله تعالى أعلم .

وأجيب عن اشتغاله عن ذكر الله بما ذكره ابن كثير رحمه الله تعالى قائلا : ذكر غير واحد من السلف والمفسرين : أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر " قال " والذى يقطع به أنه لم يتركها عمدا بل نسيانا ، كما شغل النبى صلى الله عليه وسلم يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب ، وذلك ثابت فى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه قال : جاء عمر رضى الله عنه يوم الخندق بعد ما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش ، ويقول : يارسول الله ، والله ما كدت أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " والله ما صليتها " ، فقال فقمنا الى بطحان — مكان بالمدينة — فتوضأ نبى الله صلى الله عليه وسلم للصلاة وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس ، ثم صلى بعدها المغرب) " قال " ويحتمل أنه كان سائغا فى ملتهم ، تأخير الصلاة لعذر الغزو ، والقتال (٢) والاول

---

(١) زاد المسير . نفس المصدر

(٢) ابن كثير فى تفسيره المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٧ ، مختصر ابن كثير للصابونى المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣

أقرب . انتهى محل الغرض منه .

قلت : وهذا الذى ذكره ابن كثير هنا من أن سليمان عليه السلام كان ينظر الى الخيل حتى أنسته ذكر ربه ، وذلك هو عذره وتشبيهه لهذه الواقعة بواقعة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الخندق اللتين كان وجه الشبه فى كلتيهما النسيان ، حكم منه رحمه الله تعالى بتساوى هاتين الشريعتين شريعة سليمان وشريعة محمد صلى الله عليهما وسلم فى كون النسيان مرفوعا اثمه ، وهذا ان صح ، فهو واضح ولا اشكال فى المسألة ، ولكن يرد عليه مفهوم المخالفة فى حديث : رفع عن أمتى الخطأ والنسيان " لأن مفهومه أن غير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ليس كذلك فى رفع الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

وهناك حديث آخر دال على أن من قبلنا من الامم ليس مرفوعا عنه بعض ما فى هذا الحديث وهو الاكراه ، وهو الحديث الذى دل على أنه كان فيمن قبلنا رجل قرب ذبابة مكرها عليها ، فدخل النار ، ورجل أومأ برأسه للصنم مكرها ، فدخل النار .

وهذا النوع مرفوع عنا قطعا بدليل قوله تعالى : (من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) وعلى هذا فهو من الآصار التى كانت على من قبلنا ورفعت عنا ، اللهم لك الحمد على ما أوليت من النعم ، وعلى كل حال ، فلو كان للعقل وحده توصل الى الحق لقلنا ان النسيان مرفوع اثمه عنا وعمن قبلنا لأنه أمر ليس داخلا تحت اختيار الانسان ، والله سبحانه امتدح نفسه جل وعلا

بأنه لا يكلف نفسا الا وسعها ، وما نسيه الانسان فهو خارج عن وسعه .

والذى يظهر لى رجحانه فى هذه المسألة أن الذكر الذى اشتغل عنه سليمان عليه السلام بسبب حب الخير أعم من كونه صلاة العصر ، ولا مانع من حمله على أنه مجرد ذكر الله واستغفاره المندوب دوامه ، ولما كان ذلك هو شعار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام استعظم سليمان عليه الصلاة والسلام أن يقع منه اشتغال عن ذكر الله بسبب النظر الى شىء من متاع الحياة الدنيا ، مآله الى الزوال ، ثم اجتهد فيما يمنعه من المعاودة لمثل ذلك فبادر الى عقرها تقربا الى الله جل وعلا ، ولو كان ذلك غير موافق للصواب لما أقره الله عليه ، ولبين له الأولى ، والأفضل لأن الأنبياء لا يقرون على باطل ولا على ما دون الأولى ، وهذا باستقراء القرآن الكريم ، والسنة النبوية كما سأبين ذلك ان شاء الله تعالى فى خاتمة هذه الرسالة ، والعلم عند الله تعالى .

أما قوله تعالى : (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) الآية • فغاية ما دل عليه ظاهر هذه الآية أن الله جل وعلا ، ابتلى عبده ورسوله سليمان عليه السلام ، أى اختبره ، ولم يبين الله ، ولا رسوله كيف اختبره ، وأخبر تعالى أنه جعل على كرسيه جسدا ولم يبين كذلك هو ولا رسوله ، ما هو هذا الجسد ، ولا كيف جعله ، وكان الواجب علينا نحن المسلمين أن نقول : ما دام الله سبحانه وتعالى وهو العليم الخبير ، لم يخبرنا عين كيفية تلك الفتنة ولا ذلك الجسد ، ورسوله الذى أنزل عليه الذكر ليبين للناس ما نزل اليهم لم يثبت عنه بيان لذلك ، وجب علينا والحالة هذه أن نقف عند ما جاءنا من الوحى ، ولا نحكم بأمر لا دليل عليه ، ولم يكلفنا الله بالبحث عنه ، لأن ذلك يفضى الى القول بما لم ينزل الله به سلطانا • والله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز (ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع ، والبصر ، والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) •

اذا عرفت هذا ، فاعلم أن أهل العلم لهم فى هذه المسألة ثلاثة آراء : اثنان منهما قديمان عند أهل التفسير ، وأحدهما ، مردود عند المحققين منهم والآخر معتمد عند جلهم ، وأما الرأى الثالث فهو متأخر جدا ، وهذا الأخير وأحد الأولين ، لا يصادمان نصوص الشرع الصريحة ، وانما يحتاجان كل منهما الى دليل قطعى الدلالة فى محل النزاع أو ظاهر ظهورا لا يجوز العدول عنه •

المبحث الأول

في ذكر الأقوال

أما القولان القديمان فأحدهما :

أن سليمان عليه السلام افتتن بأن قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بغلام ذكر يجاهد في سبيل الله ، ولم يقل ان شاء الله وبسبب عدم الاستثناء لم تلد منهن الا واحدة جاءت بنصف انسان ، قالوا : عدم الاستثناء هو الفتنة ، والجسد الذي وضعه الله على كرسيه هو نصف ذلك الانسان الذي ولدته احدى نسائه .

وأما الثاني :

فهو أن سليمان عليه السلام أراد مرة أن يدخل الخلاء ، فأعطى خاتمه لزوجته الجرادة - اسم امرأة له - وكانت أحب نسائه اليه فجاءها الشيطان في صورة سليمان فأعطته الخاتم بعد أن ظنت أنه سليمان فلما لبسه دانت له الانس والجن ، والشياطين ، وبقي سليمان تائها حتى وجد خاتمه في بطن حوته فأخذه فرجع الى ملكه .

وعلى هذا المعنى ، فسروا قوله تعالى (ولقد فتنا سليمان) أي بنزع ملكه ، وفسروا الجسد بأنه ذلك الشيطان الذي جلس على كرسي سليمان وملكه ، وفسروا قوله (وأناب) بأنه : رجع الى ملكه بسبب وجود الخاتم ، ومعنى هذا

أن ملك سليمان كان مرتبطا بوجود الخاتم ارتباطا كليا لا ينفك عنه .

وأما الرأى الثالث المتأخر جدا :

هو أن الاختبار كان فى عقره الخيل ، وأن الأفضل والاولى من عقرها أن يتصدق بها ، وهى حية لأن ذلك أعم نفعا ، ولما لم يوافق الاولى ، عاتبه الله جل وعلا بأن سلط عليه ملكا نزع منه ملكه وألقى عليه شبهه ثم لما أناب سليمان الى ربه جل وعلا ، رد عليه ملكه فالفتنة على هذا هى عقر الخيل ، والجسد الملك ، وأناب ، رجع الى ربه تعالى .

تنبيـــــــــــــــه

هناك رأى آخر وهو أن سليمان عليه السلام ، مرض حتى صار كأنـــه جسم لا روح له . وذلك هو معنى " وألقينا على كرسيه جسدا " الآيـــة . وعليه فيكون معنى " ولقد فتنا سليمان " ، أى ابتليناه بالمرض ، هل يصبر على البلاء وقد صبر فأرجعناه الى ملكه بأن عوفى فى جسمه .

هذه هى جملة الاقوال التى اطلعت عليها فى كتب التفسير ونشـــــرع الآن فى عزوها وأدلتها ومناقشتها ثم بعد ذلك ، أرجح ان شاء الله ، ما ظهر لى رجحانه ، وبالله تعالى أستعين .

المبحث الثاني

في عزو هذه الأقوال الآنفة الذكر وأدلتها ومناقشتها

أما القول الأول الذي هو المعتمد عند أكثر أهل العلم وهو أن سليمان عليه السلام قال : لأطوفن على سبعين امرأة ، وفي رواية تسعين امرأة ، وفي رواية مائة امرأة ، تأتي كل واحدة منهن برجل يجاهد في سبيل الله ولم يقل ان شاء الله ، وأن هذه الفتنة المشار اليها بقوله تعالى (ولقد فتنا سليمان) الى آخر الآية فقد استظهره البيضاوي ، وأبو السعود ، وابن كثير وغيرهم ، ودليلهم على ذلك ما روي في الصحيحين بهذا المعنى . قال البيضاوي :

(وأظهر ما قيل فيه ما روي مرفوعا أنه قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل ان شاء الله فطاف عليهن فلم تحمل الا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، فوالذي نفس محمد بيده لو قال ان شاء الله لجاهدوا فرسانا) (١) انتهى محل الغرض .

وقال أبو السعود ما لفظه : (أظهر ما قيل في فتنته عليه الصلاة والسلام ما روي مرفوعا أنه قال : (لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى ولم يقل ان شاء الله ، فلم تحمل منهن الا واحدة جاءت بشق رجل والذي نفسي بيده لو قال ان شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون) ، انتهى محل الغرض منه بلفظه .

---

(١) البيضاوي . المصدر السابق . ج ١ . ص ٥٩٦
(٢) أبو السعود . المصدر السابق . ج ٤ . ص ٥٧٧

قلت : قد رأيت اتفاق هذين الامامين على استظهار هذا الرأى وذلك لأمرين أحدهما : قوة اسناد هذا الحديث الذى استدلا به ، وثانيهما أنه لم يوجد شئ صريح فى هذه المسألة يقبله العقل ويؤيده الشرع سوى ما ذهبا اليه ، ولكن قوة السند لا تكفى وحدها بل لابد معها من الدلالة فى محل النزاع ، وهذا الحديث له ألفاظ غير ألفاظ الآية ، وله معنى غير معناها ، ولم ينقل هؤلاء الذين استدلوا به أنه جاء مبينا للآية ، وصاحب البيان الذى روى عنه ما دام لم يرو عنه أنه بين به الآية الكريمة فهو أشبه بأن يكون حادثة مستقلة ، وذلك لاختلاف لفظه ومعناه مع لفظ الآية ومعناها ، والأفضل عندى والحالة هذه ، أن نؤمن بالواضح الجلى ونفسره ونؤمن بالمجمل ونتوقف فيما أجمل منه .

فسليمان عليه السلام قال الله فيه (ولقد فتنا سليمان) ومعروف أن الفتنة معناها فى اللغة : الاختبار ، والابتلاء ، والواجب الايمان بذلك ، وقد أخبر الله سبحانه أنه جعل على كرسيى سليمان جسدا ، وذلك صادق بكل شئ متجسد ، ونحن نؤمن بأنه جعل على كرسيه جسدا وبقى الأمر مجملا بالنسبة لهذه الفتنة وهذا الجسد ، والحكم على الشئ فرع عن تصوره ، فوجب التوقف حتى يأتى البيان ، والله أعلم .

وأما القول الثانى ، وهو أنه تسلط عليه الشيطان وأخذ خاتمه الذى قالوا من أوصافه : أن ملك سليمان كان مكنونا فى ذلك الخاتم ، اذا لبسه دانت له مملكته ، واذا نزعه ضاعت هيبته ، وبقى الأمر فوضى لمن يشاء حتى الى الشياطين ، فقد ذكره سليمان الجمل فقال ما نصه ، شارحا لقول الجلالين :

(وكان ملكه فى خاتمه) (١) قال : قوله : (وكان ملكه فى خاتمه) أى كان مرتبا على لبسه فاذا لبسه ، سخرت له الجن والانس والرياح وغيرها ، واذا نزعه ، زال عنه الملك اهـ شيخنا . وكان خاتمه من الجنة نزل بـــه آدم كمـا نزل بعصا موسى ، والحجر الأسود المسمى باليمين ، وبعود البخور وبأوراق التين ساترا عورته بها ، وقد نظم الخمسة بعضهم فى قوله :

وآدم معه أنزل العود والعصا * لموسى من الآس النبات المكرم
وأوراق تين واليمين بمكـــة * وخاتم سليمان النبى المعظـــم

قال : وفى القرطبى (وقال جابر بن عبد الله قال النبى صلى الله عليه وسلـم " كان نقش خاتم سليمان بن داود لا اله الا الله محمد رسول الله " قـال : (قوله : ووضعه عند امرأته) عبارة غيره عند أم ولده المسماة بالأمينـة ، وقوله على عادته أى فى أنه لا يلبسه الا متطهرا فكان اذا أراد الخلاء أو الجماع نزعه حتى يتطهر . الى أن قال : وسمى ذلك الجنى جسدا لأن الجسد هـو الجسم الذى لا روح فيه ، وهو لما تصور بصورة سليمـان ، كانت تلك الصـورة كأنها لا روح فيها لأنها خالية عن روح سليمان ، وان كان فيها روح الجنـى ، انتهى محل الغرض منه (٢) .

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى مـا ملخصه فى قوله تعالى : (ولقـد فتنا سليمان) : أى اختبرناه بأن سلبناه الملك ، (وألقينا على كرسيه جسـدا) قال ابن عباس : رضى الله عنهما ومجاهد وسعيد ابن جبير والحسن وقتـادة

---

(١)

(٢) سليمان الجمل . المصدر السابق . جـ ٣ . ص ٥٧٦

وغيرهم : يعنى شيطانا (ثم أناب) أى رجع الى ملكه وأبهته . قال ابن جرير: وكان اسم ذلك الشيطان صخرا ، قاله ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة وقيل : آصف ، قاله مجاهد ، وقيل : أصرو ، قاله مجاهد أيضا . وقيل حبقيق ، قاله السدى ، وقد ذكروا هذه القصة مبسوطة ومختصرة الى أن قال : وهذه كلها اسرائيليات ، ومن أنكرها ما قاله ابن أبى حاتم :حدثنا على بن الحسين ، حدثنا محمد بن العلاء وعثمان بن أبى شيبة ، وعلى بن محمد قالوا : حدثنا أبو معاوية أخبرنا الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (وألقينا على كرسيه جسدا) قال : أراد سليمان أن يدخل الخلاء فأعطى الجرادة خاتمه وكانت الجرادة امرأته ، وكانت أحب نسائه اليه ، فجاء الشيطان فى صورة سليمان فقال لها : هاتى خاتمى فأعطته اياه فلما لبسه دانت له الانس والجن والشيطان ، فلما خرج سليمان عليه السلام من الخلاء قال لها : هاتى خاتمى ،قالت : قد أعطيته سليمان ، قال : أنا سليمان ، قالت : كذبت ما أنت بسليمان فجعل لا يأتى أحدا يقول له : أنا سليمان الا كذبه ، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة ، فلما رأى سليمان ذلك عرف أنه من أمر الله عز وجل ، وقام الشيطان يحكم بين الناس ، فلما أراد الله تبارك وتعالى أن يرد على سليمان سلطانه ، ألقى فى قلوب الناس انكار ذلك الشيطان ، قال : فأرسلوا الى نساء سليمان فقالوا لهن : أتنكرون من سليمان شيئا ، قلن : نعم ، انه يأتينا ونحن حيض ، وما كان يأتينا قبل ذلك ، فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ، ظن أن أمره قد انقطع ، فكتبوا كتبا فيها سحر ، وكفر ، فدفنوها تحت كرسى سليمان ، ثم أثاروها وقرأوها على الناس وقالوا بهذا : كان يظهر سليمان على الناس ، ويغلبهم ، فأكفر الناس سليمان عليه الصلاة والسلام ، فلم يزالوا يكفرونه ، وبعث الشيطان بالخاتم فطرحه فى

البحر فتلقته سمكة فأخذته ، وكان سليمان عليه السلام يحمل على شط البحر بالأجر ، فجاء رجل فاشترى سمكا فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم فدعا سليمان عليه الصلاة والسلام ، فقال : تحمل لي هذا السمك ؟ فقال : نعم ، قال : بكم ؟ قال سمكة من هذا السمك قال : فحمل سليمان عليه الصلاة والسلام السمك ، ثم انطلق الرجل الى منزله فلما انتهى الرجل الى بابه أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم فأخذها سليمان عليه الصلاة والسلام فشق بطنها فاذا الخاتم في جوفها ، فأخذه فلبسه ، قال : فلما لبسه ، دانت له الجن ، والانس ، والشياطين . وعاد الى حاله : وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر ، فأرسل سليمان عليه السلام في طلبه ، وكان شيطانا مريدا ، فجعلوا يطلبونه ولا يقدرون عليه ، حتى وجدوه يوما نائما ، فبنوا عليه بنيانا من رصاص فاستيقظ ، فجعل لا يثبت في مكان من البيت الا انطاط معه من الرصاص . قال : فأخذوه فأوثقوه وجاءوا به الى سليمان عليه الصلاة والسلام ، فأمر به فنقر له تحت من رخام ، ثم أدخل في جوفه ، ثم سد بالنحاس ثم أمر به فطرح في البحر ، فذلك قوله تعالى (وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) يعني الشيطان الذي كان سلط عليه .

اسناده الى ابن عباس رضي الله عنهما قوي ، ولكن الظاهر أنه انما تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما ان صح عنه من أهل الكتاب وفيهم طائفة لا يعتقدون بنبوة سليمان عليه الصلاة والسلام . فالظاهر أنهم يكذبون عليه . ولهذا كان في هذا السياق منكرات من أشدها ذكر النساء ، فان المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجني لم يسلط على نساء سليمان بل عصمهن الله عز وجل منه تشريفا له ، وتكريما لنبيه عليه السلام .

قال : وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف رضي الله عنهم كعبد بن المسيب وزيد بن أسلم ، وجماعة آخرين وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

وقال يحيى بن أبي عروبة الشيباني : وجد سليمان خاتمه بعسقلان فمشى في خرقة الى بيت المقدس تواضعا لله عز وجل ، رواه ابن أبي حاتم . انتهى محل الغرض من ابن كثير رحمه الله تعالى (١) .

قلت : هذا التفسير وان كثر قائلوه مصادم لآيات من كتاب الله عز وجل وهي كقوله تعالى مخاطبا للشيطان (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) وكقوله (فبعزتك لأغوينهم أجمعين . الا عبادك منهم المخلصين) وهذه قصة ظاهرة الضعف من عدة وجوه :

أولها : ما ذكرته من معارضتها لظاهر الآيات القرآنية .

وثانيها : أنها مروية من طريق ابن عباس ، وابن عباس قد قدمنا في سورة هود في الكلام على قوله تعالى (ونادى نوح ابنه الى قوله انه ليس من أهلك) أنه قال : " ما بغت امرأة نبي قط " . وهذه القصة مذكور فيها ما ينافي ذلك .

وثالثها : أنها متضاربة الألفاظ والمعاني ، فتارة يقولون : أعطى الخاتم لامرأته الجرادة ، وأخرى لامرأته المسطة : الأيمنة ، وأخرى طلب منه الجني أن يريه الخاتم فأعطاه اياه .

ومنها أن سليمان كان لا يعرف الا بالخاتم والناس يكذبونه ، ويبطشون به ، وسليمان معروف من صغره قبل الخاتم ، والملك ، وكذلك كون الملك مكتوبا

---

(١) ابن كثير . المصدر السابق . ج ٤ . ص ٣٨ — ٣٩

فى الخاتم فهذا مستبعد عقلا ، ولم يوجد فيه نقل صحيح علمناه .

والاشكال حينئذ ، هو كيف ينقل ابن عباس وهو حبر هذه الأمة ، وترجمان القرآن ، مثل هذه القصص عن أهل الكتاب ، كما قال ابن كثير ، وهى متضاربة ، ولا تليق بمناصب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

والجواب عن ذلك ممكن تلخيصه فيما يلى :

أولا : أن مكانة ابن عباس وكونه ترجمان القرآن ، فذلك باب احتمال الدس والكيد ، ووجه ذلك أن من كان يريد الحط من قدر الأنبياء فلابد من أن يأتى بسند قوى ينتهى الى محل موثوق به ، ثم يبعد نفسه ولا يرى له ذكر ، ويساعد على هذا أن الاسرائيليات كان مأذونا فيها ، ما لم تكذب شرعنا ، فاذا كذبته روينا ها وكذبناها ، وهذه من هذا النوع .

وثانيها : أن ابن عباس وان ورد فيه نص أنه ترجمان القرآن ، لكن لم يرد فيه نص أنه معصوم من الخطأ ، والذين رووا عنه كذلك . والحاصل أن ظاهر الآيات الدالة على أن الشيطان ممنوع من التسليط على الأنبياء ، لا يمكن رده بهذه القصص التى رويت عن بعض الصحابة ، وبعض التابعين لاحتمال كونهم تلقوها من أهل الكتاب . والدليل اذا دخله الاحتمال ، سقط به الاستدلال ، وأيضا أنها أخبار آحاد لا تقاوم المتواتر المفيد للقطع اجماعا ، وهى لا تفيد الا الظن ، والقطع ، لا يرفع بالظن ، والعلم عند الله تعالى .

وأما القول بأن سليمان عليه السلام ابتلى بمرض أضعف جسمه حتى صار كأنه جسد لا روح فيه فقد ذكره أبو حيان عن قوم لم يعينهم ولم يذكر لهم دليلا ، وأما هو فيميل الى الرأى الأول ، وأن الآية بينها حديث الصحيحين

أن سليمان حلف ليطوفن على سبعين امرأة الى آخر الحديث . وهذا نص كلام أبى حيان فى البحر قال بعد قوله تعالى (ولقد فتنا سليمان) الآية : نقل المفسرون فى هذه الفتنة والقاء الجسد أقوالا يجب براءة الانبياء منها يوقف عليها فى كتبهم وهى مما لا يحل نقلها ، وأما هى فمن وضع اليهود والزنادقة (والملحدين) . ولم يبين الله الفتنة ما هى ، ولا الجسد الذى ألقاه على كرسى سليمان ، وأقرب ما قيل فيه أن المراد بالفتنة كونه لم يستثن فى الحديث الذى قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ولم يقل : ان شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل الا امرأة واحدة ، جاءته بشق رجل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذى نفسى بيده لو قال : ان شاء الله ، لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون) فالمراد بقوله : (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا) ، هو هذا والجسد الملقى هو المولود شق رجل ، " قال " : وقال قوم : مرض سليمان مرضا كالاغماء حتى صار على كرسيه جسدا كأنه بلا روح .

ولما أمر تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر على ما يقول كفار قريش ، وغيرهم ، أمره بأن يذكر من ابتلى فصبر فذكر قصة داود وقصة سليمان ، وقصة أيوب ليتأسى بهم ، وذكر ما لهم عنده من الزلفى ، فلم يكن ليذكر من يتأسى به ممن نسب المفسرون اليه ما يحلم أن يتفوه به ، ويستحيل عقلا وجود بعض ما ذكروه كتمثل الشيطان بصورة نبى حتى يلتبس أمره عند الناس ، ويعتقدون أن ذلك المتصور ، هو النبى ، ولو أمكن وجود هذا ، لم يوثق بارسال نبى ، وانما هذه مقالة مسترقة ، من زنادقة السوفسطائية ، نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها (قال) (ثم أناب) أى بعد امتحاننا اياه ، أدام الانابة والرجوع) انتهى منه بلفظه (١)

(١) البحر المحيط . المصدر السابق . جـ ٧ . ص ٣٩٧

قلت : وأيد هذا ما رجحه القرطبي ،قال : (وقد ضعف هذا القول بأن الشيطان لا يتصور بصور الأنبياء ، ثم من المحال أن يلتبس على أهل مملكة سليمان ، الشيطان بسليمان حتى يظنوا أنهم مع نبيهم في حق وهم مع الشيطان في باطل (١) . انتهى محل الغرض منه .

قلت : وهذا القول الذي ذكره أبوحيان عن قوم أن الجسد هو سليمان نفسه بسبب المرض لا يعكره غير أن تقدير الكلام يكون : ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا وهذا التقدير سائغ لا ركاكة فيه ، ولو كان صحيحا لما عدل عنه في لفظ الآية الكريمة .

وظاهر الآية يدل دلالة واضحة على أن هذا الجسد غير سليمان ، وهذا الظاهر لا يجوز العدول عنه الا لدليل صريح ، وأيضا حذف الضمير هنا غير مألوف بل المألوف حذف ضمير الصلة لأن وجوده متعين فاذا حذف ، عرف ، ولذلك كثر حذفه . قال ابن مالك :

* والحذف عندهم كثير منجلي * في عائد متصل ان انتصب بفعل أو وصف كمن نرجو يهب .

وعلى هذا فان هذا القول مردود من جهة اللغة العربية ، وقائله لم يذكر له دليلا شرعيا .

وأما العقل فلا يبعده ، ولكن العقل وحده ، لا يكفي في التوصل الى الحق ، والعلم عند الله تعالى .

وأما الرأي الرابع الذي تقدم أنه متأخر جدا ، وأنه لا يصادم نصوص

---

(١) القرطبي . المصدر السابق . ج ١٥ . ص ٢٠١

الوحى وليس يقادح فى عصمة النبى سليمان عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وهو أن سليمان عليه السلام لما عقر الخيل ، لم يصب الصواب فى ذلك ، وكان الأولى والأفضل أن يتصدق بها على المحتاجين ، وأن ذلك أعم نفعا ، فلما لم يوافق الأولى ، كانت هذه هى فتنته ثم عاتبه الله جل وعلا ، بأن نزع منه ملكه وأرسل له ملكا من ملائكته يتولى الحكم بين الناس ، وألقى عليه شبه سليمان عليه السلام ، لأن الملائكة هم الذين سخرهم الله لخدمة الخلق يرسلهم بالوحى ويرسلهم بالرزق ، ويرسلهم بالعذاب ، ويرسلهم للاختبار ، وكذلك اذا أراد أن يعاتب نبيه ناسب ذلك أن يرسل له ملكا فى صورته جريا على هذه السنة بينما يتوب ويرجع الى ربه ، فهذا أولى من تسليط الشيطان الذى فيه ما تقدم من المس لجانب النبوة ، والمصادمة مع الآيات القرآنية . وهذا نص كلام شيخنا فضيلة الدكتور الشيخ السماحى قال :

وحاصل فتنته أنه عرض الخيل الأصيلة وكانت كثيرة جدا - فى العشى ، فاستغرق عرضها وقتا طويلا ، أنساه ذكر ربه فلما توارت فى مقارها تذكر ربه فغضب وأمر باحضارها مرة ثانية وقطع سوقها ، وأعناقها ، وما كان هكذا علاج الرسل ، لما وقعوا فيه من السهو ، والخطأ ، فما كان للخيل ذنب حتى تقطع رقابها ، وما كان الخير الذى شغله هو المفرط حتى يهلكها ، من غير فائدة ، ولو تصدق بها على المحتاجين مثلا لكان عملا صحيحا يكفر عنه تفريطه ، لكن سليمان لم يصبر ولم يتصبر فوقع فى الفتنة لا عن قصد المعصية ، هنا جاءه العتاب من الله تعالى . اذ سلط (عليه) من تمثل بصورته ، وتجسد بمثاله ، وجلس على كرسيه ، فظنه الحرس أنه سليمان . فلما جاء سليمان الحقيقى ، ظنوه شبيه سليمان فمنعوه ، فلما تنبه سليمان عليه الصلاة والسلام ، استغفر ربه وأناب) فقال : (رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى انك أنت الوهاب) .

أما ما يصاغ حول هذا من قصص فهو قصص وهمي مخترع ، وباطل لم يثبت بنقل وحي صادق فلا يلتفت (١) اليه) انتهى محل الغرض منه بلفظه .

وقد شافهني بأن ذلك الجسد هو الملك ، وزاد في التوجيه وبين بما لم أذكره هنا لضياعه من ذهني . وبهذا تظهر براءة سليمان عليه السلام من أنه صدر منه ما يخل بالعصمة لأن الآراء المذكورة كلها لم تذكر ما يدل على شيء من ذلك لأن بعضها ذكر أنه لم يستثن في الحديث والاستثناء لا يلزم الا مع التذكر له ، ولعله نسي الاستثناء ، والنسيان مرفوع على الصحيح ولم يعقل أحد أنه تركه عمدا جازما بأن ذلك يقع لا محالة دون تعليقه بمشيئة الله ، لأن ذلك كفر ، ولم يقل به أحد ، ولا يمكن أن يريد الجهاد في سبيل من يظن أن شيئا ما ، يقع دون مشيئته ، وانما لم يقل ان شاء الله مضمرا لمعناها ناسيا للتلفظ بها ، وان كان حلف فقد حنث فحسب ، والشرع لا يحرم ذلك وانما تلزم منه الكفارة كما دل على ذلك قوله تعالى لأيوب عليه السلام (فخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث) ، وان لم يستثن فقد ترك المندوب فقط ، وعليه فهو مصب العتاب وقد تقدم أن الصحيح أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يصدر منهم مثل ذلك ، ولكن لا يقرون عليه وترفع لهم به الدرجات أي بسبب الانابة منه والعلم عند الله تعالى .

وأما الرأي الثاني أنه أودع الخاتم وأخذه الشيطان فلا دلالة فيه ألبتة على أنه صدر منه أي عصيان ، وانما الذي ينبني عليه معارضة الآيات التي هي ظاهرة في عدم تسليط الشيطان على الأنبياء ، بأي نوع من أنواع التسليط ، وعليه

(١) محمد محمد السماحي ، مشاغل على مسيرة الوحي . الناشر : جامعة الملك عبد العزيز . سنة ١٩٣ هـ ج ١ . ص ٧ - ٧١

فهذا القول مردود كما عليه المحققون من أهل العلم . وعلى فرض صحته فيجاب عنه بأن التسليط المنفى يحمل على تسليط يؤثر على عقائدهم أويؤدى الى عدم الامانة فى التبليغ ، ولا ينافى ذلك غيره من التسليط فيما لا تأثير له عليهم أوفيما يختص بأمور الدنيا . والعلم عند الله تعالى .

وأما الرأى الثالث القائل بأنه مرض حتى صار كالجسد ، كأنه لا روح فيه وأنه صبر على ذلك حتى عادت له صحته فذلك لا منقصة فيه مادام لم يكن منفرا ، فاذا كان كذلك منع لأن المنفرات لا تجوز فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لأنها تعوق التبليغ فهى ممنوعة عقلا . وأما غيرها فجائز . قال ابن عاشر فى منظومته :

يجوز فى حقهم كل عرض * ليس مؤديا لنقص كالمرض

وكونه ابتلى وصبر فهى منقبة ، وليست بمعصية . والله تعالى أعلم .

وأما الرأى الرابع الذى جزم به شيخنا فضيلة الدكتور السماحى فليس فيه غير أن عقوه للخيل كان أولى منه التصدق بها ، وأعم نفعا فهو الاولى وهذا لا خلاف فى صدوره عن الانبياء . والدليل عليه ، ماحصل من نبينا صلى الله عليه وسلم فى موقعة بدر ككونه أخذ الفداء ، ولم يقتل كفار قريش ، وكاذنه للمنافقين فى غزوة تبوك ، فأنزل الله فى الاولى (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الارض) الآيات ، وأنزل فى الثانية (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) . وهذا لا يسمى معصية ، وانما يسمى خلاف الاولى ، ولما كان الانبياء ليسوا كغيرهم ، فلا يقرون على مثل ذلك ، بل لابد من تنبيههم وعتابهم ليكونوا على تيقظ دائم وتجنب لما يخالف الاولى ، والافضل ، والعلم عند الله تعالى .

المبحث الثالث

فيما ظهر رجحانه

اعلم أن أرجح هذه الأقوال عندى وأقربها لظاهر الآيات ، هو ما اختاره فضيلة الشيخ السماحى وذلك لانه لم يأت بقرينة منفصلة عن الآيات ، بل ما أتى به كله من ظاهر الآية . ووجه ذلك أن قوله انه عقر الخيل وعقرها أولى منه التصدق بها وأعم نفعا ، فهذا مأخوذ من قوله (فطفق مسحا بالسوق والاعناق) ، وكون التصدق بها أعم نفعا فهذا مسلم به عقلا ، وكون هذه هى الفتنة التى ذكر الله عن نبيه سليمان ، فذلك ظاهر من الترتيب الذكرى القرآنى لأن الله جل وعلا بعد ما جاء بذكر الفتنة جاء بعدها بنبأ الخيل مباشرة فذلك قرينة على قوة اقتران الفتنة بقضية الخيل قال تعالى (اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد . فقال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب . ردوها على فطفق مسحا بالسوق والاعناق . ولقد فتنا سليمان ، وألقينا على كرسيه جسدا) أى ولقد ابتليناه فى شأن الخيل فلم يصب الاولى فعاتبناه بأن جعلنا ملكا من ملائكتنا على كرسى ملكه لينتبه فيتوب فيرجع الى ملكه بعد الانابة ، وكونه فسر الجسد بالملك وان كان لم يذكره أحد علمته قبله فهو ليس ببعيد ولا فادح ولا معارض لكتاب الله تعالى كمعارضة غيره من الأقوال المثبتة أن للشيطان سلطانا على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . والذى سوغه هو ما تقدم من أن الملائكة هم الواسطة بين الله جل وعلا ورسله يسلطهم على من شاء ويرحم بواسطتهم من شاء وهذا مجرد ترجيح لهذا الرأى على غيره من الآراء التى لا تخلو من ضعف أو قدح . وأما ما تطمئن اليه نفسى حقيقة ونفس كل مؤمن هو أن سليمان ابتلى بشىء لا نعلمه ، وعوقب بذلك الجسد الذى لا نعلم ما هو ولم يأت بيان قطعى لذلك .

والنبى صلى الله عليه وسلم يقول (دع ما يريبك الى مالا يريبك) ، والذى لا ريب فيه هو أن سليمان ابتلى ، وألقى على كرسيه جسدا ، وما سوى ذلك فقد ارتاب فيه جميع الذين تقدم ذكرهم فى هذا البحث ، والعلم عند الله تعالى .

وقد تم الكلام هنا فى شأن الخيل والفتنة والجسد ، وأرجو الله تعالى ألا أكون قد خضت فيما لا خلاص منه ، والله ولى التوفيق . ونشرع الآن فى الكلام على نبى الله أيوب عليه الصلاة والسلام .

أيـوب عليـه الســـلام

الفصـــــل التاســـــع

فى الكلام على نبى الله أيوب عليه وعلى نبينا الصـــلاة والســـلام

المبحـــث الاول

والكلام فيه فى الاشكال الوارد فى قوله تعالى فى سورة "ص" (واذكـر عبدنا أيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب)الآية (١) .

ووجه ذلك أنه كيف قال : مسنى الشيطان ، ومعروف أن الشيطـــان لا سلطان له على مثله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما دلت على ذلك الآيات القرآنية كقوله تعالى : (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعـك مـــن الغاوين) ، ومعلوم قطعا أن أيوب عليه السلام ليس من الغاوين ، بل من الانبياء المهتدين الذين أمر الله جل وعلا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بهم فى هداهم ، وذلك فى قوله تعالى (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ، الـــى قوله " أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وكقوله تعالى (انه ليـس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . انما سلطانه على الذين يتولونــــه والذين هم به مشركون) . ومعلوم قطعا أن أيوب عليه السلام من الذين آمنـوا وعلى ربهم يتوكلون) بل هو مضرب المثل فى التوكل على الله تعالى والصبر علـــى بلائه .

---

(١)

وأيضا فانه من المعلوم ضرورة لكل مسلم أن الأمور كلها مرجعها الى الله جل وعلا ، فكيف نسب أيوب عليه السلام ذلك المس الى الشيطان وهو يعلم أنه ابتلاء من الله تعالى ؟

هذا هو الاشكال حول هذا النبى الكريم صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية الكريمة . وقد أجاب العلماء عنه بأجوبة فى غالبها مختلفة العبارات ، ومتفقة فى الاعتبارات .

المبحث الأول

فقال بعضهم انه نسبها الى الشيطان تأدبا مع الله جل وعلا كقول فتى موسى (وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره) .

وقال آخرون : انه لما كانت أسباب ذلك الالم باشرها الشيطان ، أسندت اليه مراعاة لذلك . وأجابوا عن معارضة هذه الآية التى يفهم منها أن للشيطان سلطانا ما على الانبياء للآيات النافية لذلك ، بأن السلطان المنفى فى الآية التى ذكرتها ، عام فى كل شىء الا الوسوسة ، والسلطان المفهوم من أية " ص " هذه صادق بالوسوسة التى تذهب بالتوكل ، وقوة الايمان .

اذا عرفت هذا ، فاليك أقوالهم معزوة مع ما لها من الأدلة العقلية والنقلية ومناقشتها لانك تجد فى عباراتهم من البلاغة مايملأ ك علما ، وفهما . وهو المبحث الثانى .

المبحث الثـــانى

فـى عـــزو الاقوال وأدلتها ومناقشتهـا

اعلم أنهم اختلفوافى نوع هذا النصب ، والعذاب • وكل منهم بنـــى قوله فى المسألة على ماذهب اليه • من ذلك ، قال الكلبى ما نصه :

(فان قلت : لم نسب ما أصابه من البلاء الى الشيطان ؟ فالجواب من أربعة أوجه :

أحدها : أن سبب ذلك كان الشيطان • فانه روى أنه دخل على بعض الملوك فرأى منكرا فلم يغيره • وقيل : كانت شاة فذبحها وطبخها ، وكان جار له جائع فلم يعط جاره منها شيئا •

وثانيها : أنه أراد ما وسوس له الشيطان فى مرضه من الجزع ، وكراهة البـلاء ، فدعا الله أن يدفع عنه وسوسة الشيطان بذلك •

وثالثها : أنه روى أن الله سلط عليه الشيطان ليفتنه فأهلك ماله فصبر وأهلـك أولاده فصبر ، وأصابه الجذام والمرض الشديد فنسب ذلك الى الشيطان لتسليطه عليـه •

ورابعها : روى أن الشيطان لقى امرأة أيوب ، فقال لها قولى لزوجك ، ان سجد لى سجدة أذهبت مابه من المرض • فذكرت المرأة ذلك لأيوب ، فقال لها ذلك عدو الله الشيطان وحينئذ دعا بذلك الدعاء الذى منه : انى مسنـى الشيطان ، فكانت نسبة المس لهذه الوساوس • انتهى محل الغرض منه • (١)

(١) الكلبى محمد احمد • كتاب التسهيل لعلوم التنزيل • القاهرة

قلت : أما قوله : (دخل على أحد الملوك فرأى منكرا ، فلم يغيره) فهذا مردود لأن فيه اثبات نفوذ سلطان الشيطان على الأنبياء في عدم القيام بوظائفهم وهو محال لمعارضته نصوص الوحي ، ولا يقبله العقل أيضا . وكونه لم يعط جاره وهو جائع فهذا مستبعد ويحتاج الى دليل .

وأما باقي الأقوال ، ككون الشيطان وسوس له بكراهة البلاء ، أو أهلك ماله فصبر ، أو أنه وسوس لزوجته بما ذكر ، فهذا والله أعلم لا مانع منه شرعا ولا عقلا ويدل عليه ما ذكره صاحب الدر المنثور قال :

(وأخرج احمد في الزهد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ان ابليس ، قعد على الطريق فاتخذ تابوتا يداوي الناس ، فقالت امرأة أيوب : يا عبد الله ، ان ههنا مبتلى من أمره كذا وكذا . فهل لك أن تداويه ؟ قال : نعم بشرط ، ان أنا شفيته أن يقول : أنت شفيتني لا أريد منه أجرا غيره ، فأتت أيوب عليه السلام فذكرت ذلك له فقال : ويحك ذاك الشيطان . لله علي ان شفاني الله تعالى أن أجلدك مائة جلدة ، فلما شفاه الله تعالى أمره أن يأخذ ضغثا فأخذ غذقا فيه مائة شمراخ فضرب بها ضربة واحدة (١) . انتهى محل الغرض منه .

وقال الزمخشري في الكشاف : فان قلت : لم نسبه الى الشيطان ، ولا يجوز أن يسلطه الله على الأنبياء ليقضي من أتعابهم وتعذيبهم وطره ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا الا وقد نكبه ، وأهله ، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له الا الوسوسة فحسب ؟ قلت لما كانت وسوسته اليه وطاعته له ، سببا فيما مسه الله به من النصب والعذاب ، نسبه اليه وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم

(١) السيوطي . الدر المنثور في التفسير بالمأثور . الناشر محمد امين دمج بيروت

ينسبه الى الله فى دعائه مع أنه فاعله ولا يقدر عليه الا هو .

قال : وقيل : أراد ما كان يوسوس به اليه فى مرضه من تعظيم مانزل به من البلاء ،ويغريه على الكراهة ، والجزع ، فالتجأ الى الله تعالى فى أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو بالتوفيق فى دفعه وردّه بالصبر الجميل .

قال : وروى أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين ، فارتد أحدهم ،فسأل عنه فقيل : ألقى اليه الشيطان أن الله لا يبتلى الانبياء والصالحين .

(قال) : وذكر فى سبب بلائه أن رجلا استغاثه على ظالم فلم يغثه ،وقيل كانت مواشيه فتى ناحية ملك كافر فداهمه (١) ولم يغزه ، وقيل أعجب بكثرة ماله. انتهى محل الغرض منه (٢) .

قلت : أما قوله : وطاعته له فيما وسوس له به فذلك فاسد لعدم ليـاقتـه بمنصب النبوة ، وقد بناه على أصل لادليل عليه ، وهو كـون العذاب الـذى أصيب به أيوب من أجل مداهنته للملك الكافر حفاظا على رعى مواشيه ، أو العجب بكثرة ماله ، ولما كان لا دليل عليه فهو مردود عقلا وشرعا لاخلاله بالامانـة فـى التبليغ. وقد انعقد الاجماع على أن الانبياء معصومون من التحريف فيما أمـروا أن يبلغوه وأنهم معصومون من الكبائر . ومداهنة الكفار،مع الأمر بجهادهم ، حفاظا على رعى المواشى تحريف فى العمل بدليل أنه لو فعله أحد من اتباعـه اقتداء به كان ذلك سائغا ، وهو محال . وكذلك العجب من الكبائر ، بل هـو رأسها ، لانه أول معصية عصى الله بها ، والقدوة فيه الاولى ابليس ، وابليس

---

(١) الظاهر أنـها داهنه ، وأنه غلط مطبعى

(٢) الزمخشرى فى الكشاف المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٧٦

قد قال فيما حكى الله جل وعلا عنه (وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى) وماكان أيوب ليستجيب للشيطان حتى يوقعه فى هـذه الكبيرة العظمى والله أعلم .

وقد قال أبوحيان كلاما جيدا حول هذه المسألة وضمنه الرد على الزمخشرى فى كلامه السالف الذكر . واليك لفظه قال :

لما أمر الله نبيه بالصبر وذكر ابتلاء داود ، وسليمان وأثنى عليهمـا ، ذكر من كان أشد ابتلاء منهما وأنه كان فى غاية الصبر بحيث أثنى الله عليه بذلك ، (الى أن قال) : وقال الزمخشرى : لما كانت وسوسته اليه وطاعته له فيما وسوس ، سببا فيما مسه الله به من النصب والعذاب الى آخر كلام الزمخشرى الآنف الذكر .

قال أبوحيان : ولا يناسب مناصب الأنبياء ما ذكره الزمخشرى من أن أيوب كانت منه طاعة للشيطان فيما وسوس به ، وأن ذلك كان سببا لما مسه الله به من النصب والعذاب ، ولا أن رجلا استغاثه على ظالم فلم يغثه ، ولا أنه داهن كافرا ، ولا أنه أعجب بكثرة ماله ، وكذلك ما رووا أن الشيطان سلطه الله عليه حتى أذهب أهله ، وماله ، لا يمكن أن يصح ، ولا قدرة له على البشر الا بالقاء الوساوس الفاسدة لغير المعصوم .

(قال) : والذى نقوله : أنه تعالى ، ابتلى أيوب عليه السلام فى جسده وأهله على ما روى فى الأخبار . وروى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أن أيوب بقى فى محنته ثمانى عشرة سنة يتساقط لحمه ، حتى ملة العالم ، ولم يصبر عليه الا امرأته ، ولم يبين لنا توالى السبب المقتضى لعلته ، وأما اسناده المس الى

الشيطان ، فسبب ذلك أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين ، فارتد أحدهم فسأل عنه فقيل ألقى اليه الشيطان أن الله لا يبتلى الانبياء والصالحين ، فحينئذ ، قال : مسنى الشيطان ، نزل ، لشفقته على المؤمنين ، مس الشيطان ذلك المؤمن حتى ارتد ، منزلة مسه لنفسه ، لأن المؤمن الخير يتألم برجوع المؤمن الخير الى الكفر . ولذلك جاء بعده (اركض برجلك) ، حتى يغتسل ، ويذهب عنه البلاء فلا يرتد احد من المؤمنين بسبب طول بلائه وتسويل الشيطان أنه تعالى ، لا يبتلى الانبياء . وقيل : أشار بقوله : مسنى الشيطان الى تعريضه ، لامرأته وطلبه أن تشرك بالله وكأنه يتشكى هذا الامر ، كان عليه أشد من مرضه (١)) انتهى محل الغرض منه .

قلت : وهذا أحسن ماقيل فى هذا الموضوع لملاءمته لمقام النبوة ، وعدم مصادمته لنصوص الوحى ويؤيده العقل السليم لثناء الله جل وعلا على أيوب عليه السلام . قال تعالى (انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) .

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى فى تفسيره عند هذه الآية الكريمة ، (واذكر عبدنا أيوب) الآية : يذكر تبارك وتعالى عبده ، ورسوله أيوب عليه الصلاة والسلام وما كان ابتلاه تعالى به من الضر فى جسده ، وماله ، وولده حتى لم يبق من جسده مغرز ابرة سليما سوى قلبه ، ولم يتبق له من الدنيا شىء يستعين به على مرضه ، وما هو فيه . غير أن زوجته حفظت وده لايمانها بالله تعالى ورسوله ، فكانت تخدم الناس بالأجرة ، وتطعمه وتخدمه ، نحوا من ثماني عشرة سنة . وقد كان قبل ذلك فى مال جزيل ، وأولاد ، وسعة طائلة من الدنيا ، فسلب جميع ذلك حتى آل به الحال الى أن ألقى على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة

---

(١) أبوحيان . المصدر السابق . ج ٧ ص ٤٠٠

بكمالها ، ورفضه القريب ، والبعيد سوى زوجته رضى الله عنها فانها كانت لا تفارقه صباحا ، ومساء الا بسبب خدمة الناس ثم تعود اليه قريبا فلما طال المطال ، واشتد الحال ، وانتهى القدر ، وتم الأجل المقدر ، تضرع الى رب العالمين واله المرسلين ، فقال : انى مسنى الشيطان .

قيل : بنصب فى بدنى وعذاب فى مالى وولدى ، فعند ذلك ، استجاب له رب العالمين ، وأرحم الراحمين ، وأمره أن يقوم من مقامه ، وأن يركض الأرض برجله ، ففعل ، فأنبع الله له عينا أخرى ، وأمره أن يشرب منها ، فأذهبت جميع ماكان فى باطنه من السوء ، وتكاملت العافية ظاهرا ، وباطنا ، ولهذا قال تبارك وتعالى (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) . (ثم قال) :

قال ابن جرير ، وابن أبى حاتم جميعا : حدثنا يونس بن عبد الاعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى نافع بن يزيد عن عقيل عن ابن شهاب عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان نبى الله أيوب عليه الصلاة والسلام لبث فى بلائه ثمانى عشرة سنة . فرفضه القريب والبعيد الا رجلين كانا من أخص اخواته به ، كانا يغدوان اليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله ، لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد فى العالمين . قال صاحبه : وما ذاك ؟ قال منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى فيكشف مابه فلما راحا اليه ، لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب عليه الصلاة والسلام : لا أدرى ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان ، فيذكران الله تعالى ، فأرجع الى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى الا فى حق ، قال : وكان يخرج الى حاجته ، فاذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها ، فأوحى الله تبارك وتعالى الى أيوب عليه

الصلاة والسلام أن (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب)فاستبطأته ، فالتفتت تنظر ، فأقبل عليها ، قد أذهب الله مابه من البلاء ، وهو على أحسن ما كان فلما رأته ، قالت : أى بارك الله فيك ،هل رأيت نبى الله هذا المبتلى ، فوالله القدير على ذلك ما رأيت رجلا أشبه به منك اذ كان صحيحا قال : فانى أناهو ، (قال) : وكان له أندران : أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله تعالى سحابتين فلما كانت احداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير حتى فاض. هذا لفظ ابن جرير رحمه الله تعالى (١) . انتهى محل الغرض منه .

قلت والغرض من سياق كلامه رحمه الله تعالى هنا هوالاستشهاد به على أن الآية ليس فيها شىء مما ذكره غيره مما لا يليق بمقام النبوة اذ لو كان فيها شىء مما ذكروا لأتى به رحمه الله ، وذلك لكثرة اطلاعه ، وكونه يجمع فى تفسيره بين الرواية والدراية . غير أن ما ذكره فى أول كلامه من كون أيوب عليه السلام ألقى على مزبلة البلدة ، لا يليق بمنصب النبوة ويتنافى مع المسألة المشهورة عند المسلمين من أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا تجوز فى حقهم الأمراض المؤدية للنقص ، وهى المنفرة كالجذام ، وما أشبهه . وعليه فنحمل ما قاله على المبالغة فى طول البلاء وشدته لأنه قد يطول ويشتد ، ولا يكون منفرا ، ولكنه اذ اطال واشتد زهد الناس فى صاحبه وتخلو عن عيادته ، وهذا أمر مشاهد فى غالب الناس. وهذا مال اليه أبوحيان ، يوافقه ما أجاب به الرازى عن الشبهة التى تمسك بها الحشوية والكرامية حول أيوب عليه السلام فى هذه الآية الكريمة . وفيما يلى نص جوابه .

---

(١) ابن كثير المصدر السابق جـ ٤ ص ٤٣

شبهـــات الحشويـــــة

ورد الـــــرازى عليهـــــا

قال الرازى : (حكى الله تعالى أنه قال " مسنى الشيطان بنصب وعذاب " والعذاب لا يكون الاجزاء كالعقاب ، فدل على كونه مذنبا • وروى جمع من المفسرين أن الله تعالى انما عاقبه بذلك البلاء لترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر • (ثم قال) (جوابه) : لا نسلم أن العذاب لا يكون الا جزاء • ولهذا يقال للظالم المبتدئ بالظلم : انه يعذب الناس • فأما اضافة ذلك الى الشيطان ، فنقول : انه عليه السلام ما أضاف المرض الى الشيطان ، وانما أضاف اليه ما يشعر به من وسوسته ، وتذكره له مما كان فيه من النعم ، والعافية ، ودعائه له الى التضجر ، ولأنه كان يوسوس الى قومه بأن يستقذروه ، لما كان عليه من الأمراض البشعة المنظر ، وأيضا فان الله تعالى مدحه فى آخر الآية بقوله " انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) فلو كان أول الآية دالا على كونه مذنبا ، لكان مدحه عقيب ذلك ، موهما أنه على ذنبه وهو غير جائز • والله الموفق) انتهى منه بلفظه •

قلت : وقد رأيت فى كلامه تأييد ما مال اليه أبوحيان فى البحر تماما ولكن يؤخذ عليه فى هذه المسألة قوله : أن قومه استقذروه لما كان عليه من الأمراض البشعة المنظر ، وكان صوابه أن يقول ان قومه ضجروا من طول مرضه ، وتركوه ، لأن هذه هى عادة البشر قاطبة كلما طال مرض انسان مهما كانت مكانته ، وشرفه فلابد من أن يمله أكثر الناس ، ولا يلزم من ذلك أنه من الأمراض المنفرة ، وانما طبيعة البشر الملل والله تعالى أعلم •

ترجيح ما ظهر لي رجحانـــه

اعلم أن التحقيق الذي لا يجوز القول بغيره عندي ، هو أن هذا النصب ، والعذاب اللذين مس الشيطان بهما نبي الله جل وعلا ، هما المشقة والألـــم الناشئان عن وساوس الشيطان .

وهذه الوساوس أعم من أن تكون لأيوب عليه السلام وحده ، بل وبعضها له ، وبعضها لقومه ، وأتباعه ، ووجه ذلك أنه مثلا يوسوس له هو بأنه يستعظـــم البلاء ، وأن الله جل ذكره قد تخلى عنه وتركه ، ونظير هذا ما ثبت أن بعض كفار قريش لما فتر عنه الوحي مدة قال له : ما أرى ربك الا قد ودعك ، وفي روايـــة : ما أرى شيطانك الا قد تركك . ومعلوم أن ذلك بوحي من الشيطان اليهـــم ويوسوس له بأن قومه قد رجعوا عن دينهم ، ولقومه بأنه غير نبي ، لأنه لو كـــان نبيا حقا ما ابتلي بهذا البلاء الشديد الطويل المدة .

ولا يخفى أن هذه الوساوس وبعضها مؤثر (١) ، وقد يؤدي الى التنكر علـــى أيوب عليه السلام ، والتخلي عن مبادئه ، لأنهم غير معصومين من ذلك كما هو معروف والداعية اذا كان مخلصا ، لا يرى شيئا أشد عليه ألما ولا مشقة من افساد قومـــه وارجاعهم عن مبادئهم السمحة والقرآن الكريم شاهد على ذلك قال تعالى (فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) الآية (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) الآية .

وقد بنيت هذا الرأي على أصلين مسلم بهما عند عامة المسلمين :

أحدهما : أن الشيطان معروف العداوة للأنبياء وأتباعهم من أولهم الى آخرهـــم ، قال تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب

(١) وهو ما كان منها الى اتباع أيوب عليه الصلام

السعير) ، (يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) ، (يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) الآية .

وثانيهما : أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بأنه كثير الوسوسة لجميع الناس ، ولم يستثن منهم أحدا ، وذلك فى قوله تعالى (قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . اله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس) . فتراه فى هذه الآية الكريمة صرح بأنه كثير الوسوسة فى صدور الناس ، فهو يوسوس لأيوب ، ولا يؤثر عليه لأنه يعرفه ، وكيده ، وقد عصمه الله منه للأدلة التى تقدمت فى أول هذا البحث ، ويوسوس لأتباعه ، وقد يغترون بوساوسه ، لأنهم غير معصومين ، وقد لا يعرفونه ، ويوسوس لزوجته وهى لا تعرفه ، وليست ممن عصمهم الله من سلطانه ، وذلك يشق على أيوب عليه السلام ، ويجد منه العذاب الأليم . فلذلك تضرع الى ربه عز وجل ليكشف عنه هذا البلاء الذى كان سببا فى وسوسة ابليس لقومه وأتباعه ، وقد تقدم ما يؤيد هذا من كلام ابن كثير والزمخشرى ، وغيرهم .

وبهذا أمكن الجمع بين آية أيوب هذه ، والآيات الدالة على أن الشيطان لا سلطان له على عباد الله المخلصين . والجمع اذا أمكن وجب المصير اليه لأن اعمال الدليلين أولى من الغائهما أو أحدهما . وبه أيضا تثبت براءة أيوب عليه السلام من مس الشيطان بما ينافى عصمته المفهومة من قوله تعالى (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) وأمثالها فى القرآن الكريم . والعلم عند الله تعالى .

وبهذا ينتهى الكلام حول أيوب عليه السلام ، ويليه ان شاء الله الكلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ،

والكلام فيه حول ابطال قصة الغرانيق ، وحول آية الأحزاب ، وهي قوله تعالى : (وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ، وقوله تعالى : (انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) الآية ، وقوله تعالى : (ووجدك ضالا فهدى) ، وقوله تعالى : (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) الآية ، وأمثالها من الآيات . ونرجو الله تعالى أن يهدينا لما اختلف فيه من الحق باذنه . انه سميع مجيب .

(قصـــة الغرانيــــــــــق)

الفصـــل العاشـــــر

فى قصة الغرانيــق والكلام فيها حول آية من سورة الحج هى قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم. ليجعل ما يلقـــــى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفى شقـــاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم) الآية (١) .

اعلم أن هذه الآية الكريمة ذكر أكثر المفسرين أن سبب نزولهـــا ، أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ليلة من الليالى يقرأ سورة " والنجم " فى مكة فـــى المسجد الحرام فلما بلغ من السورة قوله تعالى : (ومناة الثالثة الأخرى) ألقى الشيطان فى قراءته (تلك الغرانيق العلا .. وان شفاعتهن لترتجـــى) ثم سجد وسجد المشركون معه ، والمسلمون ، ولما فشا هذا الخبر فى الناس وعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل : جاءه جبريل عليه السلام وقال له : ما أقرأتك هذا ، حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا ، فأنزل الله آية الحـــج هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم (وما أرسلنا من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) الآية .

وفى قوله (تمنى) وجهان من التفسير أحدهما أنه " قرأ " وثانيهمـــــا أنه " اشتهى " وعلى تفسيرها بالمعنى الثانى ، يبعد الاستشهاد لهـــا بـــأن

---

(١) سورة الحج آية ٥٢

سبب نزولها قراءته صلى الله عليه وسلم لسورة النجم ،وقراءته لتلك الألفاظ المزعومة ، وفي المسألة خلاف قوى بين العلماء ، وفيها أقوال كثيرة لا يمكن حصرها في هذه العجالة ، والمحققون من السلف والخلف قد أبطلوها وأنكروها ، بالبراهين النقلية ، والعقلية بما لا مزيد عليه ولله الحمد . وبذلك خالفوا كثيرا من علماء التفسير والحديث منهم الأجلاء الذين يشار اليهم بالبنان ، وتفاسيرهم معتمدة عند الناس ، ولكن المعصوم من عصمه الله جل وعلا .

وسأشرع الآن في ذكر نبذ من أقوال أهل التفسير المثبتين لهذه القصة ، وما لديهم من الأدلة ان وجد ، ثم نذكر أقوال المحققين منهم ومن غيرهم في الرد عليهم ، وابطال الشبه التي نيطت بهذه القصة ، ثم نرجح ان شاء الله ماظهر رجحانه من ذلك .

وقبل الشروع في ذلك فلابد من المامة قليلة بتحليل معنى قوله تعالى : (الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) الآية ،مع الاحالة على مأخذها .

قال شيخنا : (معنى قوله تعالى : تمنى في هذه الآية الكريمة ، فيه للعلماء وجهان من التفسير معروفان :

الأول : أن تمنى بمعنى : قرأ وتلا ، ومنه قول حسان في عثمان رضي الله عنه :

تمنى كتاب الله أول ليلة * وآخرها لاقى حمام المقادر

وقول الآخر :

تمنى كتاب الله آخر ليلة * تمنى داود الزبور على رسل

فمعنى تمنى في البيتين : قرأ ،وتلا . (قال)

وفي صحيح البخاري ، عن ابن عباس أنه قال : اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته : اذا حدث ألقى الشيطان . وكون ا تمنى بمعنى : حدث

وقرأ وتلا . هو قول أكثر المفسرين .

القول الثاني : أن تمنى في الآية من التمني المعروف وهو تمنيه اسلام أمته ، وطاعتهم لله ولرسوله ، ومفعول ألقى : محذوف فعلى أن تمنى بمعنى : أحب ايمان أمته ، وعلق أمله بذلك فمفعول ألقى : يظهر أنه من جنس الوساوس ، والصد عن دين الله حتى لا يتم للنبي أو الرسول ماتمنى) . (١) هـ

وعبارة أبي السعود : " الا اذا تمنى " أي : هيأ في نفسه ما يهواه " ألقى الشيطان في أمنيته " تشهيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه السلام " وانه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة " (فينسخ الله مايلقي الشيطان) فيبطله ، ويذهب به بعصمته عن الركون اليه ، وارشاده الى مايزيحه ، الى أن قال :

وقيل : تمنى لحرصه على ايمان قومه أن ينزل عليه مايقربهم اليه ، واستمر به ذلك حتى كان في ناديهم فنزلت عليه سورة النجم فأخذ يقرؤها ، فلما بلغ : ومناة الثالثة الأخرى ، وسوس اليه الشيطان حتى سبق لسانه سهوا الى أن قال تلك الغرانيق العلا ، الى آخر القصة . (٢)

وعبارة البيضاوي (الا اذا تمنى) زور في نفسه ما يهواه (ألقى الشيطان في أمنيته) في تشهيه مايوجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه السلام (وانه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة) ، الى أن قال : وقيل : تمنى لحرصه على ايمان قومه أن ينزل عليه ما يقربهم اليه ، واستمر به ذلك حتى كان في ناديهم

---

(١) أضواء البيان ، المصدر السابق ، ج ٥ ص ٧٢٧
(٢) أبو السعود ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٥

فنزلت سورة " والنجم " فأخذ يقرؤها فلما بلغ : ومناة الثالثة الأخرى ، وسوس اليه الشيطان حتى سبق لسانه سهوا الى أن قال : تلك الغرانيق العـــلا الى آخر القصة . (١)

أن

اذا عرفت هذا فاعلم ممن قال بقصة الغرانيق هذه : الزمخشرى فى كشافه كسابقيه البيضاوى ، وأبى السعود فقال ما نصه :

(والسبب فى نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أعرض عنه قومه ، وشاقوه ، وخالفه عشيرته ، ولم يشايعوه على ماجاء به ، تمنى ، لفرط ضجره من اعراضهم ، ولحرصه ، وتهالكه على اسلامهم ألا ينزل عليه ما ينفرهم لعله يتخذ ذلك طريقا الى استمالتهم ، واستنزالهم عن غيهم ، وعنادهم فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة : " والنجم " وهو فى نادى قومه ، وذلك التمنى فى نفسه ، فلما بلغ قوله : ومناة الثالثة الأخرى .. ، ألقى الشيطان فى أمنيته التى تمناها : أى : وسوس اليه بما شايعها به ، فسبق لسانه صلى الله عليه وسلم على سبيل السهو ، والغلط الى أن قال : تلك الغرانيق العلا . وان شفاعتهن لترتجى . وروى : الغرانقة ، ولم يفطن ، ولم يفطن له حتى أدركته العصمـــة فتنبه عليه السلام وقيل : نبهه جبريل عليه السلام ، أو تكلم الشيطان بذلـــك فأسمعه الناس ، فلما سجد فى آخرها ، سجد معه جميع من فى النادى ، وطابت نفوسهم ، وكان تمكين الشيطان من ذلك محنة من الله وابتلاء زاد المنافقون به شكا وظلمة ، والمؤمنون ، نورا ، وايقانا . (قال) :

والمعنى أن الرسل والأنبياء من قبلك كانت هجبيرا كذلك ، اذا تمنوا مثل ماتمنيت مكن الله الشيطان ليلقى فى أمانيهم مثل ما ألقى فى أمنيتك ارادة امتحان من حولهم ، والله سبحانه له أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحـــن

---

(١) البيضاوى ، المصدر السابق ، جـ ١٧ ص ٢٨٣

وأنواع الفتن ليضاعف ثواب الثابتين ، ويزيد فى عقاب المذبذبين ، قال :

وقيل : تمنى : قرأ ، وأنشد :

تمنى كتاب الله أول ليلة * تمنى داود الزبور على رسل

وأمنيته : قراءته ، وقيل : تلك الغرانيق : اشارة الى الملائكة ، أى هم الشفعاء لا الأصنام (١). انتهى محل الغرض منه .

قلت : وحاصل كلامه فى هذه القصة أنه يقرر ثبوتها ويجيب عن الاشكال الوارد عليها بأنها جيء بها من قبل الله جل وعلا ، امتحانا لاتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام ولكن هذه الاجابة لا تكفى فى هذه الشبهة العظيمة الخطورة ، لانه اذا جاز تمكين الشيطان من القاء ما يريد القاءه من الكفر ، وغيره على ألسنة رسل الله ، ويسمعه أتباعهم ، بطل الوثوق بجميع ما يأتون به من عند الله ، لاحتمال ألا يكون سالما من القاء الشيطان . وهذا باطل .

هذا مع ما سيأتى ان شاء الله فى آخر هذا البحث من الأدلة القاطعة بيطلان قصة الغرانيق هذه ، وأنها مكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد شايع الزمخشرى على رأيه هذا : الشيخ سليمان الجمل فقال ردا على القائلين بأن قصة الغرانيق ليس لها أصل " قال " : (ليس كذلك بل لها أصل فقد خرجها ابن أبى حاتم ، والطبرى ، وابن المنذر من طرق عن شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير ، وكذا ابن مردويه ، والبزار ، وابن اسحاق فى السيرة ، وموسى بن عقبة فى المغازى ، وأبو معشر فى السيرة . كما نبه عليه الحافظ ابن كثير وغيره . لكن قال : ان طرقها كلها مرسله ، وأنه لم يرها مسندة

---

(١) الكشاف ، المصدر السابق ، جـ ٣ ص ١٩

من وجه . (قال) وهذا متعقب بماسيأتى قريبا من اخراج جماعة لها عن ابن عباس ، وكذا نبه على ثبوت أصلها شيخ الاسلام ابن حجر العسقلانى فقال :

أخرج ابن أبى حاتم ، والطبرى ، وابن المنذر من طرق عن شعبة عن أبى بشر عن سعيد ابن جبير قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة (والنجم) فلما بلغ : (أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى) ألقى الشيطان على لسانه : (تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن لترتجى) فقال المشركون : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فلما بلغ ختم السورة سجد وسجدوا فكبر ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم ، فنزل تسلية له (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) أى فى قراءته بين كلماته .

قال : (وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق أمية ابن خالد عن شعبة فقال فى اسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب ثم ساق الحديث المذكور . وقال البزار : لا يروى متصلا الا بهذا الاسناد وتفرد بوصله أمية ابن خالد ، وهو ثقة مشهور . وقال البزار : انما يروى هذا من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس اهـ والكلبى متروك لايعتمد عليه ، وكذا أخرجه النحاس بسند آخر فيه الواقدى ، وذكرها ابن اسحاق فى السيرة مطولة ، وأسندها عن محمد بن كعب ، وكذا موسى بن عقبة فى المغازى عن ابن شهاب الزهرى ، وكذا أبو معشر فى السيرة له عن محمد بن كعب القرظى ، ومحمد بن قيس ، وأورده من طريق أبى معشر الطبرى ، وأورده ابن أبى حاتم من طريق أسباط عن السدى ، ورواه ابن مردويه من طريق عباد بن صهيب عن يحيى بن كثير عن الكلبى عن أبى صالح وعن أبى بكر الهذلى ، وأيوب عن عكرمة وعن سليمان التيمى عمن حدثه

ثلاثتهم عن ابن عباس. وأوردها الطبرى أيضا من طريق العوفى عن ابن عباس

(قال) : ومعناهم كلهم فى ذلك واحد ، وكل من طرقها سوى طريق (١) سعيد بن جبير ، اما ضعيف ، واما منقطع ، لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلا مع أن لها طريقين آخرين موسلين رجالهما على شرط الصحيح أحدهما أخرجه الطبرى من طريق يونس بن يزيد عن ابن شهاب ، حدثنى أبو بكر عبد الرحمن بن الحرث بن هشام فذكر نحوه . والثانى : ما أخرجه أيضا من طريق المعتمر بن سليمان وحماد بن سلمة كلاهما عن داود بن أبى هند عن أبى العالية .

(قال) : وقال الحافظ ابن حجر : وقد تجرأ ابن العربى كعادته فقال : ذكر الطبرى فى ذلك روايات كثيرة لا أصل لها (قال) : وهو اطلاق مردود عليه ، وكذا قول القاضى عياض : هذا الحديث لم يخرجه أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل مع ضعف نقلته ، واضطراب رواياته ، وانقطاع أسانيده .

وكذا قول عياض : ومن حكيت عنه هذه القصة من التابعين والمفسرين ، لم يسندها أحد منهم ، ولا رفعها الى صاحب ، وأكثر الطرق عنهم فى ذلك ضعيفة ، واهية ، فهذا مردود أيضا .

(قال) القاضى عياض : وقد بين البزار أن الحديث لا يعرف من طريق يجوز ذكره الا من طريق أبى بشر عن سعيد بن جبير مع الشك الذى وقع فى وصله ، وأما الكلبى ، فلا تجوز الرواية عنه لقوة ضعفه . ثم رده من طريق النظر ، بأن ذلك لو وقع لارتد كثير ممن أسلم . قال : ولم ينقل ذلك اهـ (قال) :

---

(١) قلت : وقد قال البزار : انما يعرف هذا من طريق الكلبى فتأمل .

وقال الحافظ ابن حجر : وجميع ذلك لا يتمشى على قواعد المحدثين فان الطرق اذا كثرت ، وتباينت مخارجها ، دل على أن لها أصلا ، وقد ذكرنا أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح ، وهي مراسيل يحتج بمثلها ، من يحتج بالمرسل ، وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض ، واذا تقرر ذلك ، تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر ، وهو قوله ألقى الشيطان على لسانه " تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن لترتجى " فان ذلك لا يجوز حمله على ظاهره لأنه يستحيل عليه صلى الله عليه وسلم أن يزيد في القرآن عمدا ما ليس فيه ، وكذا سهوا اذا كان مغايرا لما جاء به من التوحيد ، لمكان عصمته ، وقد سلك العلماء في ذلك التأويل مسالك نحو السبعة :

أولها : أنه جرى ذلك القول على لسانه حين أصابته سنة من النوم ، وهو لا يشعر فلما أعلمه الله بذلك أحكم آياته ، وهذا أخرجه الطبري عن قتادة . ورده القاضي عياض بأنه لا يصح ، لكونه لا يجوز على النبي ذلك ، ولا ولاية للشيطان عليه في النوم .

ثانيها : أنه ألجأه الشيطان الى أن قال ذلك بغير اختياره ، ورده ابن العربي بقوله تعالى حكاية عن الشيطان نفسه (وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي) قال : فلو كان للشيطان قوة على ذلك ، لما بقي لأحد قوة على طاعة .

ثالثها : وقيل : ان المشركين كانوا اذا ذكروا آلهتهم وصفوها بذلك فعلق ذلك بحفظه صلى الله عليه وسلم فجرى على لسانه سهوا . وقد رد ذلك القاضي عياض فأجاد .

رابعها : وقيل : لعله قال ذلك توبيخا للكفار ، وقال القاضي عياض وهذا جائز اذا كان هناك قرينة تدل على المراد ، ولا سيما وقد كان الكلام في ذلك

الوقت فى الصلاة ،جائزا ، والى هذا نحا الباقلانى •

خامسها : وقيل : أنه لما وصل الى قوله ، ومناة الثالثة الاخرى ، خشى المشركون أن يأتى بعدها بشىء يذم آلهتهم به كعادته اذا ذكرها ، فبادروا الى ذلك الكلام فخلطوه فى تلاوة النبى صلى الله عليه وسلم على عادتهم فى قولهم : لا تسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه لعلكم تغلبون • أى أظهروا اللغو فيه برفع الأصوات تخليطا ، وتشويشا عليه ، ونسب ذلك للشيطان لكونه الحامل لهم عليه أوالمراد بالشيطان ، شيطان الانس •

سادسها : وقيل : المراد بالغرانيق العلا : الملائكة وكان الكفار يقولون :الملائكة بنات الله ، ويعبدونها فنسق (١) ذكرالكل ، ليرد عليهم بقوله "تعالى" ألكم الذكر وله الانثى ، فلما سمعه المشركون ، حملوه على الجميع ، وقالوا قد عظم آلهتنا ورضوا بذلك ، فنسخ الله تينك الكلمتين وهما قوله (تلك الغرانيق العلا ، وان شفاعتهن لترتجى) وأحكم آياته •

سابعها : وقيل : كان النبى صلى الله عليه وسلم يرتل القرآن فترصده الشيطان فى سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمات محاكيا صوت النبى صلى الله عليه وسلم بحيث سمعه من دنا اليه فظنه من قول النبى صلى الله عليه وسلم وأشاعها • قال القاضى عياض : وهذا أحسن الوجوه ، وهوالذى يظهر ترجيحه • (٢) ويؤيده ما روى عن ابن عباس فى تفسير : تمنى ، بتلا وكذا استحسن ابن العربى هذ التأويل ، وقال : معنى قوله فى أمنيته أى فى تلاوته فأخبر تعالى فى هذه الآية أن سنة الله فى رسله اذا قالوا قولا زاد الشيطان فيه من قبل نفسه ، فهذا نص فى أن الشيطان زاد فى

---

(١) أى نسق النبى صلى الله عليه وسلم ذكر الأصنام والملائكة ليرد عليهم هـ

(٢) قلت : انما قال القاضى ان ذلك هو أحسن الوجوه على فرض صحة القصة ولكنه نفى صحتها ، كما سترا ه قريبا ان شاء الله

قول النبى صلى الله عليه وسلم ، لا أن النبى صلى الله عليه وسلم قاله ، لانه معصوم ، وقد سبق الى ذلك الطبرى مع جلالة قدره وسعة علمه وشدة ساعده فى النظر فصوب هذا المعنى اهـ كلام فتح البارى (١) بواسطة نقل سليمان الجمل الى أن قال : الغرانيق فى الأصل : الذكور من طير الماء ، واحدها غرنوق كفردوس أو غرنوق كعصفور ، أو غرنيق كعليق أو غرنيق كمسكين : سمى به لبياضه ، وقيل هو الكركى ، والغرنوق أيضا الشاب الأبيض الناعم ، وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله ، وتشفع لهم فشبهت بالطيور التى تعلو فى السماء ، وترتفع) انتهى منه (٢) .

قلت : اعلم أن ما ذكره سليمان الجمل عن الحافظ ابن حجر على جلالة قدره مؤيدا به ثبوت قصة الغرانيق هذه بأن لها أصلا ، ودعاه ذلك الى أن جمع بين ما نطقت به من الكفر وبين الآيات المعارضة لها بتأويلات اجتهادية مشكوك فيها ، وقال : ان كلام ابن العربى فى رد القصة وكذا القاضى عياض كله لا يتمشى على قواعد المحدثين لأن الطرق اذا كثرت ، وتباينت مخارجها دل على أن لها أصلا ، يرد عليه ما يأتى :

أولا : أن مما يتعلق بقواعد المحدثين بهذه القصة هو العمل فى التعارض ، والعمل فى التعارض عندهم ، أنه اذا تعارض الدليلان وجب المصير الى الجمع اذا أمكن ، لأن اعمال الدليلين أولى من الغاء أحدهما . ثم اذا لم يمكن الجمع ، نظر فى المتأخر منهما وحكم به على الآخر ، بأنه ناسخ له ، ثم اذا لم يعرف ذلك نظر فى المرجحات ثم اذا لم يمكن الترجيح ، وجب التوقف وعدم العمل بأحدهما .

والتعارض المذكور ، لا يتم الا اذا اتحد الدليلان فى الصحة . وكون النبى

---

(١) سليمان الجمل ، المصدر السابق جـ ٣ ص ١٧٤ — ١٧٥ ، أى بواسطة
(٢) سليمان الجمل ، نفس المصدر

صلى الله عليه وسلم نطق بتلك الكلمات الكفرية " تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى " فهذا مناقض لقوله جل وعلا (وما ينطق عن الهوى • ان هو الا وحى يوحى) وقوله (ولو تقول علينا بعض الاقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين) وقوله (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) الى غير ذلك من الآيات التى لا تحصى كثرة والروايات التى ذكر الجمل عن الحافظ ابن حجر وغيره •

وقال الحافظ : ان منها ما هو على شرط الصحيح ، وأن الطرق اذا كثرت وتباينت مخارجها ، دلت على أن للقصة أصلا ، لا يمكن لها مهما كثرت طرقها وتباينت مخارجها - وهى كلها مراسيل - أن تصل فى القوة الى حد التعارض مع القرآن الكريم ، لانه متواتر ، والمتواتر لا تقاومه مراسيل وأخبار آحاد غير قوية • وقد قدمنا أن قواعد المحدثين قاضية بأن التعارض الذى يوجب النظر فى امكان الجمع والنسخ والترجيح شرطه أن يتحد الدليلان فى قوة السند • ومعيهات للمراسيل وأخبار الآحاد أن تكون مساوية للقرآن المتواتر فى القوة حتى يحكم بالتعارض بينهما ثم يصار الى التأويل مع أن التأويلات التى ذكرها الجمل عن ابن حجر أن العلماء سلكوا فى تأويلها مسالك نحو السبعة ، بعضها مردودة بنفس الآيات التى ردت بها قصة الغرانيق •

ومن ذلك قولهم : قيل : جرى ذلك القول على لسانه حين أصابته سنة من النوم وهو لا يشعر • فهذا مردود بأن الشيطان ، لا سلطان له على النبى مطلقا لا فى النوم ولا فى اليقظة ، قال تعالى (انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون • انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) وكونه يتسلط عليه فى النوم حتى يخلط فى القرآن ما ليس منه ، فهذا أكبر سلطان لأن النوم لابد منه فاذا كان كلما نام أمكنه التسلط عليه فهو اذن متسلط على الدوام ، وهو باطل •

وكذلك قولهم : ان الشيطان ألجأه الى أن قال ذلك بغير اختياره فهو مردود بنفس الدليل ولانه لو أمكنه ذلك لما قدر أحد على طاعة ربه ، كما قال ذلك ابن العربى .

وكذلك قولهم : ان ذلك علق بحفظه من مشركى قريش فجرى على لسانه سهوا ، فهو مردود بقوله تعالى (وما ينطق عن الهوى) وكذلك قولهم : انه قال ذلك ، توبيخا فهو يحتاج الى قرينة كما قال القاضى عياض وان كان الباقلانى نحا اليه ، والمانع لى من قبوله أن الكفار سجدوا مع النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا ماذكر آلهتنا بخير قبل اليوم وهذا ينافى التوبيخ المذكور كما رأيت .

ويرد عليه ثانيا : ما سأذكره لك الآن من كلام المحققين من أهل العلم بكتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك لوضوح أدلتهم ، وقوة دلالتها فى محل النزاع ، فمنها ماذكره سليمان الجمل نفسه ، قبل كلامه الآنف الذكر قال ما نصه شارحا لقول الجلال السيوطى :

(ألقى الشيطان فى أمنيته) قراءته ما ليس من القرآن الى قوله : بالقاء الشيطان على لسانه من غير علمه) : (عبارة المواهب قال الامام فخر الدين الرازى مما لخصته من تفسيره : هذه القصة : باطلة موضوعة لا يجوز القول بها قال الله تعالى (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى) وقال تعالى : سنقرئك فلا تنسى) .

وقال البيهقى : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلم فى أن رواة هذه القصة مطعونون ، وأيضا فقد روى البخارى فى صحيحه أنه عليه الصلاة والسلام قرأ سورة النجم وسجد معه المسلمون والمشركون ، والانس والجن ، وليس

فيه حديث الغرانيق بل روى هذا الحديث من طرق كثيرة ، وليس فيها ألبتة حديث الغرانيق ، ولا شك أن من جوز على الرسول صلى الله عليه وسلم ، تعظيم الأوثان فقد كفر لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه ، كان فى نفى الأوثان ، ولو جوزنا ذلك لارتفع الأمان عن شرعه ، وجوزنا فى كل واحد من الأحكام ، والشرائع أن يكون كذلك ، أى مما ألقاه الشيطان على لسانه ، ويبطل قوله تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته) فانه لا فرق فى العقل بين النقصان من الوحى ، وبين الزيادة فيه . فبهذه الوجوه النقلية والعقلية عرفنا على سبيل الاجمال ، أن هذه القصة من وضع الزنادقة ، لا أصل لها . انتهى كلام الرازى) (١) فواسطة نقل الجمل . واليك قول القرطبى :

قال القرطبى رحمه الله تعالى : (الأحاديث المروية فى سبب النزول لهذه الآية لا يصح شىء منها ، ولكن لما موه بعض الكفار على عوامهم أن من حق الأنبياء ألا يعجزوا عن شىء فلم لا يأتينا محمد بالعذاب ، وقد بالغنا فى عداوته ، وكانوا يقولون أيضا ينبغى ألا يجرى عليهم سهو ، ولا غلط ، فبين سبحانه وتعالى بهذه الآية ، أنهم بشر ، وأن الآتى بالعذاب ، هو الله تعالى على مايريده ، وأما البشر فيجوز عليهم السهو والنسيان والغلط الى أن يحكم الله آياته ، وينسخ حيل الشيطان هـ . وذكر حديثا رواه الليث عن يونس عن الزهرى عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (والنجم) فلما بلغ : ومناة الثالثة الأخرى وسهى فقال : ان شفاعتهن لترتجى فلقيه المشركون والذين فى قلوبهم مرض فسلموا عليه وفرحوا فقال : ان ذلك من الشيطان ، فأنزل الله الآية (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى) الآية .

---

(١) الجمل ، المصدر السابق ، جـ ٣ ص ١٧٣

قال النحاس : وهذا حديث منقطع وفيه هذا الأمر الفظيع (قال) : وكذا حديث قتادة وزاد فيه : وانهن لهن الغرانيق ، (قال) : وأفظع منه ماذكره الواحدى عن كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله من أن النبى قرأ على جبريل " تلك الغرانيق " وقال جبريل : ماجئتك بهذا ، وأنزل الله (لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا) ، قال أيضا : وهذا حديث منكر مقطوع ، ولاسيما حديث الواقدى ، الى أن قال : وقال ابن عطية : وهذا الحديث الذى فيه الغرانيق العلا وقع فى كتب التفسير ، ولم يدخله البخارى ولا مسلم ولا ذكره فى علمى مصنف مشهور ، بل يقتضى مذهب أهل الحديث أن الشيطان ألقى شيئا ما ، ولا يعينون هذا ولا غيره ، قال ولا خلاف أن القاء الشيطان انما هو لألفاظ مسموعة ، بها وقعت الفتنة . ثم اختلفوا فيما هو هذا الالقاء . فأهل التفسير قالوا انه شىء ألقاه الشيطان على لسانه صلى الله عليه وسلم ، وقال بعض العلماء ان الشيطان حاكى بصوته صوت النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : وروى نحو هذا التأويل عن الامام الجوينى أبى المعالى ، قال : وقيل : الذى ألقى هذه الالفاظ شيطان انسى . كقوله عز وجل (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) ، قال : وقال بعضهم : تلا النبى صلى الله عليه وسلم هذا القول ناعسا ، قاله قتادة كما قدمنا . انتهى ملخصا من القرطبى (١) .

ثم ساق كلام القاضى مختصرا مستشهدا به وقال : ان الرأى الأخير الذى اختاره القاضى عياض هو أحسن ماقيل فى هذا ، وهو أن الشيطان ألقى ذلك القول القبيح أثناء سكتات النبى صلى الله عليه وسلم وسمعه الناس منه وأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بذلك ألبتة .

قلت : وهذا الرأى جيد لتمشيه مع سلامة جانب النبوة المجمع على عصمته

---

(١) القرطبى ، المصدر السابق ، ج ١٢ ص ٨١ بتصرف

من مثل ما دلت عليه الآثار المروية عن ابن عباس من طريق الكلبي وأمية بن خالد وأبي بكر بن عبد الرحمن .

الا أن هناك من الآراء ماهو أقوى دليلا من هذا مع أن القاضي لم يذكره الا على سبيل الفرض ، وذلك في قوله : وأما المأخذ الثاني فهو على فرض صحة القصة قال : وقد أعاذنا الله من ذلك ثم ساق الكلام فدل ذلك على أنه لم يذكره الا على سبيل الفرض ، والتسليم الجدلي . وأما الرأي الذي يؤيده القرآن الكريم هو أن قصة الغرانيق باطلة ، وأن الالقاء الشيطاني المذكور في سورة الحج مجموعة أشياء غير محصورة ومنها الوساوس المانعة من قبول الحق ، والقول بأنه سحر أو شعر أو كهانة . والعلم عند الله تعالى . ويلي هذا قول عياض رحمه الله تعالى .

وخلاصة ماقاله فى كتابه الشفاء باختصار بعد أن ذكر الدليل على صدق النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم من الاخبار به على غير ماهوعليه لا قصدا ، ولا سهوا قال بعد هذا :

اعلم رحمك الله أن لنافى مشكل هذا الحديث مأخذين ، أحدهما فى توهين أصله ، والثانى مبنى على فرض تسليمه .

أما الأول : فيكفى أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند صحيح متصل ثقة ، وانما أولع به ، وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح ، وسقيم ، قال أبوبكر البزار : وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم باسناد متصل يجوز ذكره الا ما رواه شعبة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب . والشك فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان بمكة ، وذكر القصة السابقة ، ولم يسنده عن شعبة الا أمية بن خالد ، وغيره يرسله عن ابن جبير وانما يعرف عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس . فقد بين أبوبكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا وفيه من الضعف مانبه عليه مع وقوع الشك الذى ذكرنا فيه الذى لا يوثق به ولا حقيقة معه .

وأما حديث الكلبى فمما لا تجوز الرواية عنه به ، ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه كما أشار اليه ، والذى فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ : "والنجم" فسجد ، وسجد المشركون والمسلمون معه ، والانس والجن (١) . هذا هوتوهينه من طريق النقل .

---

(١) البخارى . محمد بن ابن اسماعيل . الجامع الصحيح . تحقيق محمد أبوالفضل . القاهرة الفجالة الجديدة سنة ١٣٧٨ هـ جـ ٥ ص ١١٨

وأما المأخذ الثاني الذي هو مبني على فرض صحة الحديث لو صح " قال " : وقد أعاذنا الله من صحته فهو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كما أمره الله : يرتل القرآن ترتيلا ، ويفصل الآي تفصيلا في قراءته كما رواه الثقات عنه فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكيا نغمة الرسول صلى الله عليه وسلم بحيث يسمعه من دنا اليه من الكفار فظنوها من قول النبي صلى الله عليه وسلم وأشاعوها . ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله ولتحققهم من حال النبي صلى الله عليه وسلم في ذم الأوثان وعيبها ما عرف منه صلى الله عليه وسلم ، فيكون على هذا ما روى من حزنه عليه الصلاة والسلام ، لهذه الاشاعة . وقد قال الله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى الى قوله ثم يحكم الله آياته (١) والله عليم حكيم) ، انتهى منه مختصرا .

قلت : وهذا هو اختيار أكثر أهل العلم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم متقدميهم ومتأخريهم . أما من المتقدمين فقد ذكرت بعض أقوالهم فيما سلف قريبا ، وأما من المتأخرين فقد اختار هذا الرأي منهم شيخنا الشيخ محمد الامين بن محمد المختار رحمه الله تعالى في كتابه " أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن " وهو من الراسخين في العلم بكتاب الله تعالى ، دون منازع . قال رحمه الله تعالى مانصه : (

وهذا القول الذي زعمه كثير من المفسرين وهو أن الشيطان ألقى على لسان النبي صلى الله عليه وسلم هذا الشرك البواح الذي هو قولهم : تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن لترتجى يعنون اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى الذي

---

(١) القاضي عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي ، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى . الطبعة الأخيرة سنة ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م مطبعة مصطفى البابي القاهرة . ج ٢ ص ١٠٦ الى ١١٢

لا شك فى بطلانه وفى نفس سياق آيات النجم التى تخللها القاء الشيطان المزعوم قرينة قرآنية واضحة على بطلان هذا القول ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم ، قرأ بعد موضع الالقاء المزعوم بقليل قوله تعالى فى اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ، (ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) وليس من المعقول أن النبى صلى الله عليه وسلم يسب آلهتهم ، هذا السب العظيم فى سورة النجم متأخرا عن ذكره لها بخير المزعوم ، الا وغضوا عليه ولم يسجدوا لأن العبرة بآخر الكلام الذى حكم بهذه الأوصاف على هذه الآلهة مع أنه قد دلت آيات قرآنية على بطلان هذا القول ، وهى الآيات الدالة على أن الله لم يجعل للشيطان سلطانا على النبى صلى الله عليه وسلم ، واخوانه من الرسل وأتباعهم المخلصين ، كقوله تعالى :

(ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) الآية

وقوله (وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك) الآية

وقوله تعالى (وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى) الآية

ومنها أيضا قوله (وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى)

وقوله تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون)

وقوله فى القرآن (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)

وقوله (وانه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)

الى أن قال : والذى يظهر لنا أنه الصواب وأن القرآن يدل عليه دلالة واضحة وان لم ينتبه له من تكلم على الآية من المفسرين هو أن الذى يلقيه الشيطان فى

قراءة النبى صلى الله عليه وسلم ، الشكوك ، والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها ، كالقائه عليهم أنها سحر أو شعر أو كهانة أو أساطير الاولين أو أنها مفتراة على الله ، ليست منزلة من عنده (قال) : والدليل على هذا المعنى أن الله بين أن الحكمة فى الالقاء المذكور امتحان الخلق ، لانه قال : (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض) ثم قال : (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم) الآية انتهى (١) منه .

ومنهم أيضا الشيخ ناصرالدين الالبانى وهو فريد عصره فى التحقيق فى علم الحديث . وقد ألف فى قصة الغرانيق هذه ، رسالة سماها : نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق . والحاصل أن العلماء اختلفوا فى قصة الغرانيق هذه . ومذاهبهم فيها ثلاثة لا رابع لها :

قوم صححوها ولكنهم أجمعوا على تأويل معناها المتبادر منها ، وسلكوا فيها مسالك أحسنها عندهم أن الشيطان ألقى تلك الكلمات أثناء سكتات النبى صلى الله عليه وسلم ، وليس فى ذلك ما يخل بالعصمة ، وهو المذهب الاول .

وقوم أبطلوها ابطالا باتا ، وهؤلاء ذهبوا فى معنى آية الحج هذه التى يدعى أن سبب نزولها ، ذلك الذى ألقاه الشيطان أثناء قراءة النبى صلى الله عليه وسلم سورة (والنجم) مذهبين أحدهما أنه ألقاه أثناء سكتات النبى صلى الله عليه وسلم لسورة النجم ، وهو على تسليم وفرض صحة القصة لو صحت كما ذهب اليه المصححون لها ، والمذهب الثانى أن الذى ألقاه الشيطان هو الوساوس المانعة من قبول سماع القرآن ، والدعوة الى الحق ، واستدل على هذا القول الاخير بقوله تعالى : (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن

---

(١) أضواء البيان ، المصدر السابق ، جـ ٥ ص ٧٢٧ ـ ٧٢٨ بتصرف قليل

والغوا فيه لعلكم تغلبون . وكوحى الشيطان عليهم أنه سحر أو شعر أو أساطير الأولين ، وخير ما يفسر به كتاب الله ، كتاب الله . أما أهل القول الأول فمنهم الحافظ ابن حجر وسليمان الجمل والزمخشري وابن جرير الطبري وأبو السعود والبيضاوي وغيرهم . وأما أهل القول الثاني فمنهم القاضي عياض والبيهقي وابن كثير ، والفخر الرازي ، والقرطبي ومن المتأخرين الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي والشيخ ناصر الدين الألباني ، وغيرهم .

والذي يظهر لي أنه الراجح ان شاء الله بالدليل العقلي والنقلي هو بطلان قصة الغرانيق ، وأنها من وضع أعداء الاسلام لمعارضتها كتاب الله جل وعلا ، واجماع الأمة على عصمة النبي صلى الله عليه وسلم من النطق بكلمة الكفر بدليل أن الله سبحانه يقول : (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) (قل مايكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ان أتبع الا مايوحى الي) ، (وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى) الى غير ذلك من الآيات التي تقدم ذكرها مرارا وهي آيات محكمات ، والاجماع .

وقصة الغرانيق لم تذكر لها الا مراسيل وأخبار آحاد لا تقوم لها قائمة ، وقد ردها العلماء بما رأيت ، والذين أثبتوها أجمعوا على رد معناها . وبذلك جمعت بين ضعف السند ، والمتن ، وقوة المعارض .

وأما معنى آية الحج وهي قوله (الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) فالظاهر لي حملها على ما دل القرآن عليه من أنه كان يلقي ويوسوس للكفار ، أن الذي يقرؤه النبي صلى الله عليه وسلم ما هو الا أساطير الأولين . وتارة يلقي اليهم أنه سحر أو شعر ، أو كلام مجنون ، وأخرى يلقي اليهم أنهم لا يستمعوا اليه ، وأنهم يلغوا فيه لعلهم يغلبون ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

قوله تعالى (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) .

اعلم يرحمك الله أن هذه الآية الكريمة أورد الناس حولها اشكالين :

أحدهما :

متقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى زينب بنت جحش ، وقعت فى قلبه ، وصار يقول : (سبحان مقلب القلوب) ، ولما عرض عليه زيد بن حارثة طلاقها أخفى عنه ذلك ، وقال له : (أمسك عليك زوجك واتق الله) وأن هذا معنى قوله تعالى (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) .

وهذا القول يرده نص هذه الآية الكريمة . ووجه ذلك أن الله جل ذكره ، صرح بأن الذى أخفاه الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن الله سيظهره والذى أظهره الله بعد ذلك هو طلاق زيد لزينب ، وتزوجه هو صلى الله عليه وسلم لها ، وليس فى القرآن ، ولا فى السنة أكثر من هذا ، وهى مسألة يراد منها ابطال عادة جاهلية هى جعل الابن الدعى كالابن للصلب فى الميراث وفى النكاح وغير ذلك .

وكان زيد يسمى : زيد بن محمد صلى الله عليه وسلم ، ولما كانت المسألة ذات صعوبة عليهم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم ، هو القائد الموجه ، والمشرع كان تطبيقه لهذه المسألة بفعله ، أدعا لهدمها ، وانمحائها ، وانصياع القوم لقبولها . وهذا أمر جلى وواضح ، والآيات دالة عليه دلالة مطابقة ، ولا يجوز أن يزاد فى القرآن ماليس فيه ، ولا أن ينقبض منه ماهو منه . قال الله تعالى : (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم

اذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا) . هذا هو الاشكال الأول ، وقد رأيت الجواب عنه من القرآن الكريم واضحا .

وأما الاشكال الثاني فهو في قوله تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ووجه الاشكال هو كيف يكون الرسول صلى الله عليه وسلم وهو معصوم ومع ذلك يخشى الناس في أمر يجب فيه تقديم خشية الله ؟

والجواب الصحيح الذي لا لبس فيه ، هو ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى عن علي بن الحسين أن النبي صلى الله عليه وسلم (كان قد أوحى الله جل وعلا اليه أن زيدا يطلق زينب ، وأنه يتزوجها بتزويج الله اياها ، فلما تشكى زيد للنبي صلى الله عليه وسلم خلق زينب ، وأنها لا تطيعه ، وأعلمه أنه يريد طلاقها ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على جهة الأدب ، والوصية : اتق الله في قولك ، وأمسك عليك زوجك ، وهو يعلم أنه سيفارقها ، ويتزوجها هو وهذا الذي أخفى في نفسه ، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لما علم أنه سيتزوجها ، والذي خشيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد ، وهو مولاه وقد أمره بطلاقها ، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر أن خشي في شيء قد أباحه الله له ، بأن قال : (أمسك) مع علمه بأنه سوف يطلق ، وأعلمه أن الله أحق بالخشية أي في كل حال (ثم قال) :

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية ، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين كالزهري والقاضي بكر بن العلا القشيري والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم . والمراد بقوله وتخشى الناس انما هو ارجاف اليهود بأنه نهى عن تزوج نساء الأبناء وتزوج بزوجة ابنه ، فأما ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم هوى زينب امرأة

زيد وربما أطلق بعض المجانين لفظ عشق ، فهذا انما يصدر عن جاهل بعصمة النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل هذا أو مستخف بحرمته ، قال الترمذي الحكيم في نوادر الاصول ، وأسند الى علي بن الحسين قوله : فعلي بن الحسين جاء بهذا من خزانة العلم جوهرا من الجواهر ودرا من الدرر أنه انما عتب الله عليه (صلى الله عليه وسلم) في أنه قد أعلمه أن ستكون هذه من أزواجك ، فكيف قال بعد ذلك لزيد أمسك عليك زوجك وأخذتك خشية الناس أن يقولوا : تزوج امرأة ابنه ، والله أحق أن تخشاه . "قال" :

وقال النحاس : قال بعض العلماء : ليس هذا من النبي صلى الله عليه وسلم خطيئة ، ألا ترى أنه لم يؤمر بالتوبة ولا بالاستغفار منه . وقد يكون الشيء ليس بخطيئة الا أن غيره أحسن منه ، وأخفى ذلك في نفسه خشية أن يفتتن الناس) (١) اهـ محل الغرض منه .

قلت : وفي المسألة أقوال كثيرة ضربنا عن ذكرها صفحا لعدم دليل يدل عليها ، ولما تحمله من قلة الأدب مع نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولا فائدة في ذكرها سوى الاطالة . والراجح في المسألة هو ما ذكرته مع دليله والعلم عند الله تعالى .

---

(١) القرطبي . المصدر السابق . ج ١٤ ص ١٩٠ الى ١٩١

وأما قوله تعالى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) فالاشكال الوارد عليه أنه يفهم من ظاهره أن هناك ذنبا والنبى صلى الله عليه وسلم معصوم، فكيف ذلك ؟ والجواب عن ذلك أن للعلماء فيه مذاهب :

(منهم من قال انه على سبيل الفرض ، ولا يلزم كونه صدر منه الذنب كقولهم : فلان يضرب من يلقاه ومن لا يلقاه ، ومعلوم أن من لا يلقاه لا يمكن ضربه .)

(ومنهم من قال : معناه : الستر ، والستر صادق على الحيلولة دون الذنب وعقوبته ، ولا يلزم كونه وقع بالفعل ، وهذا مأخوذ من معنى الستر لغة.)

(ومنهم من قال انه من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين وهو قول شيخ الاسلام زكريا الأنصارى) (١) .

(ومنهم من يرى جواز الصغائر على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيحمل ذلك عليها ، " والفارق بين الأنبياء وغيرهم أنهم لا يقرون عليها ") .

(ومنهم من قال : ما تقدم من ذنبك ، ذنب أبويك آدم وحواء ، وما تأخر من ذنوب أمتك ، قلت ويؤيد هذا والله أعلم أن الخطاب قد يرد فى الشرع لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد به أمته قطعا ، وهو غير داخل فيه ، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى : " وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما " ومعلوم قطعا أنه صلى الله عليه وسلم ، لم يدرك أحد أبويه .)

---

(١) سليمان الجمل . المصدر السابق . بتصرف جـ ٤ ص ١٥٦

(وقال بعضهم : لو كان هناك ذنب لغفر لك (١)) .

قلت : والذى يظهر لى أنه الصواب فى هذه المسألة ان شاء الله تعالى هو حمل هذا الذنب المذكور على الأمور التى ذكر فى القرآن الكريم أن النبى صلى الله عليه وسلم اجتهد فى فعلها ، وبين الله جل وعلا له أن الأولى غيرها كقوله تعالى : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض الى قوله تعالى لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) وكقوله تعالى : (عفى الله عنك لم أذنت لهم) الآية ، وكقوله (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) الآية وما أشبه ذلك ، فهذه وان لم تعد ذنبا فى سياق العتاب ، ففى سياق الامتنان لا مانع من ذكرها ، لأنها مصحوبة بذكر سترها ، وعفوها ، أو هى محمولة على الصغائر عند من جوز صدورها من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والعلم عند الله تعالى .

---

(١) القرطبى ، المصدر السابق ، جـ ١٦ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣

وأما قوله تعالى (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) الآية فهو من باب ما يجتهد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ثم ينبه على أن الأولى خلاف ما وقع، ووجه ذلك هنا أنه صلى الله عليه وسلم كان يحرص كل الحرص ، ويتفانى كل ما من شأنه أن يزيد الاسلام قوة وشوكة ، وكان يبذل فى ذلك شتى الوسائل وكان يرى أن أشراف قريش اذا دخلوا فى الاسلام قويت شوكته ، وامتد صيته ، وذلك بالاضافة الى شفقته عليهم لأنهم عشيرته وذووه ، وهو مأمور بالابانة لهم ولغيرهم ، والله سبحانه وتعالى قال له (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، وكان بعض أصحابه قد أسلم ، واطمأن عليه ، ومنهم ابن أم مكتوم ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يتطلع الى اسلام من لم يسلم من أشراف قومه وجاءه فوجد عنده صناديد قريش يحاول ادخالهم فى الاسلام وله طمع فى ذلك ، لا رغبة فى مالهم ، ولا استعظاما لجاههم ، ولكنه الحرص التام على تأدية رسالته ، وعلى ما يجلب الخير للاسلام والمسلمين ، ورجاء أن تعلو كلمة الله بهم ، اذا أسلموا وأسلم أتباعهم ، والأهم مقدم ، فجاء ابن أم مكتوم يسأل ، ولا يلزم أنه كان يعلم بوجود القوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه أعمى ، فكره النبى صلى الله عليه وسلم قطع تلك المحاولة ، اجتهادا منه فى هذا الأمر ، اذ لم يأته نص من الوحى فى هذا الموقف ، ولم يقل أحد انه عبس فى وجه الأعمى من أجل أنه أعمى ، والقوم شرفاء ، وانما لرجائه اسلامهم واسلام أتباعهم ، ليقوى بهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين منهم ابن أم مكتوم ، ولما كانت هذه الصورة يظهر عليها مجاراة الأشراف والأغنياء على حساب الضعفاء ، نبهه جل وعلا الى ما هو الأولى والأصوب ، وجاء ذلك التنبيه بصيغة العتاب ليكون أوقع فى النفوس الى يوم القيامة ، فكان صلى الله عليه وسلم اذا رأى ابن أم مكتوم قال : (مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى) ويبسط له رداءه .

وبالاضافة الى هذا فان القوم الذين كانوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال (بعض أهل التفسير انهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة ، والعباس بن عبد المطلب (١) ولم يسلم منهم أحد ماعدا العباس رضى الله عنه ، ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يعلم بمصيرهم ، والله سبحانه وتعالى عالم بما سيكون قبل أن يكون ، فيكون ذلك أيضا من أسباب العتاب وعليه فهو من نظير قوله تعالى (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) (انك لا تهدى من أحببت) ، (انك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين) والعلم عند الله تعالى .

وبهذا تنتهى الشبهة التى أورد أهل الحشو والكرامية ، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون .

---

(١) الجمل . المصدر السابق ج ٤ ص

وأما قوله تعالى (ووجدك ضالا فهدى) فقد تقدم الكلام عليه في قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام (قال فعلتها اذا وأنا من الضالين) والصحيح أن معناها وجدك ضالا عن الوحي وتفاصيله فهداك لذلك. وأما كونه بمعنى الضلال المقابل للايمان فلم يقل بذلك أحد من المسلمين. وقيل : وجدك محبا للهداية فهداك ، وقد تقدم أن الضلال يطلق بمعنى المحبة ومنه قول الشاعر :

هذا الضلال أشاب مني المفرقا * والعارضين ولم أكن متحققا
عجبا لعزة في اختيار قطيعتي * بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

والصحيح الأول ، والثاني غير بعيد ، ولا مانع منهما معا . والعلم عند الله تعالى .

وأما قوله تعالى (ووضعنا عنك وزرك) الآية . قال بعض العلماء : انها مثل قوله تعالى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) ومعنى ذلك كما قال الرازى ، وضعنا عنك وزرك : عصمناك من الوزر الذى ينقض ظهرك لو كان ذلك الوزر حاصلا فوضع الوزر ، كناية عن عصمته ، وتطهيره من دنس الأوزار ، ففيه استعارة تمثيلية حيث سمى العصمة وضعا مجازا ، انتهى منه بواسطة نقل سليمان الجمل .

ومنهم من حمل هذا الوزر على ماقيل النبوة من أمور كان فعلها قبل نبوته صلى الله عليه وسلم اذ لم يرد عليه شرع بتحريمها ، فلما حرمت عليه بعد النبوة عدها أوزارا ، وثقلت عليه وأشفق منها فوضعها الله عنه ، وغفرها له .

ومنهم من حمل ذلك على ما هو بعد النبوة من ترك الأفضل فى بعض الأحيان ، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين (١) والصحيح الذى يظهر لى فى هذه المسألة فى الأوزار أنها الأثقال التى كان يحملها قبل نزول الوحى من التطلع الى أمر هذا الكون ، ومما يشاهد قومه يتابعون من عبادة الأوثان والتخبط فى ظلمات الجهل ، والدليل على هذا ماهو محفوظ عنه من أنه كان يتسلق قمم الجبال ، ويبيت الليالى ذات العدد ، ويحمل الزاد لذلك ، وأنه كان يتباعد عن ملاهى القوم ، وحفلاتهم ، ومعبوداتهم ، وليس عنده من الوحى مايوجههم به ، ويوضح لهم الطريق الأقوم ، فهذا هو الوزر أى الثقل والحمل الذى وضعه الله عنه بالوحى الذى أنار به العالم أجمع ، والعلم عند الله تعالى .

---

(١) الجمل ، المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٥٥٤

" خاتمـــــــــــــــة "

نسأل الله بها حسن الخاتمــــة

والمراد منها بيان ما وقع الاجماع عليه من عصمة الانبياء ، وفيها مسائل :

الاولـــى : عصمتهم فيما طريقه التبليغ .

الثانيـــة : عصمتهم من الكبائر .

الثالثـــة : عصمتهم من الصغائر .

الرابعـــة : هل العصمة قبل النبوة أو بعدها ؟

المسألة الاولى :

أجمعت الامة على عصمتهم من الكذب والتحريف فيما يتعلق بالتبليغ . فلا يجوز عمدا ولا سهوا ، وأجمعوا على امتناع خطئهم فى الفتيا عمدا ، واختلفوا فى السهو ، وهو مردود بالاجماع .

وأما المسألة الثانية :

وهى عصمتهم من فعل الكبائر التى لا علاقة لها بالتبليغ . فقد انعقد الاجماع على عصمتهم منها ماعدا الحشوية قبحهم الله فقالوا بجوازها منهم على جهة العمد كما تقدم التصريح بذلك فى الكلام على شبههم التى ساقها الفخر الرازى حول أكثر الآيات التى هى موضوع هذا البحث ، وتقدم الرد عليهم ودحض حججهم بما لا مزيد عليه ان شاء الله .

وأما المسألة الثالثة :

وهى عصمتهم من الصغائر ، فقد جوز صدورهـــا منهم بعض العلماء ، ومنهم أكثر المعتزلة ، وقال أبوعلى الجبائى : يمتنعان عليهم الا على جهـــة التأويل ، وقيل يمتنعان عليهم الا على جهة السهو والخطأ . وهم مأخـــوذون بذلك ، وان كان موضوعا عن أمتهم ، وقالت الرافضة يمتنع ذلك على كل جهة .

وأما المسألة الرابعة :

وهى هل الانبياء معصومون قبل النبوة أو بعدها فقد اختلفوا فـــى ذلـــك :

فقالت الرافضة : انهم معصومون من وقت مولدهم (وهذا الذى صححه القاضى عياض (١) بعد أن ذكر الخلاف فيه) .

وقال كثير من المعتزلة : انهم معصومون من وقت النبوة ، قال فى المنتخب : (والمختار عندنا أنه لم يصدر عنهم الذنب حالة النبوة ألبتة ، لا الكبيرة ولا الصغيرة ، لانه لو صدر عنهم الذنب لكانوا أقل درجة من عصاة الامة لعظيـــم شرفهم ، وذلك محال ، ولئلا يكونوا غير مقبولى الشهادة ، ولئلا يجب زجرهـــم وايذاؤهم ، ولئلا يهم فى ذلك موهم ، ولئلا يكونوا مستحقين للعقاب ، ولئـــلا يصدر منهم ضد ما أمروا به . ولانهم مصطفون ، ولان ابليس استتاهم فى الاغواء) هـ من المنتخب للامام أبى عبدالله محمد بن أبى الفضل المرسى ملخصا (٢) .

---

(١) القاضى عياض الشفاء ، المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١٢٨

(٢) أبوحيان فى البحر ، المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٦١ ـ ١٦٢ بتصرف

قلت : ذكر رحمه الله تعالى جملة الاقوال التى ذكرت فى عصمة الانبياء دون تفصيل ، ورجح أنهم معصومون بعد النبوة من جميع المعاصى ، صغيرها وكبيرها ، وبرهن على ذلك بالادلة العقلية التى يقر بها أهل الاديان السماوية قاطبة ، لان من يأتى بالوحى من عند من لا تدركه الابصار ، فكيف يجوز أن يعصى الله فيما به أمر ، أو فيما عنه نهى وزجر ، والحال اننا مأمورون باتباعه فى كل أفعاله ، وتقريراته ، وأقواله ، ومحبة الله جل وعلا مشروطة باتباعه ، قال تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ،ويغفر لكم ذنوبكم)الآية .

(وحاصل كلام الاصوليين فى هذه المسألة عصمتهم من الكفر ، وفى كل مايتعلق بالتبليغ ، ومن الكبائر ، وصغائر الخسة كسرقة لقمة ، وتطفيف حبه ، وأن أكثر أهل الاصول على جواز وقوع الصغائر ؟ غير صغائر الخسة منهم ، ولكن جماعة كثيرة من متأخرى الاصوليين ، اختاروا أن ذلك وان جاز عقلا ،لم يقع فعلا ، وقالوا : انما جاء فى الكتاب والسنة مما يمنع من ذلك ، انما فعلوه تأويلا ، أونسيانا أو سهوا أو نحو ذلك .

قال شيخنا : والذى يظهر لنا أنه الصواب فى هذه المسألة أن الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم لم يقع منهم مايزرى بمروءاتهم العلية ، ومناصبهم السامية ، ولا ما يستوجب منهم نقصا ، ولو فرضنا أنه وقع منهم بعض الذنوب ، فانهم يتداركونه بالتوبة ، والاخلاص ، وصدق الانابة الى الله تعالى ، حتى ينالوا بذلك أعلى الدرجات ، فتكون بذلك درجاتهم أعلى من درجة من لم يرتكب شيئا من ذلك (قال) :

ومما يوضح ذلك قوله تعالى (وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه ، وهدى) فانظر أى أثر يبقى للعصيان بعد توبة الله عليه ، واجتبائه :

أى اصطفائه اياه ، وهدايته له . ولا شك أن بعض الزلات ينال صاحبها بالتوبة منها درجة أعلا من درجته قبل ارتكاب تلك الزلة والعلم عند الله تعالى) (١) انتهى منه .

والذى ترجح عندى فى هذه المسألة بعد مراجعة كلام العلماء وأدلتهم النقلية ، والعقلية هو أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون قطعا بعد النبوة من التحريف فيما طريقه التبليغ ، ومن الكبائر ، ومن صغائر الخسة ، وأنهم يصدر منهم بعض ما دون هذا كله ، وأنهم معصومون من الاقرار على ذلك والدليل على هذا هو استقراء القرآن الكريم ، أى الآيات التى مر ذكرها من سورة البقرة الى سورة " ألم نشرح " وأولهم فى ذلك أبونا آدم عليه السلام لما ذكر الله جل وعلا ما صدر منه ، ذكر أنه نبهه ، وأنه تاب وأناب ، وغفر له ، قال (وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) . وقال فى نوح عليه السلام (فلا تسألن ما ليس لك به علم ، انى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، الى قوله يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم) الآية ، وبعده ابراهيم عليه السلام ، ولم يذكر عنه أنه صدر منه ذنب ولا عصيان .

هذا فى القرآن ، وأما السنة فقد ذكرت أنه لم يكذب ابراهيم عليه السلام الا ثلاث كذبات كلها فى الله ، وأما يوسف عليه السلام ، فليس هناك ذنب وانما أوردت حوله بعض الشبه وقد أجيب عنها بما يكفى للمنصف رائد الحق .

---

(١) أضواء البيان ، المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٥٨٦

وأما موسى عليه السلام فقد ذكر في القرآن الكريم أنه قتل ذلك القبطي الكافر بدون وحي من ربه ولكنه تنبه لذلك ، واستغفر ربه ، وقد غفره الله جل وعلا له . قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام (رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم) .

وكذلك الأمر في داود عليه السلام قال تعالى (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك) الآية .

وكذلك الحال في سليمان عليه السلام قال تعالى (ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) .

وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم لما أخذ الفداء من أسرى بدر ، نبهه الله جل وعلا على ما هو الأولى والأفضل ، فقال تعالى (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) الى آخر الآيات ، ومثل ذلك قوله تعالى (عفى الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) وكقوله (عبس وتولى . أن جاءه الأعمى) الآيات .

وبهذا يرد على القائلين بأنه لو جاز صدور شيء منهم لكنا مأمورين باتباعهم فيه لأنه لو قدر جواز ذلك منهم لزم ألا يقروا عليه ، واذا لم يقروا عليه ، وثبتت توبتهم منه ، وغفرانه لهم ، بطل اتباعهم فيه قطعا ، والعلم عند الله تعالى .

وقد تم ما أردت جمعه في هذه الورقات ، ونرجو الله تعالى أن ينفع في نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يرفعني بها عنده في الدرجات .

محمد الخضر بن الناجي

مصـــادر البحـــــث

المصحف الكريم

كتـب التفسيــــر

١) ابن العربى ، محمد بن عبد الله ،
أحكام القرآن ، القاهرة عام ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م .

٢) ابن كثير ، اسماعيل بن عمر بن ضوء ،
تفسير ابن كثير ، الطبعة الأولى ، القاهرة عام ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م .

٣) ابن الجوزى ، عبد الرحمن بن الجوزى ،
زاد المسير فى علم التفسير ، الطبعة الأولى ، التاريخ .

٤) أبو حيان ، محمد بن يوسف بن على الأندلسى ،
البحر المحيط ، مطابع النصر الحديثة بالرياض .
الطبعـة التاريخ

٥) أبو السعود بن محمد العمادى ،
ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم ، مكتبة الرياض الحديثة .

٦) البيضاوى ، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازى ،
أنوار التنزيل واسرار التأويل ،
الطبعة مكانها تاريخها .

٧) الزمخشرى ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر ،
الكشاف ، الطبعة الأخيرة عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م .

٨) سليمان الجمل ،
الفتوحات الالهية ، بتوضيح الجلالين للدقائق الخفية .

٩) سيد قطب ،
في ظلال القرآن ، الطبعة الخامسة عام ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧م .

١٠) السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ،
الدر المنثور في التفسير بالمأثور .

١١) الشوكاني ، محمد بن علي ،
فتح القدير ، الطبعة الثانية ، مصر عام ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤م .

١٢) الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ،
أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن ،
الطبعة القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠م .

١٣) الطبرسي ، شيخ الطائفة الطوسية ،
التبيان ، طبع عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦م .

١٤) الفخر الرازي محمد بن عمر ،
عصمة الأنبياء ، الطبعة الأولى ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م .

١٥) القرطبي ، محمد بن احمد ،
الجامع لأحكام القرآن ، الطبعة الثانية بالقاهرة ١٣٨٧ هـ .

١٦) الكلبي ، محمد احمد ،
كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ، طبع بالقاهرة .

مراجع الحديث

١) البخاري ، محمد بن اسماعيل ،
الجامع الصحيح مع شرحه فتح الباري .
طبع عام ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩م .

٢) الحافظ ابن حجر ، فتح الباري ،

٣) القاضي عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي ، ،
الشفاء بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم ،
الطبعة الأخيرة سنة ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ م ، بالقاهرة .

٤) المنذري ،
مختصر سنن أبي داود ، مطبعة أنصار السنة بمصر ،
١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨م ، تحقيق محمد شاكر .

٥) الحافظ ابن حجر العسقلاني ،
تقريب التهذيب .

معاجم اللغة

١) الزبيدي ، محمد مرتضى ،
تاج العروس من جواهر القاموس ، طبع دار مكتبة الحياة . بيروت لبنان .

٢) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ،
مختار الصحاح ، الطبعة الرابعة القاهرة طبع بالمطبعة الأميرية ،
عام ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨م .

الموضـــــوع	الصفحـــة
كلمة الشكر والتقدير	أ
التمهيد	ب
تاريخ بدء الاهتمام بالموضوع	هـ
المقدمة	و
الفصـــــل الأول	١
في الكلام عن نبي الله آدم عليه السلام	
وفيه ثلاثة مباحث :	
المبحث الأول :	٢
في تأويلات العلماء لأكل آدم من الشجرة	
المبحث الثاني :	٣
في نسبة هذه الأقوال الى قائليها	
المبحث الثالث :	٦
في ماظهر رجحانه بالأدلة الشرعية والعقلية	
الشبهات والرد عليها	١٠
اجابة الرازي عنها	١١
فقلت مستعينا بالله / أما قولهم الخ ..	١١
تنبيه حول الكلام على آية الأعراف (هوالذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها) الآية	١٥
والذي يظهرلي أنه الصواب الخ .	١٧
ابن كثير يضعف الاثر الوارد في ذلك	١٨
التنبيه الثاني فيما أورده الكرامية والحشوية حول هذه الآية الكريمة	٢٠
فائدتان تتعلقان بالموضوع	٢٢
الفصـــل الثانـــــي	٢٥
فيما نسب الى نبي الله نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام	
المبحث الأول	٢٥

الموضـــــوع	الصفحـــة
الكلام على قوله تعالى (ونادى نوح ابنه) الآية	
المبحث الثانى	٢٨
فى عزو الأقوال ومناقشتها	
المبحث الثالث	٣٢
فيما ظهر لى رجحانه بالدليل القرآنى	
بيان ان الرسل لا يعلمون من الغيب الا ما علمهم الله	٣٣
الشبهات والرد عليها	٣٧
قلت وحاصل الجواب عن شبهتهم هذه	٤٠
مشروعية اطلاق العمل على الابن	٤٢
وخلاصة القول ونهايته فى ذلك	٤٤
فائدة حول قصة ابن نوح هذه	٤٥
الفصـــل الثالـــــث	
فى الكلام على نبى الله ابراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام	٤٦
المبحث الأول :	٤٦
فى قوله تعالى (ولقد آتينا ابراهيم رشده) الآيات	
المبحث الثانى :	٤٩
فى عزو الأقوال	
مايرد على كلام سيد قطب	٥٢
مايرد على كلام الطبرسى	٥٥
المبحث الثالث :	٥٨
فيما ظهر رجحانه فى الكذبات الثلاث	
تنبيهات حول ماورد عن ابراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام	٦٢
الفصـــــل الرابـــــع	
فيما نسب الى نبى الله يوسف عليه الصلاة والسلام وحوله عدة شبه :	٦٩
الأولى فى الكلام على قوله تعالى (ولقد همت به وهم بها) الآية	٧١

الموضـــــوع	الصفحـة
بيان من قال بجواز تقديم جواب لولا من النحاة	٧٢
" " " بعدم جواز تقديم ذلك وتجويزه حذفه لدلالة السياق	٧٣
اختيار المحققين فى هذه المسألة	٧٥
قول الزمخشرى فى هذه المسألة وما يرد عليه	٧٧
وأما باقى الشبهات الخ .	٧٩
الشبهة الثانية : قالوا كيف صبر على الرق الخ ...	٨٠
الشبهة الثانية حول قوله تعالى (وما أبرئ نفسى) الآية	٨١
الشبهة الرابعة حول سجنه عليه الصلاة والسلام	٨٢
الشبهة الخامسة حول قوله تعالى عنه عليه الصلاة والسلام (اذكرنى عند ربك)	٨٣
الشبهة السادسة حول طليه اخاه من اخوته	٨٤
الشبهة السابعة حول جعل السقاية فى رحل اخيه	٨٥
الشبهة الثامنة لم لم يعلم اباه بمكانه	٨٦
الشبهة التاسعة كيف رضى بسجود الأبوين	٨٧
الشبهة العاشرة حول قوله تعالى عنه عليه الصلاة والسلام (من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين أخوتى) الآية	٨٨
فائدة تتعلق بالشبهة الأولى حول ما ورد من همه صلى الله عليه وسلم بها	٩٠
الفصـــل الخامـــس	
فى الكلام على نبى الله يونس عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام	٩٣
المبحث الأول	
فى الكلام على قوله تعالى (وذا النون اذ ذهب مغاضبا)الآية	٩٣
المبحث الثانى	
فى عزو الأقوال ومناقشتها وأدلتها	٩٤
المبحث الثالث	
فى ما ظهر رجحانه من ذلك	٩٥

الموضـــــوع	الصفحة
الكلام على قوله تعالى (فظن أن لن نقدر عليه)	٩٦
كلام العلماء على هذه الآية مجملا	٩٧
الكلام على عزو هذه الأقوال	٩٨
بيان الترجيح والاستظهار من ذلك	٩٨
الكلام على قوله تعالى (انى كنت من الظالمين)	١٠٠
الكلام على قوله تعالى (ولا تكن كصاحب الحوت) الآية	١٠٠
الكلام على قوله تعالى (وان يونس لمن المرسلين اذ أبق) الآية	١٠١
والخلاصة انه دعاه الاستعجال الى الذهاب الخ	١٠٢
الشبهات والرد عليها	١٠٢
اجابة الرازى لاتنافى ماقدمته من بيانات	
أهل التفسير	١٠٤
الفصل السادس	
فى الكلام على نبى الله موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام	١٠٥
الكلام على معنى الكفر لغة	١٠٥
الضلال فى اللغة واطلاقاته	١٠٧
معانى الكفر والضلال عند العلماء من أهل التفسير	١٠٩
ترجيح ماظهر رجحانه	١١٦
الشبهات والرد عليها	١١٩
الفصل السابع	
فى الكلام على نبى الله داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام	١٢٧
الكلام على قوله تعالى (وهل أتاك نبأ الخصم) الآية	١٢٧
أقوال العلماء فى هذه الآية	١٢٨
الكلام على القدح فى الاسرائيليات وأنها لا تصلح دليلا	١٣١
مبحث فى عزو الأقوال ومناقشتها	١٣٣
مبحث فى الترجيح	١٣٧

الموضـــــوع	الصفحة
تنبيه يتضمن تضعيف بعض العلماء لقصة أوريا	١٤٠
رأى لبعض المتأخرين فى ذلك	١٤١
الفصـــل الثامـــن	
فى الكلام على نبى الله سليمان بن داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام	١٤٣
الاجابة عن اشتغاله بالخيل وما يرد على ذلك	١٤٥
الكلام على قوله تعالى (ولقد فتنا سليمان) الآية	١٥٠
تنبيه هناك قول آخر فى الجسد	١٥١
كلام الجمل على القول بأن ملكه فى خاتمه	١٥٣
ما اسند الى ابن عباس رضى الله عنهما من أن خاتم سليمان ضاع ووجد فى بطن حوت	١٥٥
استظهار بعض العلماء أن ابن عباس تلقى ذلك من أهل الكتاب	١٥٦
بطلان هذه القصة من عدة وجوه	١٥٧
امكان الاجابة عن ابن عباس	١٥٨
رأى بعض المتأخرين فى الجسد الذى القى على كرسى سليمان عليه السلام	١٦٠
مبحث فيما ظهر رجحانه	١٦٤
الفصل التاسع	
فى الكلام على أيوب عليه السلام . فى قوله تعالـــى (وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصـب وعذاب) الآية والاجابة عن الاشكال الوارد عليها	١٦٦
المبحـــث الأول	
فى جملة الأقوال	١٦٦
المبحث الثانى	
فى عزو الاقوال ومناقشتها	١٦٨

الموضـــــوع	الصفحـة
شبهات الحشوية ورد الرازى عليها	١٧٥
المبحث الثالث	
فيما ظهر رجحانه	١٧٦
مبنيا على أصلين	
الفصل العاشر	
فى قصة الغرانيق	١٧٩
تفسير قوله تعالى " الا اذا تمنى " الآية	١٨٠
أقوال أهل التفسير والحديث المثبتين لقصة الغرانيق كأبى السعود	١٨١
والبيضاوى ، والزمخشرى	١٨٢
والجمل ، والحافظ ابن حجر	١٨٣
والتأويلات التى سلكوها لها	١٨٦
ذكر مايرد على كلام الحافظ فى ذلك من تأصيله قصة الغرانيق	١٨٨
أقوال الذين أبطلوا قصة الغرانيق من أهل التفسير والحديث	١٩٠
ومنهم الرازى	
والقرطبى وابن كثير والبيهقى	١٩١
وابن العربى ، والقاضى عياض	١٩٤
قول شيخنا الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار	١٩٥
الكلام فى قوله تعالى ("وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) الآية	١٩٩
قول القرطبى فى ذلك	٢٠٠
ازالة الاشكال فى قوله تعالى " ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر " الآية	٢٠٢
بيان الراجح من ذلك عندى	٢٠٣
الكلام على قوله تعالى (عبس وتولى أن جاءه الأعمى	٢٠٤
وأما قوله تعالى " ووجدك ضالا فهدى "	٢٠٦
وأما قوله تعالى " ووضعنا عنك وزرك "	٢٠٧
الخاتمة ومحتوياتها	١٠٨
المسألة الأولى : أجمعت الأمة على عصمة الأنبياء من الكذب	١٠٨

الموضوع	الصفحة
المسألة الثانية : عصمتهم من الصغائر	١٠٩
المسألة الثالثة : هل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون قبل النبوة أو بعدها.	١٠٩
وحاصل كلام الأصوليين فى ذلك	٢١٠
قال شيخنا الشيخ محمد الأمين :	٢١٠
والذى يظهر لنا رجحانه	٢١٠